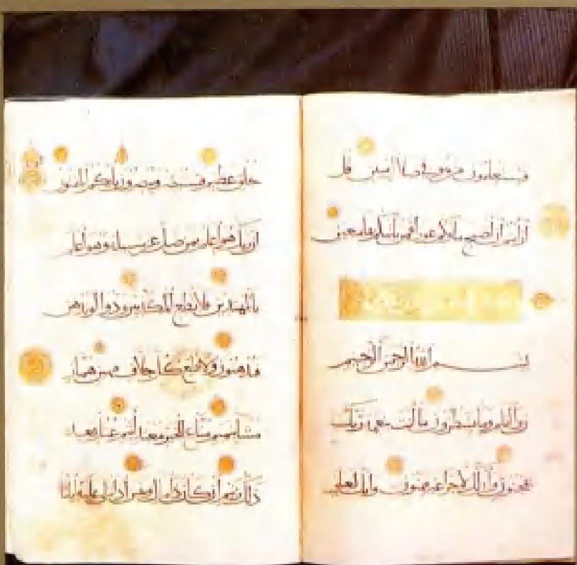
# النظرية القرآنية الكونية

## حول خلق العالم



بقلم

سليم الجابي

باحث في علم الأديان المقارنة

النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم
سليم الجابي

# النظرية القرآنية الكونية

## حول خلق العالم

# النظرية القرآنية الكونية

## حول خلق العالم


بقلم

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

# النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم

الطبعة الأولى - عدد النسخ المطبوعة (٢٠٠٠)



عنوان المؤلف: دمشق هاتف ٧٧٤١١٣ ص. ب ٥٤٢٥

تصميم الغلاف: م. نعيم الجابي

---

التنضيد الضوئي: الرضوان

فرز الألوان: الشريف

الطباعة: مطبعة نضر - هاتف ٢٢٢٣٦٣

# الاهــــداء

*إلى محمد رســول الله وخــاتــم النبيين الذي تلقى هذه النظـريـة القـرآنيـة الكونية ، مُنصبغةً بصبغة الحقائق الإيمـانيـة ، قبل أربعة عشـر قرناً من الزمان فجاءت موافقة للاكتشافات العلمية بشكل معجز يأخذ بمجامع القلوب ..*

❋

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة المؤلف

تشهد شهادة ميلادي المؤرخة في عام ١٩٢٨ ، بأني ظللت حتى عام بدء الحرب العالمية الثانية ، طفلاً ، لا دور لي في هذه الحياة . فما كنت أرى من حولي إلاّ شباباً وأناساً كبار السّن ، أتمثّلهم عمالقة ، أهابهم وأهاب مجالستهم . وكان لا يُثير في مشاعر الدهشة والاستغراب وحبّ الاطلاع ، إلا منظر سيّارة تنهب الأرض ، وهي تحمل ركّابها . وقلّما كنت أشاهد سيارة . وإلاّ منظر طيّارة تخترق أجواز الفضاء ، وهي ذات جناحين ، تصرعُ آذاني بأصوات محركّها . وما عدا ذلك ، كان يبدو لي عادياً جداً . فلا يلفت نظري شراب أو فاكهة أو طعام ، فقد كانت هذه جميعها أُهيتي اليومية .

ومنذ بدء الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الخمسينات ، عشت في جوٍّ فكريٍّ ، إزدحمت عليّ فيه تساؤلات متتالية عن أسباب الحرب ، وأهوالها ، ودواعيها ، والمقصود منها . وكانت تُخامرني إلى جانب ، بل تعصف بي أعاصير التقاليد الموروثة ، والتيّارات الفكرية الجديدة ، والتنظيمات الدينية والحزبية . وظللت على هذا الحال ، حتى أنهيت دراستي الثانوية في أوائل الخمسينات .

والحق يقال أنها هزّتني تلك الأعاصير ، في تلك المرحلة من حياتي ، هزّاً عنيفاً . فاندفعت أفكّر في وضع حدٍّ لحالتي الفكرية ، والنفّسية تلك ، وتلمّس أرضيةٍ صلبةٍ أعرف فيها سكينة النفس ، واستقرار الفكر ، واطمئنان البال ، وأسكنُ فيها إلى يقين .

وبالرغم من أنني كنت نَهِماً لمطالعة الكتب ، في شتى المواضيع ، خلال دراستي الثانوية . فلم أقرأ كتاباً شافياً وافياً . فعزمت على حسم الأمر بمطالعة الشّرائع في جميع الأديان ، بادىء ذي بدء ، ولكن بموازين من العقل والعلم والمنطق السّليم ، لا موازين من التقاليد والموروثات .

المهمّ مما ذكرته ، هو أن موضوع هذا الكون الذي أعيش على سطح كوكب من كواكبه ، وهذا الكوكب يسمّونه الكرة الأرضية ، قد احتلّ هذا الموضوع في دراستي ومطالعتي ، منزلةً مرموقة ، واستنفذ منيّ قسطاً وافراً من البحث والتقصي . فانتهيت من ذلك كله ، إلى ما ستلاحظونه في هذا الكتاب .

لكنّه كثيراً ما طرحت على نفسي سؤالاً واحداً متكرّراً : هل كنت أنا من الأشخاص النادرين الذين فكروا في خلق هذا الكون ، وحاول تقصيّ المعرفة عنه ؟ .

وأنا ، بعد أن طالعت مختلف النظريات الوضعية التي ذهب إليها علماء الكونيات والفيزياء وغيرهم ، فيما اختص بأصل الكون وتطوّره . وبعد أن تدبّرت الكتاب السماوي الذي أقدّسه ، ويقدّسه كل مسلم . ونعتقد جميعاً بكونه مُنزلاً من عند الله ، والموصوف بالقرآن والفرقان . فقد تجلّت لعينيّ معالم نظريّة قرآنية كونية متعلّقة بخلق الكون وتطوره . وتحمل هذه النظرية جميع مقوّمات النظرية ، وتستحق هذا العنوان الكبير .

وحين قمت بالمقارنة ما بين النظريات الكونيـة القديمة والمعاصرة ، وهذه النظرية القرآنية الكونية ، تجلّت لعينيّ مزايا كلٍّ منهما . وهو ما سأعرض لبيانه في هذا الكتاب أيضاً .

على هذه الأسس التي ذكرتها ، أتقدّم لقرّائي واخواني الأعزاء ، بكل تواضع ، بكتابي هذا الذي أسميته « النظرية القرآنية الكونية » ، راجياً لمن يطالعه ، أن يخصّني بدعائه الخيّر ، إن أحسّ من هذا الكتاب منفعةً . وازدياد علم . مع تدبّري لقوله تعالى : ﴿وفوق كل ذي علمٍ عليم﴾ يوسف ٧٦ . والله من وراء القصد ، وإنّما الأعمال بالنيّات .

١٩٩٢/١٢/١٥

سليم الجابي

# أهميّة هذا البحث

تنبع أهمية البحث في معرفة أصل الكون ، وضرورة وضع نظرية له ، من عوامل عديدة ، أهمّها :

**أولاً** : اتصاف الناس عامة ، بالفضول وحب الاستطلاع . إذ لابدّ لكل رجل أو امرأة ، أن يتأمّل ما حوله من الكائنات . أن يُمض نهاره بوضيء طلعته ، وصبيح وجهه ، وواضح سنّته . أو يقضي ليله بسكون حركته ، وجلال هيبته وكمال ستره ، دون أن يدفعه فضوله إلى التساؤل عن مغزى وجوده ، وأصل الكون الذي يحيط به من كل جانب . فإذا لم نتقدّم للناس كافة بنظرية كونية تشفي غليلهم ، وتجيب عن تساؤلاتهم ، ونخلص بهم إلى بيان . تظل البشرية ، ونحن منها ، في حيرة واضطراب من الفكر ، وفي ليلٍ من الشك مظلم حالك .

**ثانياً** : فإن نحن تجاوزنا طبقة العامة من الناس ، إلى العلماء المختصّين . أدهشتنا إنجازاتهم العلمية ، وحلّهم لكثيرٍ من الألغاز الكونية ، وكشفهم ، بل إحاطتهم بالقوانين المهيمنة على هذا الكون .

فلو تناولنا علم دراسة طبيعة الكون ( الكوزمولوجيا ) على سبيل المثال ، هذا العلم الذي يدرس النظام الكوني المهيمن على السّماء ، وما احتوته من أجرامٍ لا تُحصى ، والتي يتألف منها هذا الكون الماديّ الفسيح اللاّمتناهي . أتضّح لنا أن مادته قد رُكّبت وفق نظام دقيقٍ ، سواء من حيث بنيتها الذرّية ، أو صلة أجرامها السماوية بعضها ببعض ، نظام ينطق بعظمة الخالق ودقيق إبداعه ، ومُحكم خلقه ، ومُتقن صنعه . وإلا فكيف تأتّي لهذا الكون أن يسير بأجرامه ، وكل ما انطوى عليه بقدرٍ وحسبانٍ ، وإحكامٍ وتدبير ؟ .

لا شك ولا ريب في أن كل شيء ، لا تتجلّى معالمه ، وتُكشف أسراره ، ولا يُعرف على حقيقته ، إلا إذا استوفى وجوده كامل أبعاده . من هنا قد لاحظنا أن نظرة علماء القرن العشرين قد اختلفت عن نظرة علماء القرن التاسع عشر . بل تباينت آراؤهم ، وتدابرت ، فأسفرت عن عدّة نظريات كونية أيضاً .

فإذا نحن رسمنا لتلك النظريات الكونية خطّاً بيانياً يمثل تطورها الحادث في اتجاهاتها . لاحظنا أن هذا الخط البياني ، إنّما يشفّ عن الاعتقاد بوجود منظّم أعظم لهذا الكون .

ذلك أن علماء القرن العشرين ، باتوا لا ينظرون إلى هذا الكون ، بنفس النظرة المادية التي ذهب إليها علماء القرن التاسع عشر في أوربا . وأخذ العقل يحتلّ في نظرتهم الكونية مكانته المرموقة . حتى غدت الأنظار مُتّجهة لمعرفة العقل المُطلق أيضاً .

فإذا تدبرنا اعترافات علماء المادة أنفسهم ، بأنهم لم يكتشفوا حتى الآن إلاّ قدراً مُعيّناً من التركيب الذرّي المادي . رأينا أنه بات من واجب العقلاء المفكرين ، أن يقفوا من النظريات الكونية المعاصرة ، موقف المعالجة والامتحان . فلا يجزموا بصحّة أيٍّ منها ، قبل التوثّق من الانتهاء في الأبحاث والدراسات إلى حقائق مطلقة .

فانظر إلى ما خلص إليه أحد مؤرّخي الحضارات ، وهو ( توماس برّي Thomas Berry ) ، فقد اعترف بأن النظريات الكونية كلها مجرّد نظرات ، تتبدّل آناً فآناً ، إذ قال : « فالقضيّة كلها قضية نظرة . ونحن الآن بالذات نواجه مشكلة ، لأنه ليس لدينا نظرة مقبولة . فلا النظرة القديمة تؤدي دورها على الوجه السّليم ، ولا نحن تعلّمنا النظرة الجديدة . » .

فأنتم ترون كيف ذهب هذا المؤرّخ ، إلى أن الأبحاث الكونية تطلع علينا كل يوم بشيء جديد ، فبينما كادت تستقرّ النظرة في القرن التاسع عشر ، على أن الكون مادة وحسب . فوجىء العالم بثورات علمية في القرن العشرين ، قلبت هذا المفهوم ، إذ أنه حدثت ثورة في الفيزياء على أيدي ( أينشتاين ) و( نيلز بور Niels Bohr ) و( فيرنر

هـايزبنـيرغ Werner Heisenberg ) . وثورة في مبـاحـث الأعصــاب على أيدي ( شـرنغتون Sherrington ) و( إكلس Eccles ) و( سـبري Sperry ) و( بنفليد Penfield ) . وثورة على صعيد علم النفس ، على أيدي علمـاء أمثـال ( فرانكـل Frankl ) و( ماسلو Maslow ) و( ماي May ) . بل ثورة حدثت على صعيد علم الكونيات أيضاً . حيث ظهرت إلى الوجود نظرية : ( الانفجار الكوني العظيم ) .

**ثالثاً** : وحين نستعرض نحن ، التاريخ البشري ، نلاحظ وجود تيّارين فكريّين اثنـين . يقول أحدهما بوجود خالق لهذا الكون . وينفي الثـاني منهمـا ، وجود هذا الخالق ، لقوله بأزليّة المادّة .

وحـين نتفحصّ مـا لدى هؤلاء ، وهؤلاء من حُجج وبراهين . فلا نجد لدى المـلحدين إلاّ فلسفاتهم النظرية . بينما نتلمّس لدى المؤمنين ، وجود كُتُبٍ سماويةٍ ، منسوبة إلى خالق هذا الكون . تبرهن على صحّة ما ذهبوا إليه .

هذا الأمر نفسه ، يدفعنا للتنقيب في هذه الكتب السماوية ، عمّا أسميناه « نظرية كونية » . فإذا صحّ أن مصدر هذه الكتب هو خالق هذا الكون نفسه ، فلا يُعقل إلا أن يكون قد ضمّن كتبه المقدّسة شيئاً من المعلومات ، بما يخصّ بحثنا المذكور .

**رابعاً** : ونحن المسلمين ، نؤمن بالقرآن الكريم الذي أنزله ربّنا ﴿ **هدى للناس** ﴾ كافة . والذي تتصّف تعاليمه بالشمولية والعلمية والعالمية . فلابدّ أن يكون هذا الكتاب قد عرض ، من جمـلة ما عرض . أقول قد عرض لهذا الذي ذكرنا . فمدّنا بنظرية كونيـة حول خلق هذا العالم ، الذي حيّر أعظم العقول البشرية ، وأدهشها ، ببُعْد غوره ، وترامي مداه ، ودقّة نظامه ، وإحكام قوانينه . فلابدّ أن يكون القرآن الكريم ، قد زوّد البشّـرية بنظرية كونيّـة عامة ، شـاملة ، ذات منطـلقات سـليمة ، ومعالم واضحة ، يطمئن إليها فكر الإنسان ، ويسلّم بها عقله ومنطقه السليم . هذا في مقابلة ما يضع البشر من نظريات كونية ، بعيداً عن وحي الله المقدّس .

وإذا كان قد ذهب كثير من المتكلّمين المسلمين ، وغير المسلمين ، إلى أن القرآن الكريم ، لم يعمد إلى تقديم نظريّة كونية حول خلق العالم ، بل انطوى على مجرّد المعلومات . فإن الحقيقة التي اتفقوا عليها ، واتّحدت وجهتهم فيها ، هي أن القرآن الكريم ، هو كتاب كامل ، مُعجز في مبانيه ومعانيه ، وأنّه نزل لهداية الناس كافة . وهم في هذا الإجماع ، تناسوا أنه لابدّ أن يكون الله عزّ وجلّ ، قد ضمّن كتابه الكامل هذا ، معالم نظريّة كونية حول خلق العالم ، حول الموضوع الذي شغل عقول الناس منذ فجر تاريخ وعي الإنسان . فاهتمّوا بطلبه ، وقلّبوا له وجوه الرأي ، وصرّفوا فيه أعنّة الفكر . وهو لا يزال يُشغل الأذهان في عصرنا أيضاً . مع ما آل إليه ، واتُّخذ للكشف عنه ، من علوم بلغت الذروة في دقتّها وإحكامها .

والحقيقة التي تجلّت لناظري وفكري ، هي أن القرآن الكريم قد عرض « نظرية كونية حول خلق العالم » ، علميّة شاملة ، على قدر ما تحتاج إليه البشرية من معرفة ، ومدى ما تملكه من قُدُرات .

وتجلّت عظمة هذه النظرية القرآنية الكونية ، من حيث بدت النظريات المعاصرة ، قريبةً منها جدّاً ، في أكثر عناصرها . وهي تفسّر خلق العالم وتطوّره ، بما لا يخالف العلم . وقد جاءت دليلاً ، في حدّ ذاتها ، على وجود خالق هذا الكون ، ومُبدعه ، وأنه القادر العليم ، بارىء هذا الكون ، عن إرادة وتصميم .

ولا ننس بهذه المناسبة ، أنّ من النهج القرآني ، ألاّ تتجمّع عناصر الموضوع الواحد ، في موضع بعينه ، من سورة محدّدة . فالغالب أن تتوزّع هذه العناصر ، فَيَرِدُ كلٌّ منها في سياقه ، ومن آية من الآيات . ولا تتكامل إلاّ حين يتمّ استيفاء جمعها من مواضعها ، ثم يأتي الباحثون ليتدبّروا أمرها ، ويكشفوا عن مقاصدها ، بأسلوب يُناسب الزمن الذي يعالجون فيه الموضوع . وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن ، أم على قلوبٍ أقفالها ؟** ﴾ .

وعلى من يطالع هذه النظرية القرآنية المتعلقة بخلق العالم ، والتي جمعتُ فصولها في هذا الكتاب ، ألاّ يتعجّل في إصدار حكمه بالسلب أو الايجاب ، قبل أن يسبر أغوارها ، متضرّعاً إلى الله تعالى أن يُنير بصيرته ، ويكون في عونه على تفهمّها ، والإحاطة بجوانبها . وإنّه سينشط لذلك ، ويطمئن قلبه ، فيُقبل على الموضوع ، ويتوجّه إليه بعزيمة وضِرام ، لا يدّخر جهداً في الاضطلاع بخدمة الدعوة الإسلامية وافتدائها بكل غالٍ ورخيص ونفيس ، بمنّ الله وكرمه . فهذا يقيني الثابت .

وينبغي أن يظلّ قولي عالقاً في أذهان القُرّاء الكرام ، من أن النظرية القرآنية الكونية ، لم تتجاوز في مُعطياتها ، حاجة الإنسان المعرفيّة ، وما له من قُدُرات تساعده على طريق المعرفة . وترك الله جل شأنه ما وراء ذلك للباحثين .

مع الإشارة إلى أني خصصت فصلاً من هذا الكتاب ، عرضت فيه للنظريات الكونية المختلفة ، وخاصة منها نظرية الانفجار العظيم .

★ ☆ ★

# الفصل الأوّل

# النظرية القرآنية الكونية ومنطلقاتها النّظرية

من المعلوم أن لكل نظرية علميّة ، منطلقاتها ومرتكزاتها ، وليست النظرية القرآنية الكونيـة بمنـآى عن هذا الأصـل القويم . فلها مُنطلقاتها ومُرتكزاتها ، ولهامصطلحاتها أيضـاً . فلم يهمل الله جلّ شأنه عرض هذه المنطلقات ، بل أتى على ذكرها تصريحاً وتلميحاً في كتابه العزيز . وذلك في ثنايا صيغ سور هذا الكتاب وآياته الكريمة ، وإليكم هذه المُنطلقات النظرية :

## أولاً ـ النّهج العقلاني

المـلاحظ من خلال تدبّرنا القرآن الكريم ، أن الله تعالى لم يختصّ الإنسـان بهبة جهاز العقل ، من دون سـائر مخلوقاته عبثاً ، ودون مقصدٍ محدّد . لا ، بل وهبه إيّاه ليكون العقل عوناً لصاحبه في كل خطوةٍ يخطوها في حياته .

ولفظ ( العقل ) مشتقٌ لغوياً من عَقَلَ ، أي ربط ومنع . فلا يُسمى الرجل عاقلاً إذا لم يفكّر فيما حوله من الأمور ، ولم يستخرج منها العظات ، ولم يلزم نفسه ، فيأخذها بما توصّل إليه من نتائج ومفاهيم وإدراك .

والله الخالق ، تلاحظه وقد قرّر في كتابه العزيز ، بصورةٍ جازمةٍ وصارمةٍ ، أن غضبه نازل ، مُتربصّ بكل من يُغفل إعمال عقله ، فيما يعرضُ له من الأمور — فهو تعالى قال : ﴿ **وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلاّ بإذن الله ، ويجعل الرّجس على الذين لا يعقلون** ﴾ يونس ١٠٠ — .

وقد أشار سبحانه وتعالى ، إلى أن مصائب الناس ، إنها تتأتّى في الأصل من إعراضهم عن إعمال عقولهم . فهو قال أيضاً ... ﴿ **بل إن أكثر الناس لا يعقلون** ﴾ وكأنه يشير بذلك إلى انقياد النّاس لأهوائهم ، وإذعانهم لشهواتهم ، واستجابتهم لغوايتهم ، واسترسالهم في الأخذ بالتقاليد الموروثة عن غيرِ وعيٍ منهم لِما يُقدمون عليه .

والذي نلاحظه ، هو أن الله تعالى ، عندما يوجّه أنظار عباده ليكتشفوا من خلال تفكّرهم في آيات السّماوات والأرض ، أسرار الكون ، ويستخرجوا مُخبّآته ، وينقبّوا عن غرائبه ، إنما يعمد إلى ذلك ، لتتجلّى لهم حقيقة وحود خالقهم ، وما يملكه من قُدُرات ، لا يتعاظمه معها أمر ، ولا تُعجزه غاية . وليكتشفوا ما سنّه تعالى من قوانين ، على اعتبار أنه القادر العالم المحيط بكل شيء .

نلاحظه يوجّه خطابه إلى عقلاء الناس . ذلك أن العقل هو الوسيلة الطبيعيّة ، والأداة المُعدّة لكشف جميع هذه الحقائق الكونية . وهو حين يقول في سورة البقرة : ﴿ **وإلهُكُمْ إله واحد ، لا إله إلاّهو ، الرحمن الرحيم** ﴾ ، إنما يلفت الأنظار إلى وحدانّيته ، وتوحّده في هذه الوحدانية . فهو المستحقّ للمحبّة والإجلال والتقديس والاحترام . وهو ( الرحمن ) أي المالك الواهب كل إنعام وإحسان وتفضّل . وهو ( الرحيم ) الذي يرقّ لعباده بالرحمة في كل ما وهبهم وتفضل به عليهم فيكشف عنهم الضُرّ . ولا يُعلن ذلك وحسب ، بل يخاطب عقول عباده ليقلّبوا النّظر في آياته ، ويُعملوا فيها الفكر والروّية ، ويبالغوا في التدّبر والفحص ، ويغرقوا في البحث . فإلى هذا كله جاء قوله تعالى : ﴿ **إنّ في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع النّاس ، وما أنزل من السّماء من ماءٍ ، فأحيا به**

**الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كلّ دابّة ، وتصريف الريّاحِ والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض ، لآيات لقومٍ يعقلون** ﴾ البقرة ١٦٣/١٦٤ . وهكذا يدعو القرآن عبـاد الله ، إلى أن يلاحظوا ما خلق الله من آيات وعوالم مختلفة ، وإلى إعمال العقل فيها ، ليصلوا إلى الإيمان بآله واحد ، خالق لهذا الكون كله . ويشير القرآن إلى ذلك بقوله ﴿ **لعلّكم تعقلون** ﴾ و﴿ **لعلّكم تذكرون** ﴾ و﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ و﴿ **لقوم يتفكّرون** ﴾ .

وعلى هذه الوتيرة ، من إنزال العقل منزلته الرفيعة ودوره الذي لابدّ منه لكشف خفايا وأسرار هذا الكون . فقد أتى سبحانه خمسين مرّة على إيراد لفظ العقل في كتابه العزيز ، مخاطباً من خلاله أصحاب العقول . فالعقل هو المُعتد في إقامة البرهان على كل ما يتعلّق بهذه الأمور .

وإننا إذا عُدنا إلى عصرنا هذا ، نلاحظ اتّجاه علمائه إلى تعظيم العقل ، وإنزاله المنزلة التي بّوأه إيّاها القرآن المجيد .

ذلك أن الثورات العلمية التي حدثت على صعيد علوم الفيزياء ( والكوزمولوجيا ) ــ أي علم دراسة النظام الكوني ــ وغيرها من العلوم ، خلال هذا القرن . قد أحدثت تغييراً جذرياً في نظرة الإنسـان للعقل . فعاد العقل يحتلّ مكانة أداة الوعي والفحص والاختبار ، ووسيلة السّبر والإحتساب والحكم . وخاصة على صعيد علم فيزياء الكمّ . على اعتبار أنّ العاقل ، هو الذي يمكنه المشاركة في عمليات القياس العلمية .

فبهذه الثورات العـلمية ، رجع العلماء إلى تقديس العقل ، بعدما كادت تغلب عليهم ، في القرن التاسع عشر ، العقيدة الماديّة بأقسى معانيها .

هذا ، وإنّ تبدّل الايديولوجيـة السـابقـة ، والاتجاه لتقبّـل الأيديولوجية القرآنية المختصّة بالعقل ، بات ذلك دليلاً مبشّراً بمستقبل الرجوع إلى جميع ما تضمّنه القرآن المجيد من أمور . لأن هذا التبدّل جاء يردم الهّوة العميقة التي فصلت بين علماء المادة ، وبين مدلولات هذا الكتاب العظيم .

ثم إن الله عزّ وجلّ قد لفت أنظار عباده أيضاً ، إلى حقيقةٍ لم يُحط بها أكثر عباده . وهي أن العقل يحتلّ من جسم الإنسان منزلةً أسمى أجهزته التي تساعده على الوعي والإدراك لما حوله . هذا في وقت لا يختلف فيه جهاز العقل عن بقيّة أجهزة جسم الإنسان ، من حيث احتياجه لعوامل مساعدة ، ومن حيث خضوعه لقانون الاحتياج العام .

فمن المعلوم أن العين لا تُبصر إلاّ بمساعدة الضوء . والأذن لا تسمع إلا بمساعدة الهواء . والأنف لا يشمّ من الروائح ، إلا ما يحمله منها الهواء أيضاً . وكذلك العقل ، فإنه لا يقدر أن يُصدر أحكامه السليمة اليقينيّة ، دون مساعدة عوامل خارجة عنه ، تساعده على تأدية مهمته . وقد وضّحت في كتابي ( نظرية جذور الأخلاق ) هذا الأمر بالتفصيل ، وتراني أستعرضه في هذا المقام بالإيجاز ، فأقول :

إن العقل يعمل على مستويات ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . فهو بذلك مُحتاج إلى عوامل مساعدة ثلاثة أيضاً ، وليس عاملاً واحداً كبقيّة الحواس . فهو جعله الخالق عز وجل ليعمل على مستوى الماضي ، بمعونة الآثار والمخطوطات والمُستحاثّاة . وليعمل على مستوى الحاضر بمعونة الملاحظة والتجربة والاستنتاج . وليعمل هذا العقل على مستوى المستقبل وأمور الغيب ، بأصول العلم ، إلى جانب وحي السّماء ، فيما تجاوز مجال العلوم .

وقد أسّس ربّنا عز وجلّ نظرية كتابه الكونية ، على مُنطلق ما ذكرت . فهو قدّم لأصحاب العقول المجردة نظرية كونية ، تحمل مفاتيح مغاليق السّماوات والأرض ، بأحرف عريضة ، يمكن فهمها واكتناه أسرار الكون عن طريقها ، بالطريقة العلمية المستندة إلى الملاحظة والتجربة والاستنتاج . فهذه المفاتيح تشغل من العقل منزلة العامل المساعد الذي جاء عن طريق الوحي . ودون هذه المفاتيح والمنارات ، تظلّ جميع أحكام العقلاء ضرباً من التخمين والتّنجيم .

وإنكم إذا لاحظتم أن القرآن المجيد لم يشتمل على المصطلحات العلمية . وإذا لاحظتموه لم يخض فيما يتأتى كشفه عن طريق الأبحاث والأدوات العلمية أيضاً . وإذا لاحظتموه لم يُعطنا أرقاماً مُحدّدة لأعمار الكواكب ، والسيارات ، والمجرّات ، فلم يَخُض في تفاصيل يعجز العقل المجرد عن بلوغها . فاعلموا أنّه جلّ شأنه قد ترك هذه الأمور جميعها إلى العلم ، والعلماء ، وأدوات البحث العلمية . مُكتفياً بهذه الأحرف العريضة ، والمنارات التي قدّمها هنا وهناك . لافتاً أنظارنا إلى أنه خلق كل شيء في هذا الكون ، لهدفٍ محددٍ ، لاعبث فيه . وأن جميع ما في هذا الكون ، مُسخّر لهذا اللإنسان العاقل وفائدته . وإلى هذا المفهوم ، باتت أنظار العلماء مُتّجهةً ، وتكاد تكون مُقتنعة .

وقد ركزّ القرآن المجيد على تناول مجموعتنا الشمسيّة وحدها ، من بين بقية المجموعات الشمسية ، بالملاحظة والتنبيه ، على أساسٍ من مُنطلقه النظري العقلاني . على اعتبار أنّه يخاطب العقل المجّرد ، الذي هو بمنآى عن إمكان إحاطته بما وراء هذه المجموعة الشمسية من مجموعات شمسية .

على هذه الصورة ، ومن مُنطلق هذا الفهم ، يكون ربّنا عزّ وجلّ ، قد وضع أقدامنا على أرضٍ صلبةٍ ، وأصارنا إلى يقينٍ جازمٍ لا تحوّل عنه ولا نكوص . وترك لنا أن نبني على هذه الدّعائم المحكمة ما نشاء من بحوث علميّة .

ومن واجبنا ، ألاّ يغْرب عن بالنا ، أن الله تعالى ، حين أبلغنا جميع ما ذكرناه ، باللّسان العربي المبين . قد اتّخذ من هذا اللّسان بياناً سديد المنهج ، واضح المعالم ، ماثل الأغراض ، محكم الأداء والسّبك . وقد جاء ذلك كله بأسلوب الخبير بتصريف الكلام في حقيقته ومجازه ، وعلى ما تقتضيه موضوعاته . وقد تمثلت البلاغة في كلّ فقرةٍ من فقراته ، فتبارت معانيه إلى الأفهام ، ليستعان بها على كشف أسرار الكون ومخبآته . فالبيان معجز في نظمه . وفي مضمونه من المعارف والعلوم والتشريع . فهو معجز لغوياً وعلمياً وتشريعياً .

من هنـا ندرك ، سبب اختـلاف النظرية القرآنيـة الكونيـة ، من حيث نهجهـا العقـلاني ، عن سـواها من النظريات الكونيـة حتى الآن . ذلك أن علماء الطبيعة ، ما يزالون يفتقرون ، حين يستعملون عقولهم ، إلى أن يُصْغُوا إلى الوحي السماوي ، المنير للبصـائر . ذلك لاتخاذ المسـار الصحيح على طريق كشف الأسرار الكونية . وكيف يستطيعون أن يهتدوا إلى نظريّات سليمة ، دون الاستعانة بتوجيه الوحي السّماويّ ؟ .

ومن أجل ذلك أيضاً ، تعدّدت النظريات في نشوء الكون ، وتباينت . فقد لاحظنا أن علماء القرنين الماضيين ، قد وضعوا أكثر من نظريّة كونية للعالم من حولنا . فهلاّ تساءلوا : لِمَ تعدّدت النظريات ، والكون واحد ؟ .

أقول قد بدت هذه الظاهرة ، بسبب بُعد هؤلاء العلماء الأوربيين ، بُعداً بعيداً ، عن معـالم النظرية الكونية التي جاء بها الوحي القرآني . إضـافة إلى بعدهم عن النهج العقلاني القرآني أيضـاً . فلا يستطيع العقل أن يُصدر أحكاماً جازمة ، على مستوى الغيبيّـات ، إلاّ بمسـاعدة الوحي السماوي . ذلك أن للعقل مجالاً ونطاقاً لا ينبغي أن يتجـاوزه . لذلك نلاحظـه سبحـانه وتعالى قد قال : ﴿ **ما أشهدتهم خَلْق السماوات والأرض ، ولا خَلْق أنفسهم** ﴾ الكهف /٥٢/ . يعني الله بهذه الآية « المُضلّين » الذين يخوضون في خلق الكون بلا كتابٍ منير ، كأنّهم حضروا هذا الخلق ، فتبيّنوا أسراره . فيقول ﴿ **ما أشهدتهم خَلْق السماوات والأرض** ﴾ ويردف ﴿ **ولا خَلْق أنفسهم** ﴾ أي لم أحضرهم ليشهد بعضهـم خلق بعض . فمؤدى قوله تعـالى ﴿ **أشهدتهم** ﴾ ، أنهم لو حضروا الخلق ، فشهدوا كيف تمّ ، لكان لهم أن يُحكّموا عقولهم في استنباط أسراره . ذلك أن العلم بالمحسوسات إنما يعتمد المشاهدة قبل كل شيء . فالعلم مجاله المحسوسات وليس الغيبيّات . إذ لا يكفي مجرد التأمل والتدّبر ، للتعرّف على أسرار الكون . بل لابد فيـه من الإستهداء بالغيبيـات . من ذلك نفهم سرّ قوله جلّ شـأنه في سورة البقرة : ﴿ **ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء** ﴾ /٢٥٥/ .

## ثانياً ــ وحدة الخالق ووحدة المخلوق

وأُسّست النظرية القرآنيـة الكونيـة ، على مُنطلق كون جميع أشياء هذا الكون مخلوقة ، ومخلوقة من مادة واحدة ، وأن خالقها واحد أيضاً .

وقد جمع البيان الإلهي جميع عناصر هذا المنطلق النظريّ في قوله الله عزّ وجلّ ﴿ **قل لو كان معه آلهة ، كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً . سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلوّاً كبيراً . تسبّح له السماوات السّبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شـيءٍ إلاّ يسبّح بحمـده ، ولكن لا تفقهـون تسبيحهـم ، إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ الإسـراء ٤٢/٤٣/٤٤ . فقد أفادنا جل شـأنه في هذه الآيات بعدّة أمور هي :

**الأول ــ** أن هذا الكون مخلوق ، وهو ما أفادته الآيات جملة واحدة .

**الثاني ــ** وأن خالق هذا الكون ، واحدٌ أيضاً . مبرهناً على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً** ﴾ أي لو كان هناك في الوجود ، أكثر من إله ، لسلكوا إلى مالك العرش طريقاً ليناوئوه عن هذا العرش والسلطان .

**الثـالث ــ** وتشفّ الآيات ، عن أن العالم كلّه مخلوق من مادة واحدة ، فثمّة وحدة في نسيج الموجودات . وهذه حقيقـة مطلقة ، أنه يوجد هناك خالق مدبّر ، وعقـل كُلّي ، هو الهـادي لكـل المـوجودات . وحين يقول العـلم بعض هذا ، ثم يصمت ، فلا يستوفي البحث . وهنا يأتي دور الوحي الذي يأتي بالغيب ، ليأخذ بيد العلم إلى نهايته .

**الرابع ــ** كما أشار جلّ شأنه إلى جهالة الذين ينطلقون في نظرتهم الكونية نظرة تخالف ما ذكرناه . ويتهمّهـم بجهـل الحقـائق الكونية ، وعدم إحاطتهم بها . ويخصّ بالذكر منهـم « مشـركي مكـة » خاصــة ، وذلك من خلال قوله تعـالى ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ .

**الخامس** ــ ووضح تعالى أنه يأخذ الأمور بالحلم والمغفرة ، بقوله ﴿ **إنّه كان حليماً غفوراً** ﴾ . فهو سبحانه يعامل هؤلاء بالحلم ، فيصبر على ما كان منهم ، ليعمدوا إلى إعمال عقولهم ، فيما يرونه من آيات الله تعالى ، ويُتيح لهم بذلك أن يستقيلوا عثراتهم ، ويستصفحوا عن زلاّتهم ، ليغفر لهم ، ويتجاوز عن زلاّتهم .

والنظرية القرآنية الكونية ، إذ أسّست على مُنطلق وحدة الخالق ووحدة المخلوق ، تتغاير بذلك مع مُنطلق أصحاب النظريات غير القرآنية ، من حيث أن أولئك لا ينطلقون من مُنطلقها .

فبالرغم من أن أصحاب النظريات الأخرى ، قد باتوا يدركون حقيقة وحدة المادة التي تكوّنت منها جميع أشياء هذا العالم ، والتي يمثلّها أصغر جُسيم ذرّي . فإنهم لا يزالون ينكرون كون المادة مخلوقة فلا يقرّون بذلك إقراراً جازماً .

## ثالثاً ــ خفاء ماهية المادة

وتنطلق النظرية القرآنية الكونية ، من منطلق خفاء ماهية المادة ، وأنه يستحيل على الإنسان التوّصل إلى تعرُّف ماهيتها وجوهرها . وإن موضوع خفاء ماهية المادة ، لن ينقلب يوماً إلى حقيقة علمية ثابتة . وذلك بسبب كون هذا الأمر خارجاً عن نطاق عمل الوسائل المتوفّرة لدى المخلوق .

إلى هذا الأمر بالذّات ، جاءت الإشارة في قول الله تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ، ولا خَلْق أنفسهم** ﴾ بمعنى أن العلوم الإنسانية ، إنما يكون نطاقها ، النظر والمشاهدة ، ومن ثم إعمال الفكر بالملاحظة والتجربة والاستنتاج . ذلك هو مجال العقل الإنساني .

ويضيق هذا المجال عن إدراك ماهية المادة التي يتكّون منها عالمنا ، والإحاطة بخلقها . فيأتي الوحي ، ليكمل ما عجز العقل عن بلوغه وإدراكه .

وإن الحقيقة التي لا مراء فيها ، هي أنّ جميع النظريات الكونية المادية ، كان أصحابها يدركون صحّة هذا المنطلق القرآني ، بل قاربت من التسليم به عملياً . وذلك أن علماء المادة ، يلاحظون أنهم كُلّما تمكّنوا من فتح باب ، من أبواب المعرفة ، في كنه المادة وتركيبها الذّري ، تبدّت لهم وراءه أبواب جديدة موصدة ، مُحكمة الإيصاد ، بحاجة إلى أدوات ووسائل أدقّ وأمضى . فكأنهم في دوّامة ، ذات تسارع ملحوظ ، يدورون في نطاقها .

## رابعاً ــ عدم أزلية المادة

وتنطلق النظرية الكونية القرآنية من منطلق أن المادة مخلوقة ، وليست أزلية ، أي ليست أبدية الوجود . ذلك أن لهذا الكون بداية ونهاية حتميّتين .

نبهنا إلى هذا المنطلق قول الله عز وجلّ في سورة إبراهيم ﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخّركم إلى أجل مُسمّى ، قالوا إن أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا ، تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين** ﴾ .

وقد ورد في ( محيط المحيط ) : فطر الشيء ، يفطره فطراً : شقّه . وفطر الله الخلق : خلقهم وابتدعهم . وفطر الأمر : اخترعه وابتدأه وأنشأه . وقال صاحب ( أقرب الموارد ) فطر : ابتدأ ، وفاطر أي مبتدىء . و( السّلطان ) في هذه الآية الكريمة بمعنى الحجّة على شكل معجزة . وقال ابن فارس أنّ الفاء والطاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدل على فتح شيء وإبرازه . من ذلك الفِطر من الصوم .

هذه الآية الكريمة أشارت إلى الأمور التالية :

**أولاً ــ** أن هناك إلهاً ، وأنه هو خالق المادة . وأن المادة مخلوقة ، كأداة مرحلية .

**ثانياً ــ** وأن الله تعالى ، قد ابتدأ خلق السماوات والأرض ، أي أوجدها أو ابتدأها عن طريق تكوينها وفتحها وإبرازها ﴿ **فاطر السماوات والأرض** ﴾ .

**ثالثاً ــ** وأن خلق الله تعالى هذه المادة ، كان هادفاً من ورائها ، خلق الإنسان وابتلاءه . هذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ .

**رابعاً ــ** وإن عالم المادة الذي كوّن الله تعالى منها السماوات والأرض ، إنما هو عالم مرحليّ ، سينشأ على أنقاضه عالم آخر ، يجزي الله الإنسان فيه ، فيثيبه أو يُعاقبه . هذا معنى ﴿ **ويؤخّركم إلى أجلٍ مُسمّى** ﴾ .

**خامساً ــ** وقد نبّهت الآية الكريمة ، على أن توجيه بني الإنسان نحو الغاية من خلقهم ، لا يتمّ أصلاً إلا بطريق بعث الأنبياء والمرسلين . فوراء هذه السلسلة من المبعوثين السّماويين ، يكمن كلُّ دفعٍ تقدّميّ للبشرية قاطبة .

لقد وضعت هذه الأمور التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة ، في أيدينا مُنطلق النظرية القرآني الكونية ، على أن المادة مخلوقة ، وليست أبدية ولا أزلية الوجود . بل وجودها مرحليّ مؤقت .

هذه الأفكار ، أنزلها ربّنا جلّ شأنه قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام . فلم يأخذ بها علماء النهضة الصناعية العلمية الأوربية . بسبب أنّهم نهجوا نهجاً ماديّاً ، اعتبروا الكون ، من خلاله مادّة وحسب . علماً بأن ( نيوتن ) كتب في رسالته ، والتي بعث بها إلى العالم ( ريتشارد بنتلي Richard Bentley ) ، وذلك عام ١٦٩٢ : « إن حركات الكواكب الراهنة ، لا يمكن أن تكون قد انبعثت من أيّ علّةٍ طبيعية فحسب ، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة » .

ونحمد الله تعالى ، أن جاء من علماء فيزياء القرن العشرين ، وبعد الثورات التي حدثت في شتى مجالات العلوم ، من صرّح بما يقارب جوهر النظرية القرآنية الكونية ، ومنطلقاتها النظرية .

فقد اعتبر العالمان ( جورج غاموف George Gamow ) في عام ١٩٤٨ . و( روبت ويلسون Robert Wilson ) في عام ١٩٦٥ . أقول لقد اعتبر هذان العالمان ، وقرّرا ، أن للكون بداية . وأن جميع العناصر الثقيلة للمادة ، قد تكوّنت

أصلاً من الهيدروجين . وإن الكون نفسه قد نشأ من تمدّد بدئي للمادة ، أطلقوا عليه اسم ( الانفجار العظيم ) .

إن منطلق النظرية القرآنية الكونية الذي ذكرناه ، الذي يلتقي نظرية الانفجار العظيم ، نبّه إلى مرحلة خلق المادة وابتداء الكون منها . وأن القرآن المجيد لم يهمل الكلام على ما ستؤول إليه المادة ، ويصير إليه عالم الدنيا . فقد صرّح ربّنا عز وجلّ بقوله في سورة الأنبياء /١٠٤/ : ﴿ **يوم نطوي السّماء كطيّ السّجل للكتب ، كما بدأنا أوّل خلق ، نعيده ، وعداً علينا ، إنا كُنّا فاعلين** ﴾ .

وقد ورد في معجم أقرب الموارد : طوى الصحيفة ، نقيض نشرها . أي أن معنى طي السّجل للكتب : طيّ الكاتب للكتب . فاستناداً إلى هذا المعنى ، يكون الله عز وجلّ قد أخبرنا أن قصّة هذا الكون الماديّ آتيةٌ على نهايتها لا محالة . وأنه تعالى سيُعيد هذا الكون إلى حالته الأولى التي نشأ منها . وكأنه يشير بذلك إلى نظرية ( الإنكماش العظيم ). بمعنى أن هذا الكون الذي قدّر علماء الفلك لبدء تكوّنه ونشوئه ما يراوح بين ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار سنة ، والذي قالوا ، أنه كان معبّأً في مساحة لا تزيد عن المساحة التي يشغلها بروتون واحد ، وبكثافة لا يطولها الخيال . وأنه انفجر هذا الانفجار العظيم الذي كوّن هذا الكون العظيم . والذي ما يزال يتمدد ويتّسع حتى يومنا هذا . فقد نبهنا الله جل شأنه ، في الآية المذكورة ، إلى أنه سيعيد هذا الكون إلى ما كان عليه في بداية نشوئه لقوله ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ أي نعيده إلى كيانه الأوّلي .

ألا إن هذا الإعلان الذي أعلنته هذه الآية الكريمة ، أيّدته النظرية التي أعلن عنها العالم [ نوسان الكون ] والمسماة : الإنكماش العظيم ( Oscillatiug Univrse ) . ومؤدىّ هذه النظرية أن الجاذبية التي تحتويها الأجرام ، سوف تتوقف يوماً من الآيام ، ويقف في نهاية المطاف ، نتيجة لذلك ، تمدد الكون وتناميه ، وتنقلب الآية ، وتنعكس الأمور ، فتبدأ بالضّمور والتّقلص ، وينتهي ذلك بانهيار كيان المادة بأجمعها ،

ويحدث « الإنكماش العظيم » ، وذلك في مقابلة ( الانفجار العظيم ) الذي حدث عند نشوء الكون . وهذه النظرية تؤيد قوله تعالى في سورة الأنبياء التي نقلناها ، وهو قوله تعالى ﴿ **يوم نطوي السّماء كطيّ السّجل للكتب ، كما بدأنا أوّل خلق نعيده** ﴾ ...

## المنطلق الخامس ـ الإرادة والتصميم في موضوع الخلق

إذا عرضنا أسماء الله الحسنى لاحظنا أن من أسمائه تعالى ( الخلاّق ) فالله يتصف بكونه خلاّقاً . بمعنى إنه يخلق خلقاً بعد خلق . فالله خالق وخلاّق . فالخلق معناه ابتداء الخلق أوّل مرّة . والخلاّق معناه أنّ من شأنه تعالى أن يخلق إلى آخر الدهر . ولا يكون جميع ما يخلق ، إلاّ عن إرادة وتصميم . والذي نعلمه ، هو أن عقائدنا الإيمانية تفرض علينا الإيمان بالله وملائكته . وما ملائكة الله إلا من مخلوقاته . فلابّد أن يكون جلّ شأنه قد خلقهم على شاكله ما ، ومن ماهية غير ماهيّتنا ، ويكون قد حقق خلقه عن إرادة وتصميم ، هادفاً أن يخلقهم ، على حسب قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **يفعلون ما يؤمرون** ﴾ .

وعلى المنوال نفسه ، اقتضت سنة الخلاّق ، أن يخلق الإنسان مخيّراً في أعماله ، غير مسيّر . ومُمتحناً فيها ومُبتلى . وبذلك تخلد أعمال الإنسان .

من هنا تنطلق النظرية القرآنية الكونية ، من أن الله تعالى ما خلق هذا العالم المادّي ، إلاّ عن إرادة وتصميم . ليخلق من مادته هذا الإنسان ، مُسخّراً له جميع ما على سطح الأرض ، وباطنها ، تطويراً له وتأهيلاً . هذا وقد اقتضت إرادة الله وتصميمه أن يزول هذا الكون ، بعد أن يستنفذ أغراضه ومقاصده ، ليبدأ خلقاً آخر ، وهكذا .... .

نبّهنا جلّ شأنه على هذا المنطلق ، في سورة البقرة ، عند قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه تُرجعون . وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسّواهنّ سبع**

**سماوات ، وهو بكل شيء عليم . وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ ... البقرة ( ٢٨ ـــ ٣٠ ) .

دلتنا هذه الآيات الكريمة على الأمور التالية :

١ ـــ على وجود إله ذو إرادة وتصميم ، يملك قدرة فائقة ، ولا تحدّ علمه حدود .

٢ ـــ وأن هذا الإله ، قد خلق الإنسان بإرادة وتصميم ، من مادةٍ خلقها ، مؤلفة ذراتها من قوى ووزن نوعي . فالحياة تخلّقت من المادة الموات ، نتيجة ترتيب فريد في ذراتها . إلى هذا أشار تعالى بقوله في الآية ﴿ **كنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ ، على شاكله قوله في سورة النساء ٢٧ : ﴿ **وتخرج الحيّ من الميت ، وتخرج الميّت من الحيّ** ﴾ . راجعوا لمزيد العلم مؤلفي ( نظرية جذور الأخلاق ) .

٣ ـــ وأنه تعالى ، خلق ما في الأرض جميعاً ، وعن إرادة وتصميم ، تمكيناً لهذا الإنسان من الحياة والنّمو والحسّ والحركة والتعلّم والعُرفان والحياة ببهجة واطمئنان لاستنشاق الأنفاس . هذا على أن الحياة ضدّ الموت ، وأن ﴿ **فاحياكم** ﴾ تحمل جميع هذه الدلالات .

٤ ـــ كما نبّه جل شأنه ، على أنه لم يحي الإنسان بالمقاصد التي ذكرناها وحسب . بل فتح له أبواب السّمو الروحي بلا حدود ، ليعمر الفؤاد بعرفان ربّه ، ويطمئن إليه ، وتمتلىء النفس بالرضّا والارتياح ، ويتحرّر العقل من الحيرة والاضطراب ، ويسلّم الإنسان بأن الدنيا معبرٌ مؤقّت إلى مستقرٍّ دائم . هذا ما أشار إليه تعالى بقوله ﴿ **ثم استوى إلى السّماء فسَواهُنَّ سبع سماوات** ﴾ . فالسّماء هنا بمعنى السمو العلاء . وكلمة ( سبع ) تفيد هنا الكثرة مطلقاً .

ولنلاحظ أنّ حرف ( ثم ) يفيد التّرتيب ، فكان قرينة على المعنى الذي ذهبت إليه . فهو تعالى نبهّنا من خلال حرف ( ثم ) إلى أنه ، وبعد أن انتهى من خلق الأرض

وما فيها لصالح الإنسان وترقيته ، اقتضى ذلك منه تعالى أن يستوي أيضاً إلى السّماء ، من السّمو والمراتب السامية ، أن يسّويها مراتب لا حدود لها . فلو لم يفعل ذلك لظهر عبث كل ما أبدعه وصنعه .

٥ ـــ وأفاد تعالى بقوله ﴿ **ثم يُميتكم** ﴾ إلى دورٍ يُسكن الله تعالى في هذا الإنسان أجهزة جسمه منه ، ويتركها غير فاعلة ، ليُدخله في عالمٍ ما سمّاه عالم البرزخ .

٦ ـــ كما أفاد تعالى بقوله ﴿ **ثم يُحييكم** ﴾ إشارة إلى الكيان الجديد الذي ستوهبه نفس الإنسان في يوم من الأيام ، من بعد موته ، فتعود لها حيّويتها ، وهو ما سماه عالم النشور .

٧ ـــ وأفاد تعالى بقوله ﴿ **ثم إليه تُرجعون** ﴾ إلى دور الصيرورة إلى الله بخلقٍ كاملٍ وكيان متوازن .

٨ ـــ وأضاف سبحانه وتعالى قوله ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ إشارة إلى أنه عليمٌ بحقيقة كل شيء خلقه وفعله ـــ وكأنه قال إننا فتحنا للإنسان أبواب الرقي السّماوي الروحي ، بسبب أننا سخّرنا له ما في الأرض جميعاً . فلم يقل جل شأنه وهو بكل خلق عليم ، بل قال وهو بكل شيء عليم .

٩ ـــ وهو تعالى عندما قال ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ ... نبّهنا من خلال كلمة ﴿ **ربّك** ﴾ إلى أنه تعالى لم يخلق الإنسان ويتركه سُدى ، بل شمله بربوبيّته أيضاً . فاستخلف من أفراده من يرث الأرض وينهج فيها سبل الإصلاح والرّشاد ، ويتعرف على خالقه ويتخلق بصفاته .

وهو سبحانه وتعالى ، عندما ابتدأ هذه الآيات بقوله ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ ... لم يقصد هنا الكفر بذاته عز وجل ، بل قصد الكفر بصفاته . فالكفر نوعان : إما كفر بالذات ، وإما كفرٌ بالصفات . والدليل على أن المراد هذا القسم

الثـاني من الكفر ، هو ذكر الله تعـالى هنـا ما يملكـه من صفـات ، وما يحوزه من قُدُرات .

من هذا كله ندرك أن النظرية القرآنيـة الكونيـة ، أسّست على مُنطـلقِ كون الله عز وجل إنما يخلق ما يخلق ، ويفعل ما يفعل ، عن إرادة وتصميم . وقد سبق أن ذكرت أن العالم ( نيوتن ) أدرك أن حركات الكواكب الراهنة يستحيل أن تنبعث عن علّةٍ طبيعيّة ، بل بفعل قوّة عاقلة .

كما أن عدداً من علماء القرن العشرين أمثال الفيزيائي ( إدوارد ميلن : Eduoard Milne ) والعـالم الفـيزيـائي ( ادموند ويتيكر Edmund Whittakor ) والعـالم الفيزيائي ( ستيفن هوكنغ Steven Howking ) وغيرهم من علماء الفيزياء ، راحوا يتّجهون إلى نفس المُنطلق القرآني .

## المنطلق السادس ـ الزمان والمكان

تنطلق النظية القرآنية الكونية فيما يتعلق بالزمان والمكان . من مبدأ أنّهما أمران نسبيّان ، لا يحتلاّن أي وجود مُطلق . وليس في كتاب الله تعالى آية تشير إلى خلاف ذلك .

ولا شـك أن ( نيـوتن ) كان ينظر إلى الزمان والمكـان ، على أنهمـا حقيقتـان مُطـلقتان ، لهما وجودها المستقل . لكن هيكل نظرية ( نيوتن ) هذه قد تهدّم على أيدي أينشتاين ، في نظريته التي أعلنها عام ١٩٠٥ ، فقد أثبت هذا أنه ليس للزمان والمكان ، إلاّ علاقات نسبيّة للراصد الشخصّي وظروفه المادية .

على هذه الصورة راحت النظريات غير القرآنية ، تدنو لتلاقي في منطلقاتها المنطلق القرآني .

## سابعاً ـ تجنّب البحث في الذات الإلهية

وانطلقت النظرية القرآنية الكونية من مبدأ تجنّب البحث في ماهيّة الذات الإلهية ، وتجنّب التّســاؤل عن جوهر خالق الخلق ، أو أسباب وجوده ، وما إلى ذلك من تساؤلات .

والقرآن الكريم حين تجنّب هذا المبحث ، تجنبّه لكونه مجرّد فضول ذهني بحت ، لا علاقة له بالعلم القائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج . ذلك أن الإنسان يعيش أصلاً وسط بيئة ماديّة ، يدفعه فضوله للتساؤل عن كل شيء في بيئته . وإن فضوله هذا بالذات ، قد ينـآى به عن الرّصـانة العـلمية ، ويذهب بعيداً ليتسـاءل مثـل هذه التساؤلات عن الذات الإلهية المقدّسة ، دون وعي منه إلى أنه أدخل عقله مجالاً خارجاً عن حواســه وأدوات تحصيـل علمه . فالعقول البشرية قاصرة عن إدراك كثير من حقائق المخلوقات الغيبيّة ، ولذلك نهى الرسول ﷺ عن التفكير في ذات الله تعالى لأن ذلك مما لا تستطيع أفكارهم أن تصل إليه ، وقد يؤديّ بهم إلى الزّلل . فقد ورد في الحديث ( تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا ) . وليس في هذا حَجْرٌ على الفكر أو تضييق على العقل . لكنّ فيه وقفاً للعقل عند حدّه ، وحصراً له في مجاله ونطاقه ، وإشفاقاً عليه من الاستمرار في بحثٍ ليس في مقدوره أن يدركه بحكم طبيعة خلقه ، وفي هذا عصمة له عن الضلال .

فمن المعلوم أن القوانين المادية ، لا يتحتّم مطابقتها لقوانين عالمٍ غير ماديّ بل تدل التجربة والمشاهدة على أن لكل مجال من البحث قوانينه الخاصة أيضاً فالقوانين المادية قد لا تنطبق جميعها على كل شيء مادي في هذا الكون . فما ينطبق من القوانين على الماء ، لا ينطبق بالضرورة على الحديد ، لتفاوت هذين الجسمين الماديين ، بتفاوت الصـلابة والسّيوله . وعليه فلا يحقّ للإنسـان العاقل أن يطرح تسـاؤلات عن عالم لا يتـلمسّ منـه إلاّ آثاره ، ومعـالم تجليّـاته . وهل ثمّة من يبحث في ماهيـة جاذبيـة

المغناطيس ؟ أم يكتفي بالإنكباب على دراسة ما تحدثه الجاذبية من آثار فيما حولها من الموجودات .

ويبدو جليّاً لأعيننا ، أن ظاهرة تجنّب القرآن الكريم بحث موضوع الذات الإلهية ، وعدم أخذه جميع هذه التساؤلات بعين الاعتبار ، ليدّل دلالة قاطعة على التزام كتاب الله تعالى النهج العقلاني العلمي .

فَمُحال أن يتساءل المؤمن هل وراء الخالق خالق ؟ أو يتطرّق إلى ذهنه شيء من ذلك ، بسبب النهج العلمي ، الذي ألزمه إياه كتاب الله في البحث والاستقراء . وأنّ معرفة الله تعالى ، تتأتى عن الصّلة الروحيّة بما يراه المؤمن من آيات الله المبثوثة في كل شيء ، وأعماله التي تتناول كلّ موجود . كما تتأتى عن طريق وحي الله المقدس نفسه .

وقد نبّه الله عزّوجّل المؤمنين على هذا المنطلق ، من خلال قوله تعالى في سورة الأنعام ١٠٢/١٠٣ : ﴿ **ذلكم الله ربّكُم : لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللّطيف الخبير** ﴾ .

وضحت لنا هاتان الآيتان الكريمتان الأمور التالية :

١ ــ إن الذات الإلهية ، هي أعظم من أن يحيط بها علمنا التجريبيّ ، أو خيالنا الذَهني . هذا ما عبر عنه تعالى بقوله ﴿ **ذلكم** ﴾ . فلا يجري استبدال اسم الإشارة القريب بالبعيد ، إلاّ للتفخيم والتّعظيم . لهذا قال تعالى ﴿ **ذلكم الله** ﴾ .

٢ ــ ونبّه أيضاً على إن الإنسان ، يخضع أصلاً لربوبية الله عز وجلّ . فالله هو الذي يخلقه ويرعاه ويطوّره باتّجاه الكمال . عبّر عن هذا من خلال قوله تعالى ﴿ **ربّكم** ﴾ . فالربّ في الأصل من التربية ، بمعنى إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام . وهو يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدّبر والمربّي والقيمّ والمنعم ، ولا يُطلق غير مضاف ، إلا على الله عزّ وجلّ . وبناء عليه قال تعالى ﴿ **ذلكم الله ربكّم** ﴾ .

٣ ـــ ومن خلال قوله تعالى ﴿ **لا إله إلاّ هو** ﴾ قرّب ربّنا نفسه من أذهاننا ، فأفهمنا أنه يمثل الكمال المطلق الذي تنشدُّ الافئدة والعقول لمعرفته ، على اعتبار أنه محبوبها الحقيقي . ذلك أن الإله اشتق لفظه من الوَلَه . فكل مخلوق ، والهٌ نحو الإله . أي يفزع إليه . فالله محبوب كلّ الأشياء .

٤ ـــ ونبّهنا من خلال قوله تعالى ﴿ **فاعبدوه** ﴾ إلى أن كل شيء في هذا الكون مخلوقٌ ، فلا يستحق العبادة سوى خالق هذا الكون . تقول : أَلِهَ يأله ، وتأله بمعنى عبد وتعبّد . فالإله هو المعبود . ومعنى ﴿ **فاعبدوه** ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوه . وذلك بأن تتصّفوا بما يصّح أن تتصّفوا به من صفاته عز وجلّ . لتحقّقوا بذلك صفات الرجل الكامل ، فيتحقّق لكم التقرّب منه عز وجل . وقد سما القرآن المجيد بالنفس الإنسانية فأوصى بالبّر والرحمة والاخاء والمودّة ، والتعاون والوفاق ، والصداقة والإحسان ، والوفاء وأداء الأمانة وسلامة القلب وصدق الطّوية . كما أوصى بالعدل والمغفرة والصبر والثبات ، وبالتّواضع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكل هذا ليأخذ بيد الإنسان ليتصّف بصفات الله معبوده ومحبوبه الحقيقي .

٥ ـــ ونبّهنا تعالى من خلال قوله ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾ ضرورة أنّ كل شيء في هذا العالم فمحتاجٌ إليه تعالى ، خاضع لقانون الإحتياج العام المسنون من قبله عز وجل . علماً بأن في ضرورة وجود الوكيل ، دلالة على عجز الموكّل .

٦ ـــ ونبهنا تعالى بقوله ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ أن حاسّتي العقل والبصر ، يستحيل عليهما إدراك الذات الإلهية ، والإحاطة بها علماً . هذا من باب معنى : بَصُرَ بِهِ : علم به ورآه .

٧ ـــ ونبهنا تعالى بقوله ﴿ **وهو يدرك الأبصار** ﴾ إلى أنه جل شأنه محيط بحواس الأبصار والعقول . وهو بالغُها وواصل إليها . هذا من باب معنى : أدرك الشيء : بلغه وأدركه ووصل إليه .

٨ ــ وأخبرنا جلّ شأنه بقوله ﴿ **وهو اللطيف الخبير** ﴾ أنه عليم بكل شيء ، على لطافة ذاته . وهو اللّطيف أي المحسن إلى عباده في خفاءٍ وسرٍّ من حيث لا يعلمون ، ولا يحتسبون .

هذه هي المنطلقات النظرية ، التي انطلقت منها النظرية القرآنية الكونية . وهي منطلقات طالما أخذ علماء الغرب ، يتبنوّنها في السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، عن علمٍ ودراية كما أشرت إلى ذلك حتى الآن .

فإن تساءلنا عن سبب مراوحةِ الغرب ما بين الإيمان والإلحاد . فجوابنا ، أنّ مردّ ذلك ، إلى بُعد هؤلاء حتى الآن ، عن جميع هذه المنطلقات النظرية جملة واحدة ، وهي المنطلقات التي دلنّا عليها كتاب الله القرآن الكريم .

★ ☆ ★

# الفصل الثاني

# عرض النظريات الكونية المُعلنة ،
# وخاصة منها
# نظرية الانفجار العظيم

لابدّ ، قبل الدخول في عرض عناصر النظرية القرآنية الكونية ، أن نعمد إلى إجمال النظريات الكونية المُعلنة ، وخاصة منها ، نظرية الانفجار العظيم . ولو أوجزنا ذلك ، كي تتكوّن لدى قارئنا العزيز فكرة عامة ، يستطيع المقارنة من خلالها ، بين هذه النظريات ، والنظرية القرآنية ، وما تنطوي عليه من مزايا وخصائص .

وحينما نقول « النظريات الكونية » ، قد يذهب الفكر إلى التساؤل : ما معنى تعدد النظريات في موضوع نشوء الكون الواحد ؟ فهل ثمة عدّة أكوان ؟ .

والجواب بالبديهة : الكون واحد ، لكن اختلاف العلماء في الحكم على حقيقة نشوئه ، جرّ إلى تعدد النظريات في هذا المضمار .

ولكن لِمَ وقع كلّ هذا الاختلاف ؟ الجواب في نظري ، أنّ مردّ ذلك إلى بُعد علماء أوروبة عن النهج العقلاني الذي نبّهنا عليه القرآن المجيد .

ذلك أنه ليس بمقدور عقل الإنسان ، أن يصدر أحكاماً مطلقة صحيحة وسليمة ، على صعيد الأمور الغيبيّة ، إلاّ بمساعدة هداية وحي السّماء .

فلقد هجر علماء أوروبة كتابهم المقدس ، الذي اشتمل على التوراة والإنجيل ، لتنكّر الكنيسة الكاثوليكية لهؤلاء العلماء ، والثورة عليهم ، وتسفيه آرائهم ، بحجّة مخالفة ما أتوا به من نظريات علمية ، لنصوص الكتاب المقدّس . أضف إلى ذلك أن حقيقة التعاليم الإسلامية في أوروبة ، كانت زمن ظهور هذه النظريات الكونية ، محرّفةً مشوهةً في أعينهم ، عن قصد من رجال الكنيسة ، الذين عمدوا إلى ذلك إبقاءً على مكانتهم في عيون الناس ، وهيمنتهم على شعوبهم ، وحرفاً لهؤلاء عن اعتناق الإسلام ديناً . فجميع هذه العوامل ، أبعدت علماء القرون ما قبل العشرين عن جادة النهج العقلاني السّليم .

وإضافة إلى هذا وذاك من العوامل ، فإن عصر النهضة الصناعية ، وما أسفر عنه من إنجازات علمية ، قد هيمن على علماء أوروبة ، وبهر ألبابهم . فدفعهم ذلك نحو الإلحاد ، والإيمان بأزليّة المادة وأبديّتها . بل رفض كل ما هو غيبيّ .

فلما أقدم بعضهم على وضع نظريات عن نشوء الكون وتطوّره ، تعددّت نظرياتهم . خصوصاً وأن العلم لم يكن قد بلغ درجةً كافيةً من التقدّم . إذ لم يكن قد بدأ العصر النوويّ ، فاقتصرت نظرة أولئك العلماء على المادة ، وأن ذرة كل عنصر هي أصغر جسيمٍ يتّصوره الإنسان . على حين أثبت علماء القرن العشرين ، خَطَلَ رأي من سبقهم من العلماء ، وأثبتوا أن الذرة نفسها ، مكوّنة من نواةٍ ، يحيط بها عدد من الكهارب والنترونات . وما زالوا يضيفون ، على مرّ السنين ، معارف جديدة ، في تكوين الذرة المادية .

لا ريب أن الاكتشافات العلمية الحديثة ، فعلت فعلها ، في تطوّر النظريات الكونية ، التي وضعها علماء القرن التاسع عشر . لهذا أرى أنّ من واجبي إعطاء

القارىء فكرة ولو موجزة ، عن آخر نظريّة كونيّةٍ برزت في البحث العلمي ، وكادت تتقبلّها الأفكار ، وهي ما يسمّونه بنظرية الإنفجار العظيم .

فقد كان العلم قد تطوّر ، في القرن العشرين . وظهرت علوم منها ما أسموه علم فيزياء الكمّ ، أو الكميّات . وذلك على أيدي علماء مشاهير أمثال ( نيلز بور Niels Bohr ) و( فيرنر هايزنبيرغ : Wermer Heisenbrg ) . فكانت مهمة علم فيزياء الكمّ ، إفادته في عمليات القياس العلمية . وقد استطاعوا ، عن طريق هذا العلم ، تقدير عمر الكون بما يراوح بين ( ١٢ ـــ ٢٠ ) مليار عام . وهذا الأمر الذي توصلوا إليه يعني بألفاظ أخرى ، أن الكون الحالي ، لم يكن له وجود قبل ذلك التاريخ السحيق من القدم . فلم يبق على العلماء ، إلا أن يبحثوا في المادة التي نشأ منها هذا الكون .

وارتفعت في وجه هذه النظرية ، أي نظرية الانفجار العظيم ، ردود بعض العلماء ، وقد انطوت على بعض الأفكار ، لكنّها لم يُكتب لها الصّمود أمام ما يكاد يشكّل إجماعاً عاماً ، على صحة نظرية الانفجار العظيم .

## فما هي نظرية الإنفجار العظيم ؟

إن نظرية النسبيّة التي أعلنها ( أينشتاين ) عام ١٩٠٥ ، فيما تعلّق بالزمان والمكان . قد وضعت حدّ الفأس على جذع نظريات القرن التاسع عشر . فقد استرعت تلك النظرية اهتمام العالم الفلكي ( وليم دي ستير Willem De Sitter ) . والعالم الرياضي ( الكسندر فريدمان Alexander Friedman ) ، وتوّصلا إلى استنتاجات أنّ الكون آخذ في التمدّد . فلم تمض على إعلانهما هذا الرأي ، حتى ثبت بالمشاهدة التلسّكوبيّة خلال العشرينيات من هذا القرن ، صحّة ما ذهبا إليه .

إذ حدث أن كان العالم الفلكي ( إدوين هبل Eduwin Hubble ) يحلّل الضوء المُنبعث من المجرّات البعيدة . فلاحظ خلال ذلك أن المجرّات ، التي أمكن رصدها ، يتباعد بعضها عن بعضها الآخر وجلس يناقش هذه الظاهرة ، وعكسها ، أي تصوّر

حركةً للمجرَّات يتم بها تقارب بعضها من بعض . وانتهى إلى الرأي بأن حركة التبّاعد هذه ، تعني أنّ المجرّات كانت متحدّة في الماضي السّحيق . ثم بدأت تتباعد ، وما زالت تتباعد حتى يومنا هذا .

وقد ظنّ هذا العالم أنه استطاع أن يمسك بأسرار بدء تخلّق هذا الكون . وواقع الأمر ، أنه ظهرت بظهور هذا المذهب البوادر الأولى لمعالم نظرية الانفجار العظيم .

حدث هذا في حَقلْي علمي الفلك والرياضيات . على حين رافق ذلك ظهور علم ما أسموه الفيزياء النووية . وذلك بعد أن اكتُشفت في السنوات الأولى من القرن العشرين ، الطاقة النووية . وخلال تلك السّنوات ، كان علماء الفيزياء ، يحاولون كشف سرّ دوام الطاقة الشمسيّة ، واستمرارها ، وعدم نفادِها ، فكانوا يتساءلون عن سّر انتاج الشمس لطاقتها التي لا يُرى لها نفاذ .

وفي عام ١٩٣٨ ، قدّم العالمان الفيزئيان ( هانز بيته : Hans Bethe ) و( كارل فون فايتزساكر : Carl Von Weizscker ) تفسيرهما لكيفيّة إنتاج الشمس لطاقتها . فقد وضّحوا أن ذلك إنما يتمّ عن طريق تحوّل الهيدروجين إلى هليوم . هذا التحول الذي ينتج عنه الضوء والطّاقة . كما وضّحا أن بقية النجوم ، لا يتحول الهيدروجين فيها إلى هليوم وحسب ، بل تتكّون فيها أيضاً جميع العناصر الأثقل ، كالكربون والأوكسجين والسليكون والحديد وغيره .

أدت هذه المعلومات أخيراً إلى القول بأن الكون ، كان مركبّاً أصلاً من الهيدروجين . فذهبوا إلى أنّه إذا صحّ هذا الرأي ، فقد يترتبّ عليه اعتقاد أن للكون بداية . وعليه يبطل الزعم القائل أن الكون أزلي الوجود . وهو الرأي الذي ساد لدى علماء القرن التاسع عشر في أوروبا .

ولم يمض على هذا الحدث عشرة أعوام ، حتى أعلن العالم الفيزيائي ( جورج غاموف George Gomow ) رأيه الذي كان حجر الأساس في نظرية الانفجار العظيم . وقد جاء ( غاموف ) برأيه هذا ، مما جمعه من أدلّة ، تثبت تباعد المجرّات

المستمّر ، ودورة حياة النّجوم . فقد انطوى رأي ( غاموف ) ، على أن الكون جميعه قد نشأ عن تمدد مادة أوّلية ، حدث لها ما سماه بالانفجار العظيم . وقد وضّح لنا ، عن طريق الفيزياء النوّوية ، أنّ الجسيمات دون الذّرية ، أنتجت في مراحلها الأولى ، وبتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاّحقة ، ذرات الكون الحديث النشأة . كما أضاف رأياً آخر يتخلّص بأنه لابد أن يكون قد نجم عن هذا الانفجار العظيم ، وهجٌ خافت من الإشعاع الأساسي ، نشأ بشكل مُنتظم ، وانتشر في جميع أرجاء الكون .

ظلّ الرأي الذي أعلنه غاموف ، الشغل الشاغل لأذهان مختلف العلماء . فلم يمض عَقْدان من الزمن ، حتى اكتشف العالمان ( أرنو بزياس Arno Penzias ) و ( روبرت ويلسون Robert Wilson ) ، وذلك عام ١٩٦٥ ، وبمحض المصادفة أيضاً ، وقد كانا يحاولان ، عن طريق استخدام جهاز ضخم ، التقاط الموجات الصغرى . أقول اكتشف هذان العالمان ، إشعاعاً ضعيفاً مُنبعثاً من الفضاء . فقاساه بمقاييس في منتهى الدّقة ، فتبيّن لهما أن الاشعاع المذكور يقرُبُ من ( ٣,٥ ) درجة فوق الصفر المُطلق .

هناك جلسا يفكران عن المصدر الحقيقي لهذا الإشعاع ، أهو مُنبعث حقّاً عن الشمس ، أو عن مجرّده درب التبّانة . فعمدا إلى إمعان النظر في الأمر ، والتدقيق في الملاحظة . فتبيّن لهما أن هذا الإشعاع لو كان مصدره الشمس لاشتدت كثافته باتّجاهها . أو كان مصدره مجرّة درب التبّانة لاشتدت كثافته باتجاهها . وهكذا انتهيا من ذلك كله إلى أن أعلنا ، أن هذا الإشعاع ، إنما هو بقيّةٌ للإشعاع الأصلي الناجّم عن الانفجار العظيم . هذا الانفجار الذي قال به ( غاموف ) . على هذه الصورة ، تأكدّت في أذهان العلماء ، نظرية الانفجار العظيم . الذي قدّروا زمن حدوثه قبل ما بين اثني عشر ، وعشرين ملياراً من الأعوام .

وذهب العلماء أيضاً إلى تقدير أن المادة الموجودة في الكون ، كانت تشغل مساحة أصغر بكثير من الحيّز الذي يشغله بروتون واحد أي أن أصل هذا الكون لم

يكن يعـادل شيئـاً مذكوراً ، بمعنى أنّ المكـان معدوم في هذا المجال أو يكـاد يكون معدوماً .

وقد قامت في وجه نظرية الانفجار العظيم ، نظريتان بديلتان للعالمين ( الفريد هويل Sir Feed Hoyle ) و( نوســان إلكون ) سمّيت نظريتهما بنظرية الانكماش العظيم Oscillating Vniveroe ) . وقد تصّوروا أنّه سيحدث ، بعد أن تأخذ الجاذبية المادية أبعادها ، أن تعود فتقلّص وتنحسر ، ويحدث من جراء ذلك الانكماش العظيم ، وتعود المادة إلى سابق وضعها الذي انبعث منه .

ولقد حاول هذان العـالمـان ، أن يثبتـا من خلال هذه النظرية امكـانيـة تكرّر الانفجــارات الكونيـة في المستقبـل ، ويثبت من تكرارها صحّـة مبدأ أزليـة المـادة وأبديّتها .

وقـد علّق مؤلف كتـــاب ( الدقـائق الثـــلاث الأولى ) ( The First Three Minutes ) وهو العالم ( ستيفن فاينبيرغ ) على نظرية الانكماش العظيم ، وجاء بما ينقضها . معتمداً في نقضه على القانون الثاني للديناميكا الحرارية ، المتعلقة بالخواص الجوهرية للمادة ، ممّا لا حاجة بنا هنا إلى بسط القول فيه .

وظهر العـالم الفـيزيائي ( سدني بلودمان Sidney Bludmon ) فقرر ما يلي : « إن عالمنا لا يمكنه أن يرتدّ في المستقبل . والأكوان المغلقة المنسوبة إلى ( فريدمان ) ، كانت تسـمّى فيما مضى الأكوان المتذبذبة . ونحن ندرك الآن أن أي كون مُغـلق ، لا يمكن أن يمرّ إلا بدورة واحدة من دورات التمدّد والانكمـاش . بسبب ضخـامة الأنتروبيـا المتولّدة في كوننـا ، الذي هو أبعد ما يكون عن التّوسَـان . وسواء أكان الكون مُغلقاً ، أم مفتوحاً ، مرتدّاً أم متمدّداً على وتيرة واحدة ، فإنّ التحوّلات غير العكوسة في أطوار الكون ، تدلّ على أن للكون بداية ووسطاً ونهاية محدّدة » .

وأعقبه ( جون ويلَر ) ، فأعلن أن عملية الانكماش العظيم إذا حدثت ، فستُنهي هذا الكون إلى الأبد .

وعلى منواله ، راح عالم الفيزياء الفلكية ( جوزيف سلك : Jorebh Silke ) يعلن قوله « إن بداية الزمن أمرٌ لا مناص منه » .

كما خلص العالم الفلكي ( روبرت جاسترو Robert Jostror ) إلى القول : « إن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان ، بدأت فجأة وبعنف ، في لحظة محدّدة من الزمن ، وفي ومضة ضوء وطاقة » .

فهذه فكرة موجزة عن التطورات العلمية التي انتهت إلى ظهور نظرّية الانفجار العظيم ، التي تملكت عقول علماء أوروبة ، في النصف الثاني من هذا القرن العشرين .

والمهم من استعراضنا لهذه النظريات الكونية ، المساعدة في تكوين فكرة موجزة عن تأثيراتها في الفكر الأوربي . ففي القرن ما قبل العشرين ، أدّت هذه النظريات الكونية إلى إنكار وجود الله عزّ وجلّ . بمعنى أنها ألقت بالأوربيين في أحضان الإلحاد بالله . بينما جاءت النظريات الكونية المعاصرة ، تقنعهم بخطل آراء ومعتقدات أسلافهم ، وتبعدهم عن الإلحاد ، ولو خطوات قليلة حتى الآن . وذلك بعد أن تبيّن لهم أن لهذا الكون المادي بداية ترجع إلى ما بين ( ١٢ — ٢٠ ) مليار عام .

وتأتي التساؤلات هذه السنوات : هل كانت المادة المضغوطة قبل أن تنفجر هذا الانفجار العظيم ، موجودة حقّاً ، وعلى هذه الحالة ؟ فإن كانت كذلك ، فمن أوجدها ، وكيف تطوّرت على شكل تبدو منه أنها هادفة ؟ إذ لا يُعقل أن يتخلّق شيء من لا شيء . فلابد أن يكون هناك إله وراء هذا الكون ، ويمثل العقل المطلق ، وأنه هو الذي أبدع المادة على ما رأيناه وطورها إلى ما نعرفه ونعلمه .

وجاء أصحاب هذه التساؤلات ، يقدمون دليلاً على صحة تساؤلاتهم . مؤداه أن العقل يسبق وجود الشيء . فلا بدّ أن تكون المادة مخلوقة ، وقد خلقها عقل مطلق أزلي الوجود . وهو ما نستعمل له اسم ( الله ) عز وجلّ .

هذه فكرة موجزة جدّاً عن نظرية الانفجار العظيم التي بات يقول بها في السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، معظم العلماء الأوروبيين من المختصيّن بعلم الكونيات والفلك والفيزياء وغيرها من العلوم .

وباستطاعتنا أن نستنبط هنا ، من جميع ما ذكرناه وعرضناه ، الأُطُر النظرية للنظريات الكونية الأوروبية . وذلك بطريق الاستقصاء والاستنتاج ، وهو أسلوب علمي كما هو متعارف عليه :

**أولاً ــ** نستنتج إن علماء القرن التاسع عشر لم ينطلقوا ، في حقيقة الأمر ، من أيّ مُنطلق نظري ، سوى منطلق المادة وما إليها . والسبب في ذلك هو الصراع الذي قام بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية ، كما لاحظنا من قبل . هذا الصراع الذي انتهى بهؤلاء إلى الإلحاد .

فلما كان قد اكتشف هؤلاء الآلة البخارية ، ودخلوا عصر النهضة الصناعية ، أخذت منهم أبحاثهم المادية كل توجهاتهم ، فتجرّدوا عن أي منطلق نظري . إذ بهرهم التطور العلمي الذي بدؤوه . فرسخ بذلك الإلحاد في نفوسهم ، وترك آثاره الوبيلة في عقائد شعوبهم .

بل ذهب بعضهم إلى إنكار وجود العقل أيضاً . إلاّ أن يكون ثمرة تفاعلات كيمياوية فيزيائية . وبعبارة مختصرة ، نقول إنّ علماء القرن التاسع عشر ، قد خلت أبحاثهم من أيّ نهج عقلاني . فلم ينطلقوا من وجود خالق للكون ، ولا انطلقوا من كون المادة مخلوقة . بل على العكس من ذلك كله ، مضوا ينظرون إلى المادة على أنّها أزلية أبدية الوجود ، ولا شيء غير المادة . بل كان رأيهم فيما يتعلّق بالزمان والمكان خاطئاً أيضاً ، وذلك لاتبّاعهم رأي ( نيوتن ) ونظرياته دون بحث أو تمحيص .

**ثانياً ــ** أما علماء أوروبة في بداية القرن العشرين . هؤلاء الذين أسّسوا علومهم على علوم من سبقهم من علماء القرن التاسع عشر ، فلم يكُن حالهم أفضل ممّن تقدّموهم من العلماء . لو لا أن ظهرت النظرية في النسبيّة التي أعلنها أينشتاين .

ولو لا حدوث ثورات علمية في مختلف الحقول العلمية . فقد أدت هذه التطورات إلى زلزلة ما ورثوه من نظرات كونية . ويكاد الباحث يلاحظ أنهم يتّجهون في سنوات ما بعد النصف الأول من القرن العشرين ، للأخذ بالمنطلقات النظرية الكونية التي سبق أن جاء بها القرآن المجيد .

ويعدّ هذا التحوّل الذي بدا على علماء أوروبة الحاليّين ، دليلاً قاطعاً على صحّة النهج العقلاني القرآني ، القاضي بأنه لا يسعُ العقل وحده ، أن ينتهي إلى يقين جازم ، في موضـــوع الأمور الغيبيّـــة ، دون معونةٍ من وحي السّمـاء ، وإن لم يقولوا هذا صراحة .

نحن إذن تجاه صورتين تلوحان في الأفق أمام أعيننا . الصورة الأولى ، هي صورة علماء أوروبة المهتزّة غير المتوازنة . والصورة الثانية هي الصورة التي تتجلّى من خلالها معطيات التعاليم الإسلامية المتزّنة ، المؤيدة بكلام الله المقدّس .

فـلنتقـدّم إذن ، خطوة أخرى ، إلى الأمام ، لنشـرح عنـاصر النظرية القرآنيـة الكونية ، في موازنةٍ وفحصٍ واحتساب .

★ ☆ ★

# الفصل الثالث

# النظريات القرآنية الكونية وعناصرها

كنت ذكرت عند الكلام على أهمّية هذا الموضوع ، « أن القرآن الكريم قد عرض نظرية كونية » حول خلق العالم ، علميةً شاملة . وقد انطوت من المعارف ، على قدر ما تحتاج إليه البشرية ، وقدر ما تملكه ، في الوعي من قدرات » . وأنّ هذه النظرية جاءت موزّعة على مختلف السّور القرآنية ، تدعيماً لتسلسل السّور الموضوعي .

وهكذا جاءت التعاليم الإسلامية ، تلتزم جانب العلم والواقع . ولا تشرد مع الخيال . لذلك ستلاحظون أن النظرية القرآنية قد عُرِضَتْ خُلْواً من الأرقام التي لا تتأتى إلا عن طريق أدوات لا تُحصى . كما خلت من المصطلحات المحدودة بأزمنة معيّنة ، ومن تفصيلات لا تعني الرجل العادي . وبالرغم من ذلك كله ، انطوت هذه التّعاليم على نظريّة علميةٍ شاملة .

وقد راعى سبحانه وتعالى ، في هذه النظرية الكونية التي ضمّنها كتابه العزيز ، أهم ما يخطر ببال الإنسان العاقل من تساؤلات . وأجاب عن ذلك ، بأسلوبٍ رائع مُقنع ناصع البيان ، بليغ الإيجاز . فلم يذهب في بيانه جل شأنه ، إلى أبعد من الأسئلة المُفترض طرحها من قبل جميع الناس في مختلف العصور . وإنّي اختصر للقارىء هذه الأسئلة على النحو التالي :

١ ــ عالمنا هذا ، هل هو ماديّ وحسب ، أم يضمّ إلى المادة عُنصراً روحيّاً ؟ .

٢ ــ ومادة هذا العالم ، أزليةٌ هي أم مخلوقة ؟ .

٣ ــ وإذا صّح أن هذه المادة مخلوقة ، فمن هو خالقها ؟ .

٤ ــ وإذا صّح أن لابد من خالق ، أو لم يكن خلقه عن إرادة وغاية وتصميم ؟ .

٥ ــ أوَ جاء خلق الخالق للكون دفعة واحدة ، أم خلقه وأسنده إلى قانون النشوء والإرتقاء ؟ .

٦ ــ ما مصير هذا العالم ، الفناء ، أم الخلود ، ومتى يفنى ؟ .

٧ ــ ما مآل الحياة : أتزول بزوال المادة ، أم تخلد بعدها ؟ .

٨ ــ كيف كان بدء الخلق بالإجمال ؟ .

٩ ــ ما الأدوار التي مرّ بها خلق العالم ؟ .

١٠ ــ هل اختُصّت الأرض بظهور الحياة من دون الكواكب ، ولماذا ؟ .

١١ ــ ما الأدوار الجيؤلوجية التي مرّت بها الأرض في تطوّرها ؟ .

١٢ ــ كيف بدأت نشأة الإنسان على الأرض ؟ .

١٣ ــ هل كان وراء خلق الله للإنسان غاية يُراد بُلوغها ؟ .

١٤ ــ ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟ .

١٥ ــ ما مصير الإنسان على سطح هذا الكوكب ؟ .

هذه الأسئلة الخمسة عشر هامة جدّاً ، ويمكن أن تخطُر ببال الإنسان العاقل المفكّر . وقد جعلت منها مدخلاً لتوضيح عناصر النظرية القرآنية الكونية . وجعلت هذه العناصر تدور في فلك هذه التّساؤلات . لذلك ستلاحظون أني سأجيب عن كل

سؤال ، من هذه الأسئلة بالتوّالي ، إشباعاً لفضول الإنسان المفكّر ، وانتهاءً بإبراز عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وذلك من خلال أجوبتنا التي سيكون فيها القول الفصل إزاء كل سؤال .

## ١ ـ عالمنا هل هو مادّي وحسب ، أم يضمّ إلى المادة عنصراً روحياً ؟

الملاحظ أن جميع مُعطيات الحفائر الأثرية ، من لُقى وغيرها ، تشير إلى أن الناس اعتقدوا في مختلف الأدوار والعصور ، بوجود الروح والمادة .

لكن عصر النهضة الصناعية في أوروبة ، في القرنين السابقين ، زعزع هذه العقيدة من أساسها . إذ بات معظم العلماء والمفكرين عندهم يُنكرون وجود الروح ، ويقولون إن العالم مادّة وحسب . بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فصّوروا العقل ، على أنه حصيلة تفاعلات فيزيائية وكيميائية . وكان من أبرز هؤلاء العالم النفساني سيغمون فرويد هذا العالم الذي افترض أن لا وجود إلاّ للمادة ، معتبراً هذا الأمر نهجاً علمياً وحيداً في دراسة النفس البشرية . وأن غريزة الجنس ، هي القوّة الوحيدة الدافعة للإنسان . وأنها المؤدية بالإنسان إلى الصّراع . وأنّ إحباط غريزة الجنس والمُتعة يدفع بالإنسان إلى البحث عن بدائل .

وخلف من بعد هؤلاء خلْفٌ عاد يتّجه علماؤه للقول بوجود عنصر روحيّ إلى جانب المادة . وذلك في النصف الثاني من القرن العشرين . فأخذوا يعطون العقل أهميته ، ويربطونه بالعقل المطلق ومالوا إلى اعطاء الإنسان إنسانيّته . فظهر من بينهم علماء نفس سفّهوا آراء ( سيغموند فرويد ) واعتبروها قديمة وبالية . أعرب عن هذا الرأي منهم ( اوبنهايمر Oppenheimer ) فقال :

« إن أسوأ ما يمكن تصوّره من حالات سوء الفهم ، هو أن يتأثر علم النفس تأثّراً يجعله يصوغ نفسه على غرار فيزياء لم يعد لها الآن وجود ـ يقصد فيزياء نيوتن ـ

فيزياءً عفّى عليها الزمن . وأعتقدُ أن هناك إجماعاً في الرأي ، على أن هذا هو الطريق الذي قادتنا إليه السّلوكية الوصفيّة المنطقيّة ـــ ويقصد بها منهج فرويد نفسه » .

كما انطلق العلماء الأوروبيون الجدد إلى أن الإنسان ما دام يملك حرّية الاختيار ، فلا داعي يدعونا لقصر سلوكه الإنساني على آليات غريزية ، أدنى من مستوى البشر . بل يجب أن نعتبر الدوافع الواعية للإنسان المُعافى ، هي الأسباب الحقيقية لتصرّفاته .

وهكذا تولدت نظرة جديدة ، برز من أعلامهـا عالم النفس ( فكتور فرانكل Victor Frankl ) الذي قال : « لن نستطيع فعلاً أن نغيث الإنسان في ورطته ، إذا كُنّا نصرّ على أنّ تصورنا للإنسان ينبغي أن يُصاغ على نمط ( نموذج الآلة ) أو على ( نموذج الجرْذ ) . » .

بل وظهر عالم نفسي آخر هو ( فرانك سفرين Frank T.Sevrin ) قال : « إنّ أي علم يتصوّر نفسه متحرّراً من القيم ، هو علم بالٍ وقديم » . على هذه الصورة اتجهت النظرة الحديثة للإقرار بوجود سُلعٍ ماديّة ، وسُلَعٍ روحية أيضاً .

إن عصر الذرة ، الذي اكتُشف فيــه تركيب الذرة ، وضّـح بما لا يدع مجالاً للشكّ أن الذرة المادية نفسها لها كيانان أيضاً . يتمثل كيانها المادي في وزنها النوعي الذي تمثّـله نواة الذّرة وبروتوناتها وكهـاربها الدائرة حول نواتها . ويتمثـل كيـانها الروّحي في قواها الستّ التي تؤلّف أساس تفاعلاتها وتحوّلاتها .

وممّا لا ريب فيـه أن الإنســـان يدرك بفكره المجرد ، وتجربتـه العادية أنه يملك كيانين ، لا كياناً واحداً . فكيانه الأول هو جسده . وكيانه الثاني هو قواه الباطنة وفكره . فهو يلاحظ أنه إن أمكن لأيّ امرىءٍ تقييد جسده . بل قطع بعض أعضائه ، فليس بمقدوره نفسه أن يقسر نفسه ، على أن يعتقد أمراً لم يقتنع به . كما لا يستطيع قسر نفسه أن يكون جباناً ، أو بخيلاً ، دون أن يكون هو كذلك .

فالمرء يلاحظ ، على مدى سنيّ حياته ، أن كيانه الباطن ، بما في ذلك فكره ، هو المهيمن دوماً على كيـان جسـده . فالنّفس أمّارة ، والجسد تابع مُنقاد . فهو طوع أمرها ، ودرج يديها .

فإن نحن تدبرنا كتاب الله القرآن المجيد ، كأفراد مسلمين من عامة الناس . مَرَرْنا بآيات قرآنية كثيرة العدد ، تدلنا على وجود النفس البشرية . فإذا قرأ مسلم عادي قوله تعالى ﴿ **إن النفس لأمّارة بالسّوء ، إلاّ من رحم ربّك** ﴾ ، ذهب إلى الاعتقاد بوجود النفس دون عَناء . ولم يذهب ذهننا إلى جسد الإنسان المادي .

أمّا إذا تدبّر هذه الآية مسلم مثقف مفكّر ، يملك ملكة تحليل علمي . خلص إلى نفس النتيجة التي حصل عليها المسلم العادي فيذهب إلى الاعتقاد بوجود نفس وراء هذا الجسد المادي ، وأن كلاهما مستقلّ عن الآخر . ويبقى الفرق واضحاً على كل حال ، بين العامّي والمثقّف ، في مدى الفكر وبُعد غوره . إذ يبادر المثقّف للتساؤل عن العلاقة التي تربط النفس بالجسد . والتساؤل عن القوانين الناظمة لهذه الرابطة ، بل يتساءل عن التعاليم الناظمة لصلاح الجسد وصلاح النفس أيضاً . بل يعمد إلى مراجعة المعاجم باحثاً عن معاني ألفاظ الآية الكريمة ، مقلّباً الفكر في تسلسل الآيات الموضوعي . فهذه كلّها أبحاث لا تخطر للرّجل العادي .

والمؤمن إذا تنازعته الشكوك ، وساقه إليها أدعياء العلم ، خاصة . نراه لا يعود عن اعتقاده بوجود الروّح فوراً . ذلك أنّ كتاب الله قد رسّخ في فؤاد هذا المؤمن حقيقة وجود الروّح . لذلك نلاحظه لا يستعجل الحكُم في الأمر ، بل يتابع البحث في مختلف العلوم جادّاً ، بشيء من الحذر ، إلى أن يمسك بخيوط ما يؤكّد له صحّة ما لقّنه إياه آي الذكر الحكيم .

وسيتراءى له أن للذرة المادية كيانين أيضاً ، وليس كياناً واحداً . فللذّرة كيان جسمي ، وهو ما أطلق عليه علماء الذرة « الوزن النوعي » . وهو كيان مؤلف من

نواة وبروتونات وكهارب تدور حول النواة أما كيان الذرّة الآخر ، فهو قواها التي تؤلف أساس التفاعلات الذريّة كلها ، وأساس تحوّلاتها .

هنا يترسخ في فؤاد المؤمن اعتقاده بوجود كيان روحي أطلق عليه القرآن الكريم أسماء منها الفطرة والنفس والروّح . كما يدرك أن قواه الباطنة التي يحملها كالشجاعة والحبّ وغيرها ، ما هي إلا قوى الذرة ولكن بلباس وحليةٍ جديدة ، ذلك أن قوى الإنسان هي أساس فعاليّته أيضاً .

فإذا مضى وراء ذلك ، فتقصّى الأمر في كتاب الله تعالى ، لاحظ أنه تعالى قد نبّه إلى جميع ما توصّل إليه الإنسان عن طريق العلم ، بقوله عز وجل : ﴿ **فأقم وجهك للدّين حنيفاً ، فطرة الله الذي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدّين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ . الرّوم ــ وهكذا يصل هذا المؤمن بملاحظته ما ذيّل به الله تعالى هذه الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ، يصل إلى أنّ ما فهمه بطريق علميّ ، هو أمر يقينيّ ، متصل بما جاء في كتاب الله العزيز فلا يرى تناقضاً ما بين كلام الله وصُنعه ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ **فإنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

وممّا يدل على إيمان المسلمين بوجود الروح ، إيماناً راسخاً بهديٍ من آي الذكر الحكيم . هو أن علماء الكلام المسلمين ، تناولوا هذه المسألة من منطلق التسليم بوجود الروح . فبذلوا ما في وسعهم ليجيبوا عن جميع الأسئلة المطروحة ، والمتعلّقة بحقائق الروح . فمن مظاهر ذلك قيامهم بالإجابة عن عشرات التساؤلات : كبحثهم في حقيقة الروح : هل هي حالّةً في البدن ، حلول الماء في الإناء ، أو حلول العَرَض في الجوهر ؟ أم هي جوهر قائم بنفسه ؟ فإذا كانت جوهراً قائماً بنفسه : فمُتحيّزةٌ هي ، أي لها حيّز ، أم غير مُتحيّزة ؟ وإن كانت متحيّزة ، فما مكانها : أهي في القلب ؟ أم في الدماغ ، أم في موضع آخر ؟ فإذا لم تكن الروح متحيّزة ، فكيف يكون الجوهر غير متحيّز ؟ وإن كانت جوهراً ، فما هي حقيقته ؟ وما صنعته ؟ وما وجه تعلّقه بالبدن ؟

أهو داخل فيه ؟ أو خارج عنه ؟ أو مُتصل به ؟ أو منفصل عنه ؟ وهل هو في جهة ؟ .

على هذه الصورة راجوا يتساءلون عن الروّح : أهي مخلوقة ؟ أم غير مخلوقة ؟ وكيف يكون حال الأرواح بعد مفارقتها للأجسام ؟ وللمزيد راجعوا كتاب المضنون الصغير للإمام الغزالي ) .

المهم من ذلك كلّه ، هو أن من يتدبّر القرآن المجيد . سواءً أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، فإنه يجد جواب السؤال المطروح بموضـــوع الروح . فقد عرضت النظرية القرآنية الكونية لموضوع بحثنا ، وهو هل عالمنا مادة بحته ، أم يضمّ إلى المادة عنصراً روحيّاً ؟ بل أجابت عنه إجابة صريحة وواضحة . فوضّحت أن عالمنا ليس هو بمـادة وحسب ، بل يحوي إلى ذلك عنصراً روحيـاً بمفهومه العـلمي . هذا العنصر الروحي الذي تجلّيه الفطرة البشرية الناشئة عن الذرة ، والتي استعمل لها اسم النّفس أيضاً . هذه النفس التي تُعدّ أساس تفاعل الإنسان وتحوّلاته في حياته الدنيا .

ألم تلاحظ أيها القارىء أن إجابة القرآن المجيد عن السؤال المطروح ، لم تكن على طريقةٍ تقليديّةٍ ، درج عليها الكُتّاب ، فجّةً جافّةً باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بها هذا الكتاب السماوي ، كما أراد الله عز وجل ، سائغةً ، سلسلة ، سهلة الورود على الطّبع ، مقبولة ، تروقك وتؤنسك . وقد صاغها البارىء تعالى بمنتهى البراعة والبلاغة ، المؤثرة تأثيراً نفسياً جذّاباً . وأتى بها على طريق التلّقين غير المباشر . هذا الأسلوب المُعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلّقين . وبهذه الطريقة أثبت في الأذهان أوّل عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## ٢ ـ مادة هذا العالم أزليّة هي أم مخلوقة ؟

ما زال هذا السؤال يراود الأذهان ، منذ أن اكتمل وعي الإنسـان . وقد نشأ تيّـارات فكريّان ، أحدهما يقول بمخـلوقية المادة ، والآخر يقول بأزليّتها . وما فتىء هذان التياران يتصارعان على صعيد الفكر ، داخل فئات المتديّنين ، وخارجهم أيضاً .

وكنت ذكرت أن علماء عصر النهضة الصناعية في أوروبة ذهبوا إلى أن الكون مادّة وحسب . وإن المادة أزلية الوجود . لكن من ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين من العلماء في أوروبة ، دلّتهم كشوفهم العلمية ، على أن المادة ليست أزلية ، وأنّ تاريخ نشوء هذا الكون يرجع إلى ( ١٢ ـــ ٢٠ ) مليار عام تقريباً . وأنه نشأ عن طريق انفجار عظيم ، قد حدث في مادّة مضغوطة ضغطاً لا يتصوّره الخيال ، وفي حيّز لا تدركه أعظم المكبّرات . هذا ما دلهم عليه ، وما ساعدهم على تقديره علم فيزياء الكمّ . بل بات كثير من علماء أوروبا اليوم لا يقولون بمخلوقية المادة وحسب ، بل ويؤمنون بكونها مخلوقة لغاية محدّدة .

ومخلوقية المادة يرافقها بالضرورة بحث الغاية من خلقها . وأن علماء أوروبا قبل ظهور النظرية النسبية ، نفوا كون المادة مخلوقة . ونفوا بالتالي أن يكون لوجودها غاية محدّدة .

( فبيكون ) و( ديكارت ) كلاهما استبعدا بحث الغائية في العلوم الطبيعية . فقد قال ( بيكون ) : « أن مطلب الغائية يُفسد العلوم بدلاً من أن يرقي بها » . وقال ( ديكارت ) : « كل ضروب الغائية لا قيمة لها في الأشياء المادية أو الطبيعية » . كذلك قال أعظم علماء الرياضيات في القرن التاسع عشر ، وهو ( كرل غاوس : Carl F.Gauss ) فيما نعلق بغائية المادة « هو يقع كليّاً خارج ميدان العلم » . حتى وذهب ( سيغموند فرويد ) وهو أشهر علماء القرن التاسع عشر أيضاً : « أديان البشر يجب أن تُصنّف باعتبارها وهماً من أوهام الجماهير » . وبالإضافة إلى هـذا كله فقد ألفوا كُتباً شهيرة منها ما عنوانه ( تاريخ الصراع ما بين الدّين والعلم ) .

فلما هلّ القرن العشرين ، وظهرت النظرية النسبية عام ١٩٠٥ وتطورت مختلف العلوم الفيزيائية والفلكية والرياضية وظهر علم الكمّ . وبعد أن قُدّر عمر الأرض عن طريق علم فيزياء الكم بما يتراوح ما بين ( ١٢ ـــ ٢٠ ) مليار عام . انهارت أفكار بيكون وديكارت وغاوس وفرويد . وانهارت نظرية نيوتن أيضاً . فظهـر عالم الفيزياء

الفلكية ( دنيس شياما Dennis Sciama ) ليقول : « لعل أهم اكتشاف علمي من اكتشـافات القرن العشرين ، هو أن الكون بأكمله ، بوصفه كليّة واحدة ، قابل للبحث العقلاني ، باستخدام أساليب علمي الفيزياء والفلك » . كما ظهر من علماء الفيزياء والفلك وسواهما من أخذ يتكلّم عن الغاية من خلق المادة وعن خالقها أيضاً ، مّما لا مجال للتوسّع فيه ، في هذا المقام .

ولا ريب أن الإنسان العادي ، إذا ذكر أمامه أنّ المادة غير مخلوقة ، وأنها أزلية الوجود ، تملكته الدهشة ، وأخذه العجب من هذا القول . ذلك أنه يلاحظ خلال حياته اليومية أن المائدة لابّد لها من نجار يصنعها . وأنّ خشبها لا يتأتّى إلا عن طريق الأشجار ولا تنبت الأشجار دون بذور أو غراس ، تأخذ طريقها إلى جوف التربة . فهذه سلسلة من الأسباب والمسبّبات ، يمّر بها يوميّاً . لذلك لا نراه يتصور إمكان التسليم بأزلية المادة .

ثم إن المسلم العادي الذي هو مؤمن بالقرآن المجيد ، على أنّه كتاب سماويّ مُنزل . إذا ما حاول تلاوة هذا الكتاب المقدس ، ولو مرّةً واحدة في حياته ، صادف خلال تلاوته فعل [ خلق الله ] أكثر من مائتي مرة ، فرسخ في ذهنه موضوع كون المادة مخلوقة ، وكون الإنسان مخلوقاً ، وكون السماوات والأرض من خلق الله .

وهل يتأتّى لمسلم يقوم بتلاوة سورة الأنعام مثلاً . فيقرأ قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجلٌ مُسمّى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سـرّكم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون** ﴾ . أقول هل يتأتّى لمسلم يقرأ هذه الآيات الكريمة فلا يستقرّ في ذهنه موضوع خلق الله للمادّة . بل وخلق الله للإنسان نفسه ، بل وخلق الله للسماوات والأرض ومن فيهنّ ؟ .

أجل ، بل لابد لهذا المسلم أن يذهب إلى أن من الجحود والكفر بالله تعالى ، الزّعم أن هذا الكون غير مخلوق . أو أن المادة غير مخلوقة . يدله على هذا قوله تعالى في بداية الآيات ﴿ **الحمد لله الذي خلق** ﴾ ... .

وهكذا المسلم المثقّف المفكر ، فهو إذا تلا هذه الآيات ، فلن يتزعزع إيمانه بخلق المادة . بل يزداد رسوخاً لدلالة الآيات عليه . فإذا أنعم النظر في ألفاظها ، وأسلوب نظمها ، وتسلسل دلالاتها . لاحظ أنّها صيغت على صورة دعوى ودليل ، ببلاغة معجزة . كما لاحظ أنّ ربّه ينسب إلى نفسه خلق السماوات والأرض . ثم يُتبع هذا بتقديم دليل عقلي على ذلك . وهو التنبيه من خلال قوله ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ إلى أن خلق السماوات والأرض جاء هادفاً منظّماً . والغائية والتنظيم لا يأتيان بطريق المصادفة ، بل بطريق الإرادة والتّصميم والعلم والقدرة الفائقة . فالله تعالى نبّه من خلال هذه الألفاظ على أن هذا التكّون جاء يقيم حدّاً فاصلاً بين الظلام والنور ، وحكماً بيّناً بين الحقيقة والوهم ، وعارضاً فارقاً بين العلم والجهل . فهذه جميعها يُعبّر عنها بكلمات الظلمات والنور . فإن وراء تكوين السماوات والأرض إذن غاية وخلقاً تنظّمه القوانين . فلا خلق يتمّ بلا هدف . ولا خلق يجري دون نظام وإحكام .

فمن خلال تدبر المسلم المثقف الواعي لهذه الآيات ، تبرز هذه المعاني ، فيرسخ إيمانه بكون المادة مخلوقة . وقد أتت الدعوى مقرونةً بدليلها .

وإننا لنلاحظ أن علماء أوروبة الحاليّين قد انتهوا إلى وجود الملامح الغائيّة هذه ، في معالم هذا الكون وجَنَباته . لذلك راجوا يقولون بخلق المادة ، بتدبير عقل مُطلق أزلي .

ويُتابع هذا المسلم المثقف التلاوة ، فيلاحظ أن ربّه يقدّم له دليلاً آخر على صحّة دعوى الخَلْق ، بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجل مُسمى عنده ، ثم أنتم تمترون** ﴾ . فهذا دليل آخر على كون المادة مخلوقة ، ولكن بأسلوب عقلي جديد . فقد لفت سبحانه وتعالى النظر ، من خلال ألفاظ هذه الآية

الكريمة ، إلى أن الإنسان ، هو من مادة ، فهو من طين . أي أن حياته قائمة على وجود مادّي . وأنّه مقضيّ عليه أن يُعمّر على سطح الأرض أجلاً مرتبطاً بتكوينه الفيزيولوجي العضوي ، فلا يستطيع الخلود عليها . وأنه سيدخل بعد موته عالم البرزخ ، فيقضي أجلاً مُسمّى عند الله تعالى . فما لهذا الإنسان ينكر كون المادة مخلوقة ، وهو مخلوق منها ، وفي أُطرٍ محدّدة هادفة أيضاً ؟ فهذه الألفاظ تشير إلى وحدة المخلوق . كما تشير إلى علم الخالق الواسع ، وبديع صُنعه .

ويتابع هذا المسلم المثقفّ الواعي التلاوة ، فيتلو الآية التالية لها ، وهي قوله تعالى ﴿ **وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سرّكم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون** ﴾ فتتراءى لعينه معالم دليل ثالث أيضاً ، وهو وحدة الخالق أيضاً .

فما دامت المادة واحدة في السماوات والأرض . وما دام الإنسان من أصلٍ مادّي . وما دامت هذه جميعها مخلوقة بصنع بديع ، منظّمة وهادفة . فالخالق واحد لا محالة . فهو الله في السماوات وفي الأرض . وهو بعلمه الذي يسع كل شيء ، يعلم سرّكم وجهركم أيضاً وما تكسبون . على هذه الصورة يستقرّ في فؤاد هذا المسلم كون المادة مخلوقة ، وأن الله خالقها .

المهم من ذلك كله ، هو أن الإنسان الذي يتدبّر القرآن المجيد . سواء أكان هذا المتدّبر مسلماً عادياً ، أو كان مثقفاً ثقافة عالية ، فإنه يجد الإجابة عن السؤال المطروح ، فيما يتعلق بموضوع المادة أمخلوقةٌ هي أم أوليّة . فهذا المتدبّر لكتاب الله القرآن المجيد ، يعي أنّ النظرية القرآنية الكونية قد عرضت لهذا السؤال ، وبحثته ، فعمدت إلى الإجابة عنه إجابة قاطعة الدلالة ، بالغة الحجّة ، واضحة البيان . فاتضّح بهذه النظرية القرآنية كون المادة مخلوقة ، بما لا يدع بعدها للمرء مجالاً لشكّ أو ريب .

ولا شك أن قارئنا العزيز قد لاحظ أن إجابة القرآن المجيد على السؤال المطروح ، حول خلق المادة ، لم تكن على طريقة تقليّدية درج عليها الكتاب ، فجّة ، جافّة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بها هذا الكتاب السماوي كما أراد

الله عز وجل ، سائغة ، سلسلة ، سهلة الورود على الطبع ، مقبولة ، تروقك وتُؤنسك . وقد صاغها البارىء تعالى بمنتهى البراعة والبلاغة المؤثرة تأثيراً نفسياً جذّاباً . وأتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلقين . وبهذه الطريقة أثبت في الأذهان ثاني عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## ٣ ـ إذا صحّ خلق المادة ، فمن هو خالقها ؟

ثبت أن الكون بكامل كواكبه وسياراته ومجرّاته ، هو مادة ، بما فيه الإنسان نفسه . ذلك أمرٌ أمسى من البديهيّات المسلّمات لدى إنسان القرن العشرين .

فإذا نحن أوغلنا في تاريخ البشرية القديم ، واستعنّا بما عثرنا عليه من آثاره . للاحظنا أن الإنسان في غابر أزمنته ، لم يكن ينظر إلى هذا الكون ، نظرة إنسان هذا القرن . بل كان الأمر مُختلطاً عليه . وطبيعي أن يتناسب وعي الإنسان وإدراكه ، طرداً ، مع مَبلغه من العلم .

ذلك أن الإنسان القديم ، كان لا يزال وعيه في طفولته . فقد كان إذا نظر إلى شمسٍ ساطعةٍ في كبد السّماء ، يستدفىء بحرارتها ، ويستنير بنورها ، ذهب ظنّه إلى أنّ الشمس هي الإله الخالق . ولا يذهب ظنّه إلى ما وراء الشمس من حقائق تثبت أنها مخلوقة .

و لنعد بذاكرتنا هنا إلى مثال الصّرح الممرّد من قوارير ، الذي قدّمه سليمان الحكيم ، لبلقيس ملكة سبأ ، حين قَدِمت إليه ، وكانت وقومها يعبدون الشمس . فتنبهّت لصدق سليمان ونبوّته ، وقالت ﴿ **رب إني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ النمل ٤٤ . فآمنت بالله خالق الشّمس .

ولم يكن يخطر ببال الإنسان القديم هذه الملاحظة العلمية . لذا نراه قد ذهب إلى عبادة أكثر من جُرم من أجرام الطبيعة . بل نلاحظه قدّس ، من اعتقد عظمتهم من البشر ، ظنّاً منه أنهم من نسل الآلهة التي خلقت هذا الكون .

من هذا نُدرك أن الإنسان القديم ، لم يعتقد يوماً من الآيام كون المادة أزلية . لكنه أدرك عن طريق إحساسه الفطري ، ضرورة وجود خالق للمادة . فما كانت فطرة ذاك الإنسان تتقبّل أن تكون السماوات والأرض بهذا النظام وهذه العظمة ، إلا أن يكون هناك إله خالق لهذا الكون ، يسيّره وفق مشيئته .

هذا الإحساس الفطري ، الذي دفع للأخذ بمبدأ كون العالم مخلوقاً . طغت عليه ضجّة المصانع والآليات التي يحرّكها البخار ، في القرنين الماضيين في أوروبة . حتى تناسوا صوت فطرتهم ، وذهبوا إلى أن العالم مادة أزلية لا خالق لها .

ولم يقفوا عند هذا الحدّ ، بل راحوا ينعتون الإنســان القديم بالجهل المطلق . وعلّلوا نشوء العقيدة لديه ، بوجود إله خالق لهذا الكون ، بتخوّفه ممّا حوله من ظواهر الطبيعة ، ومن جرّاء عجزه عن تفسير ما حوله بأسلوب علمي . وهكذا غاب عنهم مكانة الحدس الفطري الخفيّ في بيّن الحقائق . ذلك الحدس الفطري الذي يُعتبر في حدّ ذاته دليلاً على وجود خالق هذه الفطرة ، التي فطر الناس عليها .

وياليت أولئك الأوروبيين المشـار إليهم ، قد وقفوا عند هذا الحدّ ، من تجاهل الفطرة واغفالها . بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك . فادّعوا أن الأديان بأجمعها ، إن هي إلاّ ظاهرة ، وثمرة طبيعية للجهل الذي وقع فيه الإنسان القديم . زاعمين أن الإنسان ، بعد أن ذهب إلى عبادة ظواهر الطبيعة التي أخافته ، ازداد وعيه ، فبدأت عنده ظواهر الميل إلى التوحيد شيئاً فشيئاً ، حتى ادّعى أخيراً هذه الأديان التي تقول بالخالق الواحد لهذا الكون .

ولا ريب أن علماء أوروبة المذكورين ، قد حسبوا أنهم أصابوا كبد الحقيقة ، بما ادّعوه ضلالاً وبهتاناً . فاضلّوا بذلك شعوبهم وكثيراً من شعوب العالم . ففشا فيها الإلحاد وعمّ الضلال .

وسبق أن ذكرت أنه خَلَف من بعد أولئك ، خلْفٌ ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، أدّت بهم أبحاثهم في المادة ، إلى الإيمان بوجود عنصر الروح إلى جانب المادة . لا سيما وقد ثبت أنّ للذرة كيانين : وزنها وقواها . وأن العنصر الروحي فيها ، وفي الإنسان ، هو سّر فعاليتهما وتحولاتهما .

فلما انتهى هؤلاء إلى نظرية الإنفجار العظيم ، أسفرت أبحاثهم إلى أن للكون بداية ونهاية . وما دام الأمر كذلك ، فالكون مخلوق أيضــاً . فإذا تتبّع أحدنا معالم هذه المســيرة الفكرية الأوروبية الجديدة ، في السنوات الأخيرة ، لاحظ أنه قام من بين هؤلاء من يبحث في وجود الله ، بعد إلحاد شديد .

لكنه ينبغي لنا أن نتنبه إلى أن علماء أوروبة لن يثوبوا إلى رشدهم ، في الأخذ بالنهج العقلاني الذي نبهنا عليه الإسلام . حتى يتبيّنوا أنّه لابد من الاعتراف بعجزالعقل عن إدراك الغيبيّات ، ما لم يستعن بوحي السمّاء . وما داموا لم ينتهجوا هذا النهج العقـلاني ، فلا سبيل أمامهم لمعرفة الخالق على وجه اليّقين . فقد راجوا يستنبطون وجود الخـالق ، من ظواهر مخلوقـاته . علمـاً بأن ما يسعون إليـه لا يتـأتى عن هذا الطريق .

وقد عمد بعض علمائهم اليوم إلى انعام النظر في جمال الطبيعة فلا حظوا أن جمال الطبيعة بالغ الروعة والوفرة في الطبيعة . فاستنتجوا من ذلك أنها ظاهرة يستحيل أن تنشأ بالمصادفة . فلابد لهذا الجمال الوافر الرائع البادي في كل صعيد ، من سبب . فانتهوا بعد إعمال الفكر وتقليب وجوه الرأي ، إلى أن وفرة مظاهر الجمال في مشاهد الطبيعة ، لا يبدو أنه ناشيء عن ضرورة استدعت هذا الجمال . وقالوا ما دام جمال

الطبيعة لا يتأتّى بالمصادفة ، ولا يلزم بالضرورة . فلا بدّ إذن أن يكون قد ابتدعه عقلٌ مسؤول مدّبر ، مبدع لهذا الجمال ، وهو الله الخالق .

نتناول من هؤلاء العلماء على سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر ، عالم الفيزياء الشهير ( هنري مارجينو ) ، فقد كتب يقول : « إننا لا نعتقد أن الجمال مرهون بإحساس عين الناظر . بل هناك سماتٌ موضوعية تكمن وراء بعض التجارب الجمالية ، على الأقل . إن لم نقل وراءها جميعها . مثال ذلك معدلات تردّد أنغام الوتر الكبير ، أو تناسق الأشكال الهندسية ، أو الجاذبية الجمالية للألوان المُتنامّة المتجاورة . وإذا صحّ أن مظاهر الجمال هذه لا تستمّر ولا تدوم ، لكنها جميعاً منتشرة في الطبيعة على كل حال ، انتشاراً يصعب جدّاً أن يكون قد تمّ بالمصادفة . ونحن نطرب لتغريد العصافير ، ونجتلي نسق الألوان في الأزهار ( هل للحشرات حسّ جمال ؟ ) ، ونمتّع النظر بتناغم ألوان ريش الطيور . وللجمال الذي لا يُضاهى في ورقة القُبقُب الذّاوية . ولونها الشديد الحمرة ، وعروقها الزرق ، وأطرافها الذهبية . فهل في هذه ما يساعد على البقاء حين تكون الورقة مُشرفةً على السقوط ؟ » .

ولا ينبغي للقارىء أن ينسى أن هذه الأقوال صادرة عن عالم فيزياء شهير ! .

وهاكم مثالاً من شعراء أوروبة اليوم ، وقد ذهب يعزف على هذا الوتر الذي عزف عليه ( هنري مارجينو ) . علماً بأن الشعراء يصورون دوماً معالم عصرهم ، فيستنسخونها في أشعارهم .

دونكم الشاعر ( ثورو Thoreau ) ، فهو يقول ما ترجمته :

« السماء تمطرنا ، وتسقط علينا ثلوجاً كالدّرر . يا له من عالم عجيب ، هذا الذي نعيش فيه . أين متاجر الجواهر والحلّي من ذلك ؟ ليس هناك ما هو أجمل من ندفة ثلج أو قطرة ندى . أكاد أقول إن صانع هذا العالم ، تتجلّى براعته في كل ندفة ثلج أو قطرة ندى يسقطها علينا . ونحن نظنّ أن الأولى تتماسك بطريقة آليّة . وأن الأخرى

تسيل فتتهاوى بكل بساطة . لكنهما في الحقيقة حصيلة حماسٍ ونتاج نشوة أسبغته عليهما اللّمسات الأخيرة ، بأقصى مهارة الفنّان » .

هذه أقوال شـاعر أوربي يحذو حذو العالم الفيزيائي ( هنري مارجينو ) وإنك لتتلمس من خلال عبارات هذا الشاعر أنه قد تبيّن وجه خالق هذا الكون .

والذي يهمنا من هذين المثالين ، أن ندرك أن علماء أوروبة وأدباءها ، عادوا هذه السنوات يستنطقون الطبيعة الصامتة ، لعلهم يهتدون إلى الرسوم التي اختطها خالق الكون على أشيائها . فيمتّعون أبصارهم بندفة الثلج ، وغروب الشمس ، وتماوج الأعشاب وبألفاظ أخرى فإنهم عادوا يتشوّفون إلى تأمل عظمة الخالق في جمال وروعة وإبداع الصنّعة .

نخلص من هذا ، إلى أن الإنسان القديم ، شعر بوجود خالقه وخالق المادة ، بفطرته السلّيمة التي لم تكن قد شوهّتها الآلة والدينار . وإن إنسان القرن العشرين عاد يحسّ ويتلمسّ آثار عظمة الخالق وإبداع صنعه عن طريق فيزيائية وشاعريته ، وليس عن طريق الشّعور الفطري . من هنا يحقّ لنا القول إن الإنسان الأوروبي سيظلّ تائهاً في حمأة تطوّره المادي ، وعن طريق التخمين . فلا يُرجى له فلاح إلا بالإذعان لمعطيات الوحي السمّاوي .

وإذا عُدنا الآن إلى معطيات القرآن المجيد ، وإلى ما رسخّه في ضمائر مُعتقديه . نلاحظ أن هذا الكتاب المقدس ، أخذ بأيدي المؤمنين للاعتقاد بوجود خالق للمادة . وأنه هو الرحمن الرحيم : بل رسّخ في صدورهم أن لهذا الخالق حضوراً في كل شأن من شؤون هذا العالم . وأنه ﴿ **رب العالمين** ﴾ . بل أقرّ في ضمائرهم أنهم صائرون يوماً إلى ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ . قد أحدثت تعاليم القرآن المجيد في المسلمين هذه الوحدة الفكرية بأساليب شتى من الإلهام والهداية والإقناع .

فالمسلم العادي لا يشرع بتلاوة أي سورة ، إلا بعد أن يستهّل تلاوته بـ بسم الله الرحمن الرحيم . وفي هذه الألفاظ إقرار وإعلان عن وجود خالق المادة وأنه الرحمن

الرحيم ، وأنه مالك السماوات والأرض ، لذلك يبتدىء بالتلاوة باسمه عز وجل . **وهو** حين يشرع بقوله بسم الله الرحمن الرحيم ، يرى مايراه الشاعر ( ثورو ) والعالم الفيزيائي ( هنري مارجينو ) دون أن يكون شاعراً أو عالم فيزياء . يقولها عن عقيدة ويقين ، وفي غير تردّد أو ارتياب .

وهو حين يتلو ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين** ﴾ يلهج لسانه وفؤاده بالثّناء على خالق المادة ، الذي أعطاها هذا الجمال الذي فتن لُبّ ( ثورو ) وأخذ بمجامع قلبه . يوقن أنه صائر أخيراً إلى خالقه ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ . ولذلك نلاحظه أيضاً حين يتلو ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ يشعر بعظمة الخالق وخضوع المخلوق الذي يرى ضآلة نفسه تجاه عظمة خالقه . ويتقدّم بتلاوته فيدعو ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ وتلوح في ذاكرته أسماء الأنبياء والصّديقين والشهداء والصالحين . فيرجو من خالقه أن يجعله رفيق هذه العُصْبة من الرجال الخالدين .

أما المسلم المثقف المفكّر ، الذي وهبه الله خالقه ملكَةَ التحليل العلمي . فهو لا يتلو آيات سورة الفاتحة ، دون أن يدقّق نظره ، ويعمل فكره في كل كلمة يتلوها . ودون أن يستشف معانيها السامية ، وأسرارها العميقة . لا سيما إذا كان ممّن حذق لغة الضّاد ، وملك قيادها ، ووفر حظّه من علوم الدنيا والدين .

يقف هذا المسلم المثقّف عند قوله تعالى ﴿ **الحمد لله** ﴾ ، فيلاحظ أن الحمد ورد مُعّرفاً بالألف واللام ، ليفيد الاستغراق في معنى الحمد وأشكاله . ثم يطالع معنى الحمد ، فيعرف أنه يفيد الشكر والثناء والرّضا . ومعنى لفظ ( الله ) ، ليلاحظ أنه اسم غير مشتق ، يطلق على خالق الأكوان .

فيتساءل : كيف تأتّى لهؤلاء العرب ، في بداية حياتهم ، أن يضعوا لله خالقهم هذا الاسم ﴿ **الله** ﴾ من بين جميع شعوب العالم ؟ وتجول من جرّائه استفهامات

كبيرة ، تقوده إلى أن اللغة العربية ، ليست لغةً منطوقة ، بل لغة إلهام . أي أن الخالق نفسه ، هو الذي علّم آدم هذا الإسم الإلهي .

فإذا تنازعت هذا المسلم المثقف الشكوك ، وأتته من أي جانب . كجانب الذين اتخذوا البشر إلهاً ، وقالوا بأزليّة المادة . راح هذا المسلم يُنقبّ عن أدلّة وجود الله تعالى في كتاب الله العزيز ، فيتراءى له ، بكل وضوح ، أن الله تعالى قد كشف عن نفسه بنفسه ، وذكر أسماءه الحسنى ، وساق من الحجج القاطعة والأدلّة البيّنة ما ينفي كل شك ، ويثبت اليقين الجازم .

يتناول تجليّات صفة الربوبية التي دلت عليها آية ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ، ويقلّب فكره في مظاهر هذه التجليّات ، فيلاحظ أنها مبثوثة في الخلق جميعاً . وهكذا يرى في عاطفة الأمومة مثلاً على تجليات الربوبية . هذه العاطفة التي غرسها الربّ في فطرة الوالدين ، لتكون وسيلة للتوالد والتكاثر ، تكون وسيلة لاحتضان الوالدين أبناءهم بقوة من عاطفة الرحمة والاشفاق والودّ . ويلاحظ أيضاً أنه لو لا سنوات حضانة الأبناء ، لما تنقلت تجارب الآباء إلى الأبناء . وهذه الدّواة والقلم ، وقد هدتنا إليهما تجليات الربوبية لتدوين العلوم وتثبيت الأفكار .

وتلوح لباصرة هذا المسلم المثقّف حلقات تجليات الربوبية على ما ذكرناه ، فيربط بعضها ببعض ، ويستلهمها النتائج . فيبدو له أنّ آيات هذه الربوبية لم تأت عبثاً دون قصد أو هدف ، وفي ذلك دليل على وجود خالق الكون رب العالمين .

على هذه الصورة ، لا يتلو المسلم المثقف آية ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ إلاّ وتترسّخ في فؤاده عقيدة كون الله خالق المادة ، وأن تجليات ربوبيته تشمل العالمين .

فإذا تجاوز المسلم المثقف المفكّر هذه المرحلة من حياته ، وهي حياة ترسيخ الإيمان في فؤاده بالحجة والبرهان . تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة ما نصطلح على

تسميته العُرفان الإلهي .مرحلة تعرفه لخالقه ، ومحاولة التقرّب منه بشتى الطاعات والتعامل معه ، محتفظاً لله جل جلاله قدره وعظمته .

وكيف لا ينتقل هذا المسلم المثقف المفكر إلى هذه المرحلة العملية بعد اجتيازه المرحلة النظرية ، وقد تبيّن عند تلاوته كتاب الله تعالى الآيات تأخذ بيديه على طريق هذه المرحلة العملية . إنه سيتلو فيما يتلو ، قوله تعالى ﴿ **قل إني قريب ، أديب دعوة الداعي إذا دعاني ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي ، لعلهم يرشدون** ﴾ . وسيتلو قوله تعالى ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ ويتلو قوله تعالى : ﴿ **هو أقرب إليكم من حبل الوريد** ﴾ . ويتلو قوله تعالى ﴿ **إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا ، تتنزّل عليهم الملائكة ، ألاّ تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة** ﴾ .

ويعود هذا المسلم المثقف المفكر ، فيدقّق في هذه الآيات ، وما انطوت عليه من وعودٍ إلهيه . فيحصل له ، على قدر سعيه شيئاً من عرفان ربّه ، وشيئاً من التعامل معه . ويقارن ما وصل إليه من عرفان ربّه ، بما مضى فيه ( هنري مارجينو ) والشاعر ( ثورو ) . فيلاحظ أنهما لا يزالان دون ما بلغه هو من مرحلة بلوغ فكريّ وتقرّب وعرفان . فأين هذان ممن تجاوزوا المرحلة النظرية الإيمانية ، ودخلوا المرحلة العملية العرفانية من ملايين ملايين المسلمين ، ممّن قطفوا ثمار عرفانهم الإلهي وجدوى سعيهم ومجاهدتهم لأنفسهم ، وتلذّذوا بثمار وصالهم مع ربهم وخالقهم . فعرفوه أنه الإله الحيّ القيوّم .

وهنا تتراءى لهذا المسلم المثقف المفكر أن ما تسعى أوروبة اليوم إلى معرفته ، من أصل الكون وخلقه ومصيره . قد نزلت كنوز معرفته قبل أربعة عشر قرن من أيامنا هذه على قلب محمد رسول الله النبي الأمّي .

فلو كان الأوروبيون متفهّمين للنهج العقلاني ، مؤمنين بضرورة الاستعانة بوحي السمّاء في الغيبيات وما وراء الطبيعيات لأصبحوا سادة العالم الحقيقين . لكنا نلاحظ

أنهم لا يزالون في تيههم يعمهون . فلم يقطعوا ، على طريق معرفة خالق المادة ، إلاّ النّذر اليسير .

ويتذكر هذا المسلم المثقف المفكر ، عندما يبلغ هذا المبلغ من العلم ، قول ربه عز وجل ﴿ **بل إن أكثر النّاس لا يعقلون** ﴾ أي لا يعملون عقولهم ضمن نهج العوامل الطبيعية المساعدة ، التي سبق أن ذكرناها . فيفهم سرّ تخلّف النهج الأوروبي عن إدراك خالق المادة .

وممّا يدل على أن المسلمين اعتقدوا وجود الله خالق المادة ، ومضوا على درب التماس العرفان الإلهي . هو هذه الكثرة من الكتب التي ألّفها ذوو القلوب المؤمنة المستنيرة حول وجود الله تعالى ، وحول أسمائه الحسنى ، وسبيل عرفانه . وتناول هؤلاء الكتاب هذه المواضيع من شتى نواحيها .

المهم من ذلك كله هو أن الشخص الذي يتدبر القرآن المجيد . سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، فلا محالة أن يجد بين دفتي كتاب الله القرآن المجيد ، جواب السؤال المطروح حول خالق المادة . ويتبيّن له أن القرآن المجيد لم يعرض هذه الإجابة على طريقة الكتاب التقليديين ، فجّة ، جافة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته إجابة سائغةً ، سلسلة ، سهلة الورود على الطبع ، مقبولة ، تروقك وتؤنسك . وقد صاغ البارىء تعالى هذه الإجابة بمنتهى البراعة والبلاغة المؤثرة تأثيراً نفسياً جذّاباً . وأتى بها على طريقة التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التلقين . وبهذه الطريقة أثبت تعالى في الأذهان ثالث عنصرٍ من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## ٤ ـ إذا صح أنه لابد من خالق ، أو لم يكن خَلْقه عن إرادة وغاية وتصميم ؟

لا تفيدنا معلومات الحفائر الأثرية كثيراً ، فيما يتعلق بوعي الإنسان آنذاك . فهل كان وعيه يسمح بأن يطرح على نفسه هذا السؤال . لا سيّما وأنّ ما أدركه علم

الفلك ، في تلك الحُقب ، لم يكن يساوي عشر معشار ما بلغه هذا العلم من رقيّ وتقدّم في القرن العشرين . الذي أتاحت مراصده الجبّارة اختراق مجاهل الفضاء الواسع الرّحب .

على أن علماء عصر النهضة الأوروبية ، تطرّقوا إلى هذا السؤال ، لكنّهم سرعان ما تحوّلوا عنه ، لاعتقادهم أن العالم مادة وحسب ، وأنها أزلية الوجود . هذا بالرغم من أنه رُوي عن ( نيوتن ) ، أنه أكّد في رسالة بعث بها إلى ( ريتشارد بنتلي Richard Bentley ) في عام ١٦٩٢ « أن حركات الكواكب الراهنة ، لا يمكن أن تكون قد انبعثت من أيّ علّة طبيعيّة فحسب ، بل كانت مفروضةً بفعل قوّةٍ عاقلة » .

فالذين جاؤوا من العلماء ، من بعد ( نيوتن ) ، ممّن أخذتهم الدهشة بما شاهدوه من ظواهر الرقي الصناعي . اندفعوا يزعمون أن المادة هي العنصر الوحيد في هذا الكون . وأنها موجودة منذ الأزل . فلا محلّ للسّؤال عن وجود خالق قد خلق المادة بإرادة وتصميم ، وتحقيقاً لهدف منشود . وهكذا لاحظنا أن علماء القرن التاسع عشر نسخوا من أذهانهم هذا السؤال ، وضربوا عنه صفحاً .

ولكن جاء علماء النصف الثاني من القرن العشرين في أوروبة كما سبق أن ذكرنا ، فاتهمّوا أسلافهم من العلماء بالجهالة ، واعترفوا بوجود الروح ووجود خالق المادة والرّوح ، كما تبيّن من استشفاف رموزهم ، التي عرضنا لها في أقوالهم . لذلك عاد هذا السؤال يدغدغ أذهان علماء أوروبة ، بعد أن امسكوا عنه زمناً ليس بالقصير .

والمعلوم أن بحث وجود الله وإرادته وتصميمه ، لا يمتّ بصلةٍ من الصلات إلى علمي الفلك والفيزياء ، من حيث الظاهر ، وعلى ما هو معلوم . فلا يتصور أحدنا أن يلاحظ الفلكي ، من خلال رصده للمجرّات والكواكب والسيارات تنقُّل خالق الكون بين أرجائها ، لأنه ليس بمادة ، بل هو خالق المادة . كما لا يُعقل أن يلاحظ بين المجرات والكواكب والسيارات نصباً يشير إلى خالقها .

وبالرغم من هذه الاستحالة ، في الظاهر ، فقد ظهر عالم فلكيّ شهير ، وهو ( دينس شياما Dennis Sciama ) ، ذهب إلى القول : « لعلّ أهمّ اكتشاف علمي من اكتشافات القرن العشرين ، هو أن الكون بأكمله ، بوصفه كُلاً واحداً ، قابلٌ للبحث العقلاني ، وذلك باستخدام أساليب علمي الفيزياء والفلك » .

وقد ندهش أن يصدر من عالم فلكيّ مثل هذا القول ، ولكن تخفّ دهشتنا ، إذا تذكرنا أن نظرية أينشتاين التي أحالت مفهومي الزمان والمكان القديمين ، إلى مفهوم جديد ، جمع بين المكان والزمان والجاذبية أيضاً في تصوّر جديد . فأضحى المكان والزمان والجاذبية داحل ميداني الفيزياء والفلك . وقد اتخذ علماء الفيزياء والفلك هذه المشاركة ، أداة للبحث المفصّل في بنية الكون بأكمله ، وفي أصل الكون ومصيره ومآله . فانفتح هذان العِلمان بذلك على أبحاث الغيبيات . وقد لاحظنا في كلامنا على نظرية الانفجار العظيم ، كيف راح علماء الفلك والفيزياء يبحثون في موضوع كون المادة مخلوقة ، وأنّ لهذا الكون بداية ونهاية أيضاً . ولا يُعقل إلاّ أن تكون هذه المادة ، وهذا الكون المركّب منها ، من إبداع عقل مُطلق . فهذا ما يستدعيه العلم والمنطق السّليم .

وقد لاحظنا أيضاً أن علماء آخرين ، غير علماء الفيزياء والفلك ، قد راحوا يُدْلُون بدَلْوهم في علوم الغيبيّات أيضاً . وذلك من خلال ملاحظاتهم التي أبدوها ، من خلال اكتشافاتهم العلمية .

فنتذكّر هنا على سبيل المثال ، أقوال عالم أشكال الحيوانات وعلاماتها المميّزة . هذا العالم الذي تعتدّه أوروبة حجّة في اختصاصه ، وهذا العالم هو ( أدولف بورتمان Adolf Portmann ) . ولنستعد ما ذكرناه من أشعار ( ثورو ) في حديثهما عن الجمال . فقد انطوى كلامهما ، على أنه يستحيل أن يكون الجمال الوافر في الطبيعة ، منشؤه دواعٍ من المصادفة أو الضرورة ، أو الإدراك . خصوصاً وأن الجمال يعمّ كل شيء في هذا الكون : يعمّ النباتات والحيوانات وحتى الجمادات .

فاسمعوا ( بورتمان ) يقول : « ساد الاعتقاد مدّة طويلة من الزمن ، أن الرّيش ليس له دورٌ سوى تيسير عمليتي تعديل الحرارة والطيران . ولكن علينا الآن أن نضيف دوراً ثالثاً ، وهو دور التعبير عن الذات . لأن هناك أضافاً كثيرة من الرّيش ، تغلب الزخرفة على تركيبها الخارجي » .

إن هذا العالم ، لم يقصر رأيه على النباتات والحيوانات . بل شمل به جسم الإنسان في معادلته التي قدّمها . فقد نبهّنا إلى أن جسم الإنسان يبرهن على أنّ الضرورة لا تفسّر الجمال . فصوت الإنسان أكثر براعةً وأحكم تعبيراً ، من أي آلة موسيقية . ولا تستلزم الضرورة أن يكون للإنسان صوت قادر على إخراج أنغامٍ مُطربة . إذ كان يكفي أن يكون له صوتٌ رتيبٌ مملٌّ ، أو صوت خشنٌ للاستغاثة أو التعبير عن حاجات بدنه .

إن ما ذهب إليه ( بورتمان ) ، انطلق فيه من نظرية ( دارون ) نفسها . ذلك أن ( دارون ) . كان قد أقرّ في نظريته ، أن الضرورةلا تستطيع أن تفسّر ما وُهب للإنسان من مواهب موسيقية فطرية . فقد كتب ( دارون ) في نظريته يقول : « ولمّا كان الإستمتاع بالأنغام الموسيقيّة ، والقدرة على إطلاقها ، ليسا من الملكات التي تعود على الإنسان بأدنى منفعه ، في عاداته اليومية الحياتية ، فلابدّ من تصنيفهما في عداد أكثر الملكات التي وهُبت للإنسان ، غموضاً » . فهذا اعتراف ( دارون ) نفسه .

والحقيقة الناصعة هي أن الضرورة لا تستطيع أن تفسّر لنا لماذا نترنّم بأصوات العصافير مثلاً . وما الداعي إلى أن نرى بعض أنواع الشوك جميلاً في أعيننا .

وربّ قائل يقول إذا عجزت الضرورة عن تفسير هذه الأمور ، فقد تفسّرها المصادفة نفسها .

نقول لو صحّ زعمك ، لكان ينبغي أن يكون الجمال نادراً في الطّبيعة ، لتأتّيه عن المصادفة كما زعمت أنّ المصادفة لا تعمُّ . لكن المتأمّل في جميع نواحي الكون ، يلاحظ

أن الجمال ليس بالشيء النادر في الطبيعة ، بل يعمُّ كل شيء فيها . فهذا الواقع يكذّب نشوء الجمال عن المصادفة .

وعلى سبيل المثال ، فإن جميع الحيوانات ، تكشف لنا عن نوعٍ من التّناسق في تكوينها جميعها . بل إن بعض أجناس الحيوان تكشف لنا عن درجةِ تناسُقٍ مذهلة ، وكأنّها صور فنيّة رائعة .

دونكم شكل قنديل البحر الاسطواني ، وهو مخلوق على شكلٍ مثمّن الأضلاع ، ذو زعانف متناسقة مع هذا الشكل ، تأخذ بمجامع القلوب وتسحر الألباب . ثم إن أشكال نبات الخيزران والطاووس الهندي ، وكثير أمثالها ، بل منظر حقول الأعشاب ، وهي تتماوج تماوج نسمات الهواء العليل . حتى وقد اكتشفت المجاهر العادية ، ومجاهر المسح الالكتروني هندسات خفيّةٍ في تركيب ورقة عشب واحدة ، ممّا لا يستطيع الإنسان وصف جمالها . فمن أين تأتّت هذه الهندسات البديعة حتى في تركيب جُزّيء الـ ( D N A ) ، أي تركيب قالب الحياة داخل الخلّية الحيّة . هذا التركيب الذي كشفته الأشعة السينيّة ، وظهر أن تركيبه آية في الجمال .

والذي يهمنا ، هو أن علماء الفلك والفيزياء ، انتهوا من اكتشافاتهم إلى بحث ما يدخل في الغيبيّات . أي انتهوا إلى بحث مبدأ الكون ، ومآله ، وخالقه ومبدعه ، وأن ذلك كله تأتّي عن عقل مُطلق مدبّر لهذا الكون ، خالق له ، مبدع إياه عن إرادة وتصميم ، تحقيقاً لهدف منشود .

لكن هؤلاء العلماء ، ويا للأسف ، لم يبلغوا في تجوالهم العلمي والفكري ، المبلغ الذي سما إليه المسلم المؤمن بالقرآن المجيد ، الذي استعان بعقله ووحي الله المقدس ، في كشف موضوع هذه الغيبيّات . وإنه لسوف يظلّ العقل عاجزاً عن الاهتداء في هذا المجال ما لم يعِ هذا العامل المساعد ، ألا وهو وحي السّماء ، الذي أنزله الله عز وجلّ نوراً للبصائر البشرية .

فهاكم المسلم العادي يتلو القرآن المجيد . فإذا بلغ الآية /٢٨/ من سورة البقرة التي أوردناها في بحث المنطلق النظري الخامس ، وهو قوله تعالى ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه تُرجعون . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات ، وهو بكل شيء عليم . وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ .... يتلو هذه الآيات ، فيذهب ذهنه فوراً إلى أن الله تعالى ، لم يخلق هذا الكون إلاّ عن إرادة وتصميم بهدف تحقيق هدف منشود . فقد أبدع سبحانه وتعالى هذا الكون ، فأحيانا فيه ، ثم يميتنا ، ثم يحيينا يوم القيامة ، حتى نصير إليه سبحانه . كما يذهب ذهنه أن الله تعالى سخّر ما في الأرض جميعاً ، لمصلحة الإنسان وإسعاده . ولم يخلق هذه السماوات إلا للغرض نفسه . كما يذهب ذهنه إلى أن الله عز وجل محيط علماً بكل شيء خلقه . وأنه جعل الإنسان خليفته في تنفيذ أحكامه على الأرض .

فجميع هذه الأمور ، يدركها المسلم العاديّ بسهولة تامّة . فيصل منها جميعها إلى أن الله تعالى قد خلق هذا العالم بإرادة وتصميم ، تحقيقاً لهدف منشود .

أما إذا كان متدبّر القرآن المجيد مسلماً مثقفّاً ، فإنه يعمد إلى معاجم اللغة ، وإلى ما حصّل من علوم ، فيصل إلى الأمور التّسعة التي أتينا على ذكرها سابقاً . وأوّلها أن هذا الإله الخالق ، يملك إرادة وقدرة لا تحدّ ، وعلماً لا يطوله أيّ علم ، وحذقٌ في الصّنع والإبداع لا يرقى إليه خيال الإنسان .

وهذا المسلم المثقف يقف طويلاً عند كل لفظ ، فيقلّب معانيه ، ويحاول ربط معاني الآيات بمعطيات العلم . فيصل إلى أن الله تعالى قد أراد بقوله ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ .. الدلالة من طرفٍ خفيٍّ ، على أن نشأة الإنسان وقواه ، قد تأتت ، من هذه الذرة المادية التي لا تُرى إلا بالمجاهر . كما ينتقل فكره ، إلى الاستنباط ، من توازن القوى التي يحملها الإنسان ، إلى أن عالمنا المادي أُبدع بحيث يكون « عالم ابتلاء وامتحان » . فالمعلوم أنّ قاعات الامتحان ، إنما تعدُّ لزمن محدود ،

يجري خلاله الامتحان والاختبار ، وتتعرف نتائجه ، فيدرك من ذلك حكمة مشيئته تعالى في قوله : ﴿ **ثمّ يميتكم** ﴾ أي أنّه قضى أن تعيشوا أجلاً محدّداً . تموتون بعدها وتصيرون إلى عالم البرزخ بعدما مرّركم ربكم بعالم الابتلاء والامتحان . وأنّكم لابد أن تُجزوا بأعمالكم إن خيراً فخير ، أو شراً فشرّ . كما يدرك دلالة قوله تعالى ﴿ **ثم يحييكم** ﴾ بعد أن أماتكم ، ودلالته على عالم البرزخ ، لقوله تعالى في مقام آخر : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ المؤمنون /١٠٠/ ، أي أن ثمة حاجزاً أو حائلاً لابد للإنسان من اجتيازه ، ليبلغ المنازل الرفيعة في الآخرة .

وبذلك يكون المسلم المثقف قد نجا ، مما قد يتنازعه من الشكوك والريّب .

ثم يعود يتلو سورة الفاتحة على هينته ، في كل ركعة من ركعات صلواته . فيوقفه صفة ﴿ **الرحمن** ﴾ ويدرك من معانيها دلالتها على الخالق ذي الرحمة ، وهي صفة لا يجوز أن يوصف بها غير الله تعالى . والرحمة من الله تعالى إنعام وإحسان وتفضّل ، ومن الأدميّ رأفة وتعطّف . وقد سُمي الله بالرحمن ، لأنه يملك الرحمة ، ويقدر على كشف الضرّ ، ويلجأ إليه برحمته .

فإذا أضاف هذا المسلم المثقّف هذه المعلومات إلى ما كشفته له الآيات عن خلق الله هذا العالم عن إرادة وتصميم . وما دلته عليه الآيات التي تكلمت عن المجموعة الشمسية ، على الخلق المبدع ، من اختلاف الليل والنهار ، واختلاف فصول السّنة ، وتعلم الإنسان من حركاتها عدد السنين والحساب . وهذه الغيوم التي تسقي الأرض فتحيي مواتها . والآيات التي نبهّت إلى اختلاف الألسنة والأقوام ، وإلى اختلاف الألوان والجهات ، والتي نبهّت الإنسان إلى وجود طبقة ( الأزون ) ، وإلى دورها الذي تؤديه في حماية الأرض وسكانها من الآثار السيئة لبعض الأشعة الشمسية . والآيات التي كشفت عن قانون التضحية بالأدنى ، في سبيل بقاء الأعلى .

بل إذا تلا مثلا قوله تعالى ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ، وزادهم نفوراً . تبارك الذي جعل في السّماء**

**بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً . وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهل ، قالوا سلاما** ﴾ . الفرقان /٦٣/ . تراءت لهذا المسلم المثقف ، من خلال هذه الأقوال ، معالم الصورة التي توصل إلى معرفتها ، فيما يتعلّق بالخالق الرحمن ، الذي أبدع كل شيء خلقه ، من دون مثال سابق ، والذي غلّب على ما أبدعه الطابع لواسع ربوبيته ورحمته ، مساعدةً منه عباده على اجتياز الابتلاء ، بفوزٍ ونجاح ، وبأقلّ الأخطاء الممكنة .

أقول يتراءى لهذا المسلم المثقف مدى ضعف الإنسان ، ومدى كُفره بنعماء ربه الرحمن ، إذا هو حاد عن الصراط المستقيم ، وعصى أمر ربّه ، وقصّر في عبادته .

على هذه الصورة يترسّخ في فؤاد هذا المسلم المثقف المفكّر اعتقاده بأن خالق المادة ، قد خلقها على هذه الصورة عن إرادة وتصميم وغاية ، تحقيقاً لهدف منشود ، وهنا يتذكر قول ربه عز وجل ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ومّما يدل على رسوخ إيمان المسلمين ، بكون خالق المادة ، قد خلقها عن إرادة وقصد وتصميم ، تحقيقاً لهدف منشود ، هو عشرات بل مئات ، بل ألوف المؤلفات في مكتبات العالم . هذه المخطوطات التي حبّرها أصحابها ، واستدلوا فيها على ما استنتجوه من قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً ، لاتخذناه من لُدُنّا ، إن كنّا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مّما تصفون** ﴾ . كما استدل هؤلاء المؤلفون المسلمون بقوله تعالى في سورة الدّخان : ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحقّ ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين** ﴾ .

المقصود من جميع ما ذكرناه ، هو أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً ، أم عالماً تحريراً ، فإنه يجد جواب السؤال المطروح فيما يتعلق بخلق الله تعالى لهذا الكون عن إرادة وتصميم ، تحقيقاً لهدف منشود .

فهو يلاحظ أن النظرية القرآنية الكونية تناولت هذا السؤال ، وأجابت عنه إجابة صريحة ، واضحة ، مُقنعة . إذ بيّنت أن الله تعالى قد خلق السماوات والأرض وما بينهما بإرادة وتصميم ، لا عبثاً ولا لهواً ، وأن الله الخالق قد جعل عالم الدنيا ، عالم امتحان وابتلاء ، فيكرم المرء جزاء عمله أو يُهان .

ويُلاحظ ، كما ذكرنا ، أن إجابة الله تعالى في كتاب القرآن المجيد عن السؤال المطروح ، لم تكن على طريقة بعض الكُتّاب التقليّديين فجّة ، جافة ، سقيمة . بل بطريقة بارعة ، سديدة ، دانية القطوف ، عذبة المورد ، ناصعة ، بلاغياً ، وجمالياً ، ونفسياً ، وعقائدياً . أي أنّه تعالى قد أجاب عن السؤال المطروح بأسلوب التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلّقين . وأبرز بذلك العنصر الرابع من عناصر النظرية القرآنية الكونية إلى حيّز الوجود .

## السؤال الخامس : أوَ جاء خلق الخالق للكون دفعة واحدة ، أم خلقه وأسنده إلى قانون النشوء والإرتقاء ..

فات هذا السؤال الإنسان قديماً ، فلم يطرحه على نفسه في تلك الحُقبة . خصوصاً ، وأنه لم يكن قد اكتشف تركيب الكون من حوله ، ولا القوانين الناظمة له .

فما نلاحظه من مُعطيات الحفائر الأثرية ، أن الله تعالى قد خاطب الناس على قدر عقولهم ، فلم يخاطب عقل الإنسان القديم في موضوع هذا السؤال إلا بطريق الرّمز ، من منطلق كونه تعالى لا يكلّف نفساً إلا وُسعها .

هذا هو السبب في أن الكلام عن خلق العالم ، ورد في التوراة بلسان المجاز ، مما لا مجال للكلام فيه هنا . لا سيا وقد كان بنو إسرائيل في المراحل الأولى للتطّور العقلي .

أما علماء القرن التاسع عشر الأوروبيون ، الذين أمكنهم اكتشاف جُزيء الذّرة ، دون أن يكتشفوا تركيب هذا الجزيء . فقد فتن ألبابهم ما اخترعته أيديهم من مخترعات . حتى اعتقدوا بأزلية المادة ، وطرحوا فكرة وجود الخالق جانباً . و لم يكن لهؤلاء أن يتساءلوا : هل خلق الله هذا العالم كما يرونه ، أم خلقه بشكل بدائي قابل للتطوّر ؟ لأنهم انكروا وحود الخالق من جهة ، وذهبوا إلى أن المادة خاضعة لقانون النشوء والارتقاء منذ الأزل .

لكن العلماء المذكورين احتاجوا لإكمال نظريتهم حول أزلية المادة ، إلى إثبات وجود قانون النشوء والارتقاء على صعيد المخلوقات أيضاً . واقتضت هذه الضرورة توجّه أنظار علمائهم إلى هذا الصعيد . وبرز من بينهم العالم ( تشارلز دارون ) الذي جاء يرسخ فيهم النظرية الإلحادية ، وأعلن نظريته في النشوء والارتقاء التي واتت أهواء أهل عصره ، وسميت بإسمه ( النظرية الداروينية ) .

وقد ذكرنا قبل ذلك ما حدث من تطوّرات على الصعيد العلمي ، منذ أوائل القرن العشرين في أوروبة . ورأينا كيف أحدثت ( النظرية النسبيّة ) التي أعلنها ( اينشتاين ) عام ١٩٠٥ ، إلى جانب ما كان من ثورات علمية على مختلف الصُعُد كالفلك والفيزياء والأعصاب والنبات وغيرها ، رأينا كيف أحدثت هذه التّطورات العلمية انقلاباً جذرياً في نظرية أزلية المادة ، فانتهت إلى ظهور نظرية الإنفجار الكوني العظيم . هذه النظرية التي قلبت موازين النظريات الكونية السابقة . بل أدت أيضاً إلى خلخلة النظرية الداروينية ، وصدّعت عديداً من دعائمها ، والعلماء الأوروبيون المعاصرون ، بالرغم من هذا كله ، لم يذهبوا إلى الاعتقاد ببطلان قانون النشوء والارتقاء . عدا الكنيسة الكاثوليكية التي ما زالت ترفض نظرية دارون بكامل

أجزائها ، وتتمسّك بما قدّمته التوراة من كلام حول خلق العالم ، وهو كلام يناقض معطيات العلم من حيث مدلوله الظاهري . ولا يزال أرباب الكنيسة في أوروبة على جمودهم الفكري حتى هذه السنوات .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا ظل خال علماء أوروبة على ما علمناه ، وهم قد قطعوا من المراحل ما قطعوه ، على طريق الكشف العلمي ؟ .

الجواب يكمن في نظري دوماً في عدم التزام هؤلاء للنهج العقلاني الذي وضّحه الإسلام ونبّه عليه ، وهو ضرورة استعانتهم بوحي القرآن السّماوي لفهم موضوع خلق الكون ، فهماً ثاقباً دقيقاً صادق النّظر .

وصحيح أن المسلم العادي التفكير ، إذا جلس يتلو آيات كتاب الله تعالى ، فمرّ بقول الله تعالى في سورة البقرة /١١٧/ ﴿ **وقالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه ، بل له ما في السماوات والأرض ، كُلٌّ لهُ قانتون . بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ . أو مرّ بقوله تعالى في آل عمران /٤٧/ ﴿ **قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ، ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ . أو قوله تعالى من سورة النّحل /٤٠/ ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه ، أن نقول له ، كن فيكون** ﴾ . أو مرّ بقوله تعالى من سورة يٓس /٨١/ ﴿ **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاّق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون** ﴾ .

أقول ان المسلم العادي ، إذا تلا جميع هذه الآيات الكريمة ، ذهب ظنّه أوّل وهلة ، إلى أن قوله تعالى ﴿ **كن فيكون** ﴾ تعني أن الله تعالى خلق كل شيء خلقاً واحداً بواسع قدرته . ولم يذهب إلى أن هذا الكون قد تدرّج في الخلق من طور إلى طور ، كما تقول نظرية النشوء والارتقاء .

صحيح أن ذهن المسلم العادي يذهب إلى هذا النّحو ، إنّما تظلّ تراوده عن ذلك أسئلة تتوالى في ذهنه ، كلما أعاد تلاوة هذه الآيات الكريمة . فهو يظل يتساءل : كيف حملت مريم بعيسى عليهما السلام ، عجباً دون أن يمسّها بشر ، ولِمَ لَمْ يخلق عيسى ، كما خلق سواه من أبوين ، نفياً لكلّ شك أو ريب قد يقع فيه المتشككّون ، ولِمَ لم يخلقه فجأة عن غير حمل أمه إياه ؟ كما يتساءل عن وجه المماثلة بين خلق عيسى وخلق آدم . وما سّر قوله تعالى تارة ﴿ **إذا قضى أمراً** ﴾ ... وتارة ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه** ﴾ ... وتارة ثالثة ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ . فما الفارق بين أمر الله وقضائه وقوله ؟ .

وطبيعي حين تتجاذب المسلم العادي هذه الأسئلة ، ألاّ يدري لها جواباً شافياً ، فيكل أمره إلى ربّه ، ولا يقطع برأي جازم في موضوع خلق هذا الكون ، أتمّ مرّة واحدة ، أم مرّ بمراحل فخضع لقانون النشوء والارتقاء.ولا شك أنه سينتهي إلى أن هذا الخلق جميعه قد تحقّق عن طريق ﴿ **كن فيكون** ﴾ دون شرح أو توضيح .

وينبغي لنا ألاّ نلومه على ما انتهى إليه ، فنقول إنه خالف معطيات العلم . بل من واجبنا أن نعذره ، لأن هذا هو مدى تفكيره . وإلاّ لاستطاع أن يدرك ما أدركناه من هذه الآيات نحن المثقّفين .

وقد سبق أن وضّحت أن خالق هذا العقل ، راعى دور طفولة هذا العقل ، فخاطبه في دور طفولته برمز وإيجاز . فالمعلوم أن العقل بحاجة إلى أن يتزّود بشتى المعلومات من الأشياء ، ليتسنّى له إصدار أحكام سديدة . ولم تكن هذه المعلومات المطلوبة متوفّرة قبل أربعة عشر قرناً ، زمن إنزال القرآن المجيد . وكان لابّد من أن تمضي هذه القرون الأربعة عشر جميعها ، حتى تتوفّر للإنسان ما هو بحاجة إليه من المعلومات العلمية ، فيما يتعلّق بخلق الكون وتطورّه . وهذا هو السبب في أن هذه الآيات الكريمة التي أوردناها ، قد وردت بحيث توحي أوّل وهلة أنّ الكون قد خلقه الله دفعة واحدة . على أنه إذا راح المتدبّر لهذه الآيات يمعن نظره في ألفاظها ، وأسلوب

صياغتها ، وما انطوت عليه من إشـارات ، أخذ ذهنه يتّجه إلى الاعتقاد بكون هذا الكون قد خُلق عن طريق تطوّر طويل .

وإذا أوحت صيغـة ﴿ **كن فيكون** ﴾ في هذه الآيات ، بأنّ الخلق قد تمّ دفعة واحدة . فإن الصيغة نفسها تنبىء ، إذا ما أنعم الإنسان نظره فيها ، وربطها بما سبقها من كلام الله تعالى ، تنبيء بنتيجةٍ تخالف النتيجة الأولى ، بل تشير إلى أن الخلق قد تمّ عن طريق التكّوين والتطّور وفقاً لقانون النشوء والتطور .

ذلك أن ما تشف عنه هذه الآيات الكريمة ، يفيد غير ما أفادته أوّل وهلة ، وقد كان ذلك مراعاة لأفهام العباد زمن نزوله ، وتمهيداً لوعي من يلونهم ، لأن القرآن الكريم نزل لكل زمان ومكان ، وبأسلوب يمكن أن يفهمه العادي ، ويتدبّره المثقّف على السّواء .

فلنتنـاول معاً ما ورد في سورة آل عمران /٥٩/ وهو قوله تعالى : ﴿ **إنّ مثَلَ عيسى عند الله كمثَلَ آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون** ﴾ .ألفاظ هذه الآية جاءت عامة ومُجملة ، وغير مُفصّلة .

فلم يوضّح الله تعالى لنا :

١ ـــ وجه الشبّه الكائن ما بين عيسى وآدم ، بل دعانا أن نتبيّن ذلك .

٢ ـــ ونبّهنا إلى أمرٍ جليلٍ من خلال قوله ﴿ **خلقه من تراب** ﴾ .

٣ ـــ كما نبّهنا إلى أمرٍ آخر حين أتى بحرف ( ثم ) الذي يفيد الترتيب فقال ﴿ **ثم قال له كن** ﴾ . . .

٤ ـــ وجاء أخيراً بجمله ﴿ **كن فيكون** ﴾ ، ليدلُّنا من خلالها على قانون النشوء والتطور المسنون لخلق أي شيء من الأشياء .

فلنبحث الآن عن وجه الشبّـه ما بين خلق عيسى وآدم . هل هو في كونهما مخلوقين من تراب ؟ فإذا عرضنا لقوله تعالى من سورة الروم /٢٠/ ﴿ **ومن آياته أن**

**خلقكـم من تراب ، ثم إذا أنتم تنتشـرون** ﴾ . قوله تعـالى من سـورة فاطر /١١/ ﴿ **والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفةٍ ، ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ . وقوله تعالى من سورة غافر /٦٧/ : ﴿ **هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة** ﴾ . إذا عرضنا لهذه الآيات جميعها ، تجلّى من خلالها لأعيننا ، أن البشر جميعهم قد خلقوا من تُراب . ولذا فلا يمكن أن يكون هذا هو وجه الشبه ما بين خلق عيسى وآدم .

ونتساءل عن سّر قوله تعالى في الآية ﴿ **خلقه من تُراب** ﴾ ؟ نقول ما دام البشر جميعهم قد خلقهم ربّهم من ( تراب ) ، يكون لقوله ﴿ **خلقه من تراب** ﴾ في هذا الموضع دلالة مخصوصة . خصوصاً وأنّه تعالى قال هنا ﴿ **خلقه من تراب** ﴾ بصيغة الضمير المفرد . فلم يقل ﴿ **خلقهما من تراب** ﴾ .

وسواء أكان المقصود من الضمير عيسى أو آدم ، فالمقصود الحقيقي هو بيان مادّة خلق كلّ منهما ، وليس بيان وجه الشّبه الكائن بينهما . أي أن الله تعالى أراد أن ينفي عن عيسى كونه أعجوبة زمنه وذلك حين وضّح أن التراب هو مادة هذا المخلوق . ومـا دام جميع المخلوقـات ، قد خـلقهـم الله تعـالى من تراب ، فلا يُعدّ عيسـى من الأعاجيب .

وعلى ضـوء ما ذكرناه ، تتجـلّى لأعيننـا أيضـاً حكمة إيراده تعالى هنا لحرف الترتيب ( ثم ) في قوله ﴿ **ثم قال له ..** ﴾ . فقد نبّهنا من خلال هذا الحرف إلى أن خلق عيسى ، بعد أن أخذ أبعاده ، واكتمل ، وتأهّل عيسى لحمل رسالة ربّه ﴿ **قال له كن فيكون** ﴾ . وهذا على شاكله قوله تعالى ، فيما اختصّ باصطفائه آدم ، قال ﴿ **وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ .... فقد أشـار بقوله هذا إلى الاصطفاء . فمعنى ﴿ **ثم قال له كن** ﴾ .. أي أمره أن يكون رسولاً . وهذا هو سّر مجيء قوله ( كن ) دون بيان ما ينبغي أن يكون . لأنّ هذا الأمر ، يستطيع الإنسان فهمه من سياق الكلام . على هذه الصورة يكون تعالى قد وضّح لنا أنّ وجه الشّبه ما بين عيسى وآدم ، مُنحصرٌ في قوله ﴿ **كُن** ﴾ أي أن كليهما ، قد اصطفاهما ربّهما

لحمل رسـالته تعالى ، ولكن بأسلوب لا سابقة له . فقد كان آدم أوّل نبيّ من بني الإنسان . وقد كان عيسى أول نبي من دون أن يكون له أبٌ معلوم فهذا هو وجه الشّبـه بينهمـا . وقد يُعـترض هنا على قولي أن آدم هو أوّل نبيّ . وسيجد القارىء الجواب على تسـاؤله في كتابي ( خلق الإنسـان ) الذي سيصدر عما قريب انشـاء الله تعالى .

وقد أضاف جلّ شأنه أخيراً قوله ﴿ **فيكون** ﴾ . فابتدأه بفاء الاستئناف ، فجاء ﴿ **يكون** ﴾ على صيغة فعل المضارع ، تنبيهاً إلى أن العمل في الخلق والتكوين يتوالى وفقاً لقانون النشوء والتطور والارتقاء دوماً . وبألفاظ أخرى ، فلا تتّم عملية خلق الله تعالى لأي شيء من الأشياء دفعةً واحدة ، بل يخضع ما خلقه تعالى ، وكوّنه ، إلى قـانونٍ مسنـون ، وهو قـانون النشـوء والتطـور والنّمـاء . هذا ما دلّ عليـه فعـل ﴿ **فيكون** ﴾ أي فيتكّون عن طريق هذا القانون .

ومن هنا ، لابد أن نعلم أن الله تعالى ، حين تقتضي مشيئته خلق شيءٍ ما ، يخلقه أولاً في منتهى الدّقة والخفاء ، وعلى صورة تعجز أيّة قوة أخرى عن مماثلته . ثم يُتبع جل شـأنه ما يخلقه لقانون النشوء والارتقاء والنّماء ، حتى يصـل بهذا المخلوق إلى غاية المقصود .

لا شك أن هذه المعـلومة تسـاعدنا ، إلى حدّ كبير ، على فهم نظرية الانفجار العظيم التي يفخر بها علمـاء القرن العشرين . وقد ذهبوا إلى أنّ هذا العالم بعظمته وسعته ، وتعدّد كواكبه ومجرّاته ، ومخلوقاته ، إنما نشأ عن انفجار عظيم حدث لصبغيّة مادية كانت مضغوطة ضغطاً لا يتصوره الخيال ، وفي مكان ، لا يكاد يكون موجوداً لدّقتـه . وقد نشـأ عن هذا الإنفجـار العظيم جميع ما نلاحظـه في هذا الكون من موجودات .

وألفت النظر إلى مثال محسوس ، في مُتناول الأيدي ، لأبرهن به على ما ذكرته من أن الله تعالى يخلق أولاً خلقاً دقيقاً خفيّاً ، ثمّ يُتبعه لقانون النشوء والتطور والنماء ، هذا المثال ، هو هذه النطفة التي يتكوّن منها هذا الجنين .

فمن المعلوم أن الله تعالى خلق هذا الإنسان عن طريق هذه النّطفة . فما هو تركيب هذه النطفة ؟ تتألف نطفة المرأة منبُويضات لا تُرى إلا بالمجهر.وتتركّب نطفة الرجل من جسيمات منويّة تكاد لا ترى إلا بالمجهر أيضاً . فمن عمليّة تلاقُح البويضة والجسيم المنوي ، تبدأ عملية خلق الإنسان . أي يبدأ خلق الإنسان من تكوينٍ هو في مُنتهى الدقّة والخفاء ، بحيث لا تراه العين إلا بمساعدة المجهر . وهذه الدّقة ، وذاك الخفاء ، يعجز الإنسان مهما أوتي من علم وتقنيّة أن يكوّن بويضة أو جُسيم منوي على شاكلتهما . وتتوضّح معالم هذا العجز بأبعادها الحقيقية حين الكشف عن تركيب هذا التكوين الدقيق الخفيّ .

عودوا بأنظاركم إلى أي جنينٍ كان ، فتأمّلوه جيّداً ، تروه يتكّون من جملة عظام وشبكة أعصاب وشرايين وأوردة وكتلة لحمية لها قشرتها الخارجية بألوان مختلفة . ولهذا الجنين رأس وجسم ويدان ورجلان . وتنتهي هذه الأطراف بأظفار لها مهام محدّدة . وقد جُهّز هذا الجنين بأجهزه مختلفة من الحواس إلى قوة التفكير ، فضلاً عن ميول وأهواء ونوازع . فهل ثمة قوة يمكن أن تخلق كائناً كالجنين ، نواةً لإنسان متكامل متوازن ، تقزّم فيه أحشاءه وغدده والجلد والأعصاب والمخ والحواس والعضلات ؟ بل هل ثمة قوة يمكن أن تخلق من الخليّة الواحدة المُلقّحة تأكل جدار الرحم وتلوذ بتجويف داخله ، لتنقسم إلى خليتيّن ، فأربع ، فثماني ، ثم تتلاحم ليكون منها الجنين ، إلا أن تكون قوّةً خارقةً هاديةً مرشدةً ، هي قوة الله الخالق الخلاّق ؟ .

وأزيدكم إيضاحاً فأقول : أنتم تعلمون أنه إذا شاءت حكومة من الحكومات القيام بتمديد شبكة كهربائية ، في منطقة محدّدة لا تتجاوز عدّة كيلومترات ، وأرادت أن

تصل بهذه الشبكة الكهربائية كل منزلٍ قائم في منطقتها . فلا بُدّ أن تكون بحاجة إلى أسلاكٍ كهربائية بأطوال تتناسب وتحقيق هذا الهدف . إلى جانب حاجتها إلى أدواتٍ لربط هذه الأسلاك بعضها ببعض . كما تحتاج إلى خُبراء وأيدٍ عاملة . فإذا جُمعت جميع هذه العناصر ، تعود تقتضي أيضاً بناء مخازن ومستودعات ومكاتب ومديريات أيضاً .

وتأملوا الآن جسم الجنين ، تلاحظونه وقد جُهّز بشبكةٍأعصاب تتجاوز أطوالها الكيلو مترات . فتربط جميع أجزاء الجنين بمركز الدّماغ ربطاً مُنسّقاً مُحكماً ، وعلى صورة أدهشت عقول الأطباء غاية الدهشة . فكيف أمكن جَمْع هذه الشبكة بنظامها الذي علمناه ؟ كيف أمكن تقزيمها في الجنين إلى هذه الدرجة من الدقّة والخفاء ؟ .

ثم كيف أمكن تنميتها ، حتى أخذت هذا الشكل من جسم الجنين ، دون أيّ خلل يُصيبها ، أو نقص يعتريها ، فيعطّل عملها وفعاليّتها ؟ .

ثم لندع شبكة الأعصاب جانباً ، ولنتناول موضوع المورّثات والصبّغيات التي يحملها هذا الحيوان المنويّ . تُعَدُّ هذه المورثات والصبغيات بمثابة شيفرة ، هي في غاية الإبداع والدّقة . وقد حيّر كشفها جميع علماء الوراثة أيضاً . فهم اكتشفوا أن هذه الشيفرة للصّبغيات ، موجودة داخل جسم بويضة المرأة على شكلٍ لولبيّ ملفوفٍ ، وبطول /١٥٠/ مليون كيلومتر ، أي بما يعادل بُعد الأرض عن الشمس . فكيف جُمعت شبكة هذه الشيفرة إلى جانب شبكة الأعصاب ، إلى جانب شبكة الأوردة والشرايين ، إلى جانب بقيّة أجهزة الجسم ؟ كيف جُمعت هذه جميعها في جُسَيْمٍ لا يمكن أن يُرى إلاّ بالمجهر ؟ فهل يصدق العقل أن يتمكّن إنسانٌ إبداع مثل هذا الإبداع المُذهل ، مهما بلغ شأنه من التقدّم العلميّ ؟؟ وكان الله تعالى قد عنى هذا بقوله عزّ وجلّ في سورة آل عمران : ﴿ **إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء . هو يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾ .

إن إلّهنا الذي كوّن هذه النطفة على حسب ما ذكرناه ، وبهذه الدّقة ، وهذا الحذق ، قد خلق الإنسان أيضاً ، ومن هذه النطفة نفسها بالذات ، وعن طريق قانون

النشوء والتطور والنّماء . وهو نفسه الذي قال في بيان وإجمال ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تُراب ، ثم قال له كن فيكون** ﴾ . فكُنْ فيها الدلالة على الخلق الأولي ، ويكون فيها الدلالة على رضوخ هذا الخلق الأولي لقانون النشوء والتطّور والارتقاء .

أفرأيتم كيف تجاوز جلّ شأنه بقوله هذا جميع التفاصيل التي ذكرناها ، وكيف ترك لنا ضمن قوله هذا ركائز نستند إليها ، لفهم هذه التفصيلات . لتساعدنا على إدراك أن الله تعالى لا يخلُق خلقاً يمكن محاكاته فعلاً بل يخلق خلقاً بارعاً لا سبيل إلى محاكاته في الدّقة والخفاء . ثم يخضع هذا الخلق إلى قانون النشوء والارتقاء والنماء فيطّور الله تعالى ما كوّنه عن طريق هذا القانون ، لتحقيق الغاية من هذا التكوين .

وهكذا فإن المسلم المثقف ، إذا ما تناول الآيات الوارد فيها ﴿ **كن فيكون** ﴾ . إذا ما تناولها بالتدبّر والتدقيق . وإذا ما حاول فهمها على ضوء بقيّة آيات الذكر الحكيم ، مستعيناً بما كشف عنه العلم ، خلَصَ إلى أن الله تعالى لم يخلق الكون دفعة واحدة ، بل خلقه على قانون النشوء والإرتقاء .

إن هذا المسلم المثقف المفكّر يعود يفهم من ﴿ **كن** ﴾ دلالتها على مرحلة التكوين . ويفهم من ﴿ **فيكون** ﴾ دلالتها على مرحلة النشوء والارتقاء والنّماء . ولا يُرى أيّ تعارض بين قول الله وصُنعه . ولا يضرب آيات الله بعضها ببعضها الآخر . بل يفهم المجمل منها على ضوء ما جاء مُفصّلاً .

فإذا لفحت المسلم المثقف لوافح الشك ، وعُرضت عليه نظرية الإنفجار الكوني العظيم . فلا يستبعد صحّتها . لأنه أدرك من خلال تدبّره لكتاب الله القرآن ، أن أسلوب الله في قضّية الخلق ، تقوم على أنه إنما يخلق خلقاً على صورة هي في منتهى الدقة والخفاء ، ومن ثمّ الخلق أخضعه إلى قانون النشوء والارتقاء ، كما أوضحناه .

ولذا فلا يُعقل أن يرفض نظرية الإنفجار هذه ، لأنها ستزيده عجباً بقُدرات ربّه ، فيزداد إيماناً على إيمانه .

المهم من ذلك كله أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً أو عالماً نحريراً ، فإنه يجد في كتاب الله جواب السؤال المطروح عن النهج الذي خلق به هذا الكون : هل تمّ خلقه دفعةً واحدة ، أم خضع هذا الخلق لقانون النشوء والارتقاء . فالنظرية القرآنيـة الكونيـة لم تُغفل الإجابة عن هذا السؤال . بل أجابت عنه إجابةً صريحةً كافية ، مقنعةً للإفهام على مختلف المستويات .

لكن الملاحظ ، هو أنّ الله تعالى لم يتقدم بإجابته المذكورة على طريقة بعض الكتاب التقليدية ، فجّة ، جافة باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أجاب بطريقة وأسلوب هو في منتهى البراعة ، فكان خير أسلوب يمكن أن يتمّ به إدراك الجواب واستقراره في الأفهام ، متمكّناً من قلب المسلم وفكره . وأتى بهذا الجواب على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التّلقين . وبهذه الطريقـة أثبت تعالى في الأذهان خامس عنصر من عناصر النظرية القرآنيـة الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## السؤال السادس : ما مصير هذا العالم ، الفناء ، أم الخلود ، ومتى يفنى ؟

يبدو من الآثار التي خلّفها الإنسان القديم ، أن عقل الإنسان في غابر أزمانه ، لم يكن يتصوّر أن هذا الكون سيزول من الوجود في يوم من الأيّام . وقد نبّهنا إلى هذا ما نقله إلينا كتاب الله العظيم من أقوالهم ﴿ **أإذا متنا وكنّا تراباً ، ذلك رجع بعيد** ﴾ق /٣/ . فلم يكن الإنسان بقادر على تصوّر زوال عالمه ، وبعثه في حياة جديدة غير هذه الحياة .

ولقد استمّر عجز عقل الإنسان عن وعي هذا الأمر ، حتى ظهور الدين الإسلامي . فمن رجع إلى التوراة والإنجيل ، لم يلاحظ فيهما أي تركيز واضح على موضوع زوال هذا العالم ، وظهور عالم الآخرة .

وقد ذكرنا أن علماء القرن التاسع عشر في أوروبة ، قد قالوا بأزلية المادة وأبديّتها ، ولم يروا لهذا الكون من نهاية أو زوال . ولهذا السبب نفسه لم يجرؤ فلاسفتهم على مخالفة آراء علماء الطبيعة،فلاذوا بالإلحاد والجحود بوجود الله والآخرة ، وجعلوا من ذلك فلسفة لهم . وأخذوا يعرضون فلسفتهم هذه بأشكال وألوان مختلفة . وكان اختلافهم في إثبات ذلك ، دليلاً على خطئهم جميعاً .

من هذا تدركون أن الفكر الفلسفي الأوروبي قد واجه قبل منتصف القرن العشرين ، وبسببٍ من مادية علماء المادة ، أزمة عميقة صعبة . إذ لم يجرؤ فيلسوف منهم على نقض معطيات علم تلك الحُقبة من الزمان . اتجهوا اتجاهاً مادياً وجودياً .

فهذا الفيلسوف ( ديكارت ) الفرنسي ١٥٩٦ ـــ ١٦٥٠ ، فقد شبّه الكون بالآلة المرتبطة بعضها ببعض ، برباط العلة والمعلول ، من دون تدخّل عقلٍ مُطلقٍ أو توجيهٍ منه عز وجل . فلم يُعط العنصر الروحي في فلسفته قيمةً ما . وكان توجّهه وجودياً . لذلك قرأنا مقولته المشهورة ( أنا أفكّر إذن أنا موجود ) وحسب . وتأتت فلسفته الوجودية عن دهشته لاختراع الآلة وتقدّم علم الريّاضيات .

وهذا الفيلسوف الألماني ( كانت ) ١٧٢٤ ـــ ١٨٠٤ ، فقد ذهب إلى ما ذهب إليه ( ديكارت ) في فلسفته ، بل مضى إلى أبعد منها ، إذ جاءت فلسفته مادية علمية . هذا بالرغم من أنه زعم أنه حاول انقاذ العقل والعلم والأخلاق والدّين من الغَرقَ . ولو كان صادقاً فيما ذهب إليه ، لَما سكت عن المذهب الميكانيكي الوجودي ، لا يرفع صوتاً بمخالفته أو التنديد به . أجل أن كل ما فعله ( كانت ) هو قوله بأن العقل لا يأتي عن العالم الحسّي المشهود ، وأن العقل هو الذي يجمع بين قوانين المنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية في عالم التجربة . في وقت لا يخضع هو نفسه لهذه القوانين . لأنه ، على زعمه ، يأتي من عالم غير حسّي وغير مرئّي .

وبامكاننا أن نجزم بأن فلاسفة أوروبة ، فيما قبل النصف الثاني من القرن العشرين ، قد وطئوا مواقع أقدام الفيلسوفين ( ديكارت ) و( كانت ) ، وطبعوا على

غرارهم ، فكانت أسس فلسفاتهم ، هي أسس فلسفة التحليل الميكانيكي الوجودي . ولم يكن الفيلسوف الألماني هيجل ( ١٧٧٠ ـــ ١٨٣١ ) بمنآى عن ذلك ، بل اتخذ من فلسفاتهم نهجاً مثاليّاً وحسب . ثم ظهر من بعد هيجل الفيلسوفان ( فويرباخ ) ١٨٠٤ ـــ ١٨٧٢ ، و( بوخنر ) ١٨٢٤ ـــ ١٨٦٩ وأمثالهما ، ممّن اتّجهوا بالفلسفة إلى المادية الحتمية ، التي تردّ كل شيء إلى العلة والمعلول ، فتنفي وجود المصادفة كل النفي . وكانت فلسفة ( نيتشه ) ١٨٤٤ ـــ ١٩٠٠ ، أقل شأناً من فلسفاتهم ، لكنه تميّز بطلبه مراجعة جميع القيم وتقديس الإنسان . على أن علينا أن نظّل مُدركين أن جميع هؤلاء الفلاسفة الذين ذكرناهم ، لم يستطيعوا التمرّد على فلسفة ( كانت ) القائلة بعدم إمكان نفاذ العقل إلى مشكلات ما وراء الطبيعة . وبكلمة مختصرة يصّح أن نقول أن خطأ هؤلاء جميعاً ، يكمن في عدم انتهاجهم النهج العقلاني الذي جاء به القرآن الكريم . واغفالهم حاجة العقل إلى مساعدة الوحي الإلهي ، في نطاق ما وراء الطبيعة ، ومُضّيهم في طريقهم الشائك الذي لا يهدي إلى الحق .

والخلاصة هي أن الفلسفة المثالية والوجودية والمادية التجريبية ظلّت تمثل تيار فلسفة ما قبل منتصف القرن العشرين .

وما لبثت أن ظهرت النظرية النسبيّة . وحدثت ثورات علمية على مختلف الصُعد ، فزلزلت هذه الأحداث جميع النظريات الفسلفية التي أتينا على ذكرها ، زلزالاً عظيماً . حتى اعتُبرت بداية القرن العشرين ، بداية نهاية تلك الفلسفات ، في نظر العالم ، وفي نظر علماء أوروبة أنفسهم . فلم يَعُد ( لنيوتن ) وقوانينه ، مكان بين أهله وأقرانه ، بل تشكّك الأوروبيون في عددٍ من النتائج التي كانوا ينظرون إليها ، على أنها صحيحة صحّةً مطلقة وقد آلت هذه النتائج إلى ما عرفناه من نظرية النسبية وقوانين فيزياء الكمّ التي أخرجها العالم الألماني ( بلانك ) ١٨٥٨ ـــ ١٩٤٧ ، والتي أغنت علم الفيزياء . وبعد الاكتشافات العلمية الأخرى ، في مختلف العلوم التي أتينا على ذكرها ، والتي انتهت بظهور نظرية الإنفجار العظيم .

ففي الوقت الذي كان ( نيوتن ) ينظر إلى الذّرة على أنها أبسط جزيء مادّي ، تبيّن أن الذّرة أعقد ممّا تصوّره بكثير . إذ أثبت العلم أن تركيبها في غاية التعقيد .

وقد كان في هذا انقلاب عظيم ترك آثاره على الفلسفة المادية الحتميّة والوجودية الميكانيكية ، والمذهب التجريبي . حتى رأينا العالم ( هنري بوانكاريه ) ١٨٥٣ ـــ ١٩١٢م في كتابه ( العلم والافتراض ) الذي أصدره عام ١٩٠٢ ، يذهب إلى القول عن العلم نفسه ، والنظريات العلمية نفسها أيضاً ، من أنها « لا هي بالصحيحة ولا هي بالكاذبة ، وإنما هي مفيدة وحسب » .

وإننا لنلاحظ أن المفكّرين الأوروبين في أواخر القرن العشرين ، قد ذهبوا إلى القول بأن مفاهيم علم الفيزياء وما يمتّ إليه ، لا يمكن قبولها دون ربطها بتحليل فلسفي . كما راحوا ينظرون إلى أفكار ( ديكارت ) على أنها أفكار ساذجة .

وبهذه الصورة ، ونتيجة للأسباب التي ذكرناها ، أفاق الفكر الأوروبي من سُباته الذي استسلم إليه بظهور الآلة والتطّور التقنّي الكبير . ومع إفاقة هذا الفكر الأوروبي ، راح يسلّم بما يذهب إليه القرآن الكريم من أنّ هذا العالم سيؤول إلى الزوال في نهاية المطاف .

ونستخلص من جميع ما ذكرناه أن أوروبة قد ظلّت تتخبّط في دياجير الظلمات منذ زمن ( ديكارت ) ، أي أنها احتاجت إلى قُرابة ثلاثة قرون أو أكثر ، حتى أمكنها الوصول للتسليم بأن عالمنا آيل إلى الزوال في يوم من الآيام . ولو أن مفكّريها انتهجوا النهج العقلاني الذي جاء به القرآن المجيد أي التسليم بضرورة الاستعانة في موضوع الغيبيّات بوحي السّماء ، تمكيناً للعقل من القطع بأحكام لا تعترض فيها شبهة أو يعتريها شك ، وهم لو انتهجوا هذا النهج ، لوفّروا على أنفسهم ثلاثة قرون ، أمضوها في الحيرة ومعاناة البحث لينتهوا أخيراً إلى أن الكون آيلٌ إلى الزوال .

ولنأت الآن صوب المسلم العادي ، ولنُصغ إليه وهو يتلو من سورة الأعراف /١٨٠ ـــ ١٨٨/ ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في**

**أسمائه ، سيُجزون ما كانوا يعملون . وممّن خلقنا أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنّ كيدي متين . أو لم يتفكروا ما بصاحبكم من جنّة ، إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديثٍ بعده يؤمنون . من يضلل الله فلا هادي له ، ويذرُهم في طغيانهم يعمهون ، يسألونك عن السّاعة أيّان مُرساها ، قل إنما علمها عند ربّي ، لا يجليّها لوقتها إلا هو ، ثَقُلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ، إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير ، وما مسّني السّوء ، إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ .**

والمسلم العادي إذا تلا هذه الآيات الكريمة خاشعاً ، ثم تلقّى السؤال الذي نحن بصدده ، أجابنا من قوره أن الله تعالى لم يُعط علم الساعة وعلم زوال هذا العالم إلى أحد من الناس ، ولو كان رسولاً من رسله الكرام . هذا ما يكون قد استقرّ في فهمه من قوله تعالى ﴿ **يسألونك عن السّاعة أيّان مُرساها ، قل إنما علمها عند ربّي ، لا يجليّها لوقتها إلا هو ، ثَقُلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ .

وبألفاظ أخرى ، لابد أن ينطوي كلام هذا المسلم العادي على جوابٍ كاملٍ لشطري السؤال الذي طرحناه. فهو يقول انّ هذا العالم آيل إلى الزوال من جهة ، وأن الله تعالى لم يعط أحداً علم الساعة التي يتمّ بها زوال هذا العالم لأي إنسان . ذلك أنها ستأتي بغتةً دون سابق إنذار .

يجيبنا هذا المسلم العادي هذه الإجابة ، بكل بساطة ، ودون تكلّف قد يُلابسه لو كان مُطلّعاً على النظريات الكونية المعاصرة .

وإننا إذ نسمع منه هذه الإجابة ، ندرك أنه إنما استمّد إجابته ، من الآيات التي تلاها ، لانتهاجه النهج العقلاني الذي جاء به القرآن المجيد ، فاعتمد وحي السّماء

مصدراً للكشف عن الأمور الغيبية ــ وتكون هذه الإجابة مطابقة لأحدث النظريات الكونية المعاصرة ، بالرغم من تجاوز هذه النظريات لمدى تفكيره ومحاكاته .

فإذا كان على قدر كافٍ من الثقافة ، فلابُدّ له ، حين يُعاود تلاوة الآيات المذكورة من سورة الأعراف أن يرجع إلى المعاجم ، لفهم بعض ألفاظها ، ليجد أن ﴿ **يُلحدون** ﴾ تعني يمارون ويجادلون . وأنّ ( جُنّة ) تعني فساد العقل وزواله . وأن ( أيّان ) هي ظرف زمان بمعنى ــ أيّ حين ــ يُسأل به عن الزمان المستقبل ، ولا يستعمل إلا فيما يُراد تفخيم أمره وتعظيم شأنه . و( ثَقُل ) ضد خفّ ، معناه تباطأ واستأنى . و( بغتةً ) تعني فجأة دون سابق انذار . و﴿ **حفيٌّ عنها** ﴾ تعني أنه مهمٌّ بها ، مُكثِرٌ من السؤال عن حالها .

ثم يعاود تلاوة هذه الآيات الكريمة فتساعده على الإحاطة بما تنطوي عليه من الحِكم والدلالات ، ومن الحجج والبّينات ، فيدرك :

١ ــ حكمة استعماله تعالى لظرف الزمان ( أيّان ) في قوله تعالى ﴿ **يسألونك عن السّاعة أيّان مُرساها** ﴾ ... فقد أتى به تعالى تنبيهاً للعقول إلى أهمية الموضوع المُستفسر عنه ، وأنه بالغ الخفاء .

٢ ــ ويدرك من قوله تعالى ﴿ **قل إنما علمها عند ربي** ﴾ أن علم الإنسان مهما بلغ شأواً من الرقي والعُمق ، فلن يصل إلى مرحلة يستطيع بها أن يجزم في أمر زوال هذا الكون الواسع الرّحب . فلابُدّ أن تظل آراؤه ومعلوماته في حدود النظريات والتقديرات والفرضيات . كما يدرك في الوقت نفسه أن صيغة ﴿ **عند ربّي** ﴾ تحمل في طيّاتها دليلاً عقلياً قاطعاً ، على هذا الاستنتاج ، من أن العالم خاضع لقانون النشوء والارتقاء .

٣ ــ ويدرك من خلال قوله تعالى ﴿ **لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو** ﴾ أنه لا يستطيع أن يكشف عن علامات حلول الساعة ، أي زوال هذا الكون ، إلاّ الله عز وجلّ نفسه . وستبقي خفيّة على أهل السماوات والأرض إلى وقت حلولها .

٤ — وعندما يبلغ في تلاوته ، قوله تعالى ﴿ **ثَقُلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ .. يدهش لدلالات هذه الألفاظ على المستوى العلمي .

فكلمة ( ثقُلت ) تفيد معنى ثقل أمر الساعة ووقعها على كل شيء في السماوات والأرض ، لهولها ، وفي ذلك إشارة إلى حكمة إخفائها . كما تعني أنه ثَقُل علم الساعة على هؤلاء جميعاً ، فامتنع عليهم أن يدركوه .

وكلمة ﴿ **بغتةً** ﴾ بمعنى فجأة ، تذكّر هذا المسلم المثقف المفكّر بقول الفلكي ( روبرت جاسترو ) المتعلّق بموضوع الإنفجار العظيم الذي نشأ عنه هذا الكون . فقد قال هذا العالم أنّ « سلسلة الحوادث التي أدّت إلى ظهور الإنسان ، بدأت فجأة ، وبِعُنْفٍ في لحظة محدودة من الزمن ، وفي ومضة ضوء وطاقة » . ويضيف إلى هذا القول ما جاءت به نظرية ( نوسان الكون ) المتعلقة بالانكماش العظيم . والتي مؤدّاها أن شدّ الجاذبية التي تحتويها المادة ، في مختلف أشكالها ، ستوقف يوماً ما التّمدد الحالي للكون ، بل تعكسه . ويحدث من جرّاء ذلك انهيار جميع المادة ، أي انكماشها وعودتها إلى حالها الأولى . لذلك سمّى هذا المصير بالانكماش العظيم . ففي قوله تعالى ﴿ **لا تأتيكم إلاّ بغتة** ﴾ الإشارة إلى مضامين هذه النظريات الكونية .

فإذا ما تابع قوله تعالى ﴿ **يسألونك كأنّك حفيّ عَنْها** ﴾ .. بمعنى كأنك تكثر السؤال عنها ، يدرك ضرورة ألاّ يضيع الإنسان عُمُره في بحث مثل هذه الأمور الخفيّة التي حصر جلّ شأنه علمها بذاته عز وجل . ويدرك بذلك دلالة قوله تعالى ﴿ **قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ . ففيها إشارة إلى هؤلاء الأوروبيين خاصة .

وإذا تابع المسلم المثقف تلاوة قوله تعالى ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ، إلا ما شاء الله** ﴾ .. يدرك منه اعتراف الرسول أنه يجهل من أمر الساعة ما يجهلون ، فلا يملك من أمر الغيب شيئاً ، وإنما يعلم سّر الغيب خالقه . والدليل على ذلك ما جاء

على لسان رسوله الكريم ﴿ **لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السّوء** ﴾ .

فلما ينتهي إلى قوله تعالى ﴿ **إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ .. يدرك أنه ليس من مستلزمات رسالة محمد رسول الله ﷺ أن يحيط علماً بالسّاعة ، وساعة وقوعها ، فليس الرسول إلا ﴿ **نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ أي للذين يلبّون صوت السّماء .

والآن يمكن تلخيص هذه الأمور التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة بالأمور التالية :

١ ــ إن ما يجري يوم تقوم الساعة ، سيعّم السماوات والأرض جميعاً .

٢ ــ وأن سّر قيام الساعة سيبقى خافياً على الإنسان ، لا يستطيع الكشف عنه إلى يوم قيامها .

٣ ــ أن ما سيجري يوم قيام الساعة من الأحداث الجسام ، سيُجهز على كل ما كان قائماً .

٤ ــ وأن قيام الساعة سيكون مفاجئاً للإنسان ، لا يعلمه إلاّ في حينه .

٥ ــ ليس من شأن الإنسان أن يستوضح عن موعد قيام الساعة .

٦ ــ وأن علم الساعة لا يحيط به إلاّ الله عز وجلّ .

٧ ــ وان بحث الإنسان موضوع الساعة ، فليبحث منه ما فيه فائدته بعيداً عن مضّرته .

٨ ــ وأن مهمة رسالة رسول الله وسائر الرسل ، التبشير بالدعوة ، والإنذار والتحذير من معارضتها .

ونعود فنقول إنه إذا عرض للمسلم المثقّف أي شكّ في صحّة النظريات الكونية المعاصرة ، كنظرية الإنفجار العظيم ، ونظرية الانكماش العظيم مثلاً ، وقابل بينها وبين

ما انطوت عليه آيات الذكر الحكيم ، زال شكه وثبت يقينه بهذه النظريات ، فهي وإن لم تفِ بما وَفَت به الآيات القرآنية ، فإنّها ستزيده إيماناً على كل حال .

والمهم من ذلك كله ، هو أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواءً أكان هذا المتدبّر مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، يجد في آياته الكريمة جواب السؤال المطروح ، فيما تعلّق بأمر زوال هذا الكون وتوقيته . ويدرك في نهاية مطافه ، أن النظرية القرآنية الكونية لم تُغفل الإجابة عن هذا السؤال المطروح . بل أجابت عنه إجابة صريحة وكافية ، توائم مختلف مستويات الفهم والإدراك .

والملاحظ أيضاً هو أن الله تعالى ما تقدّم بإجابته على طريقة بعض الكُتّاب التقليديين ، فجّة ، جافة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بها سهلة المورد ، سائغة سلسلة ، وبمنتهى البراعة والبلاغةالمؤثرة تأثيراً نفسيّاً جذّاباً . وأتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المُعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلّقين . وبهذه الطريقة أثبت في الأذهان سادس عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## السؤال السّابع : وماذا بعد زوال هذا الكون ؟

لم يكن الإنسان القديم يفهم للحياة فلسفة معيّنة . لذلك يبدو من لُقىٰ الحفائر الأثرية أن تصرّفات الإنسان القديم لا تدل على اعتقاده فلسفة واضحة للحياة ، فيما يختص بالسؤال المطروح . ولم يكن لديه صورة واضحة المعالم عن ذلك السؤال . وظلّ هذا الأمر غامضاً على الإنسان ، حتى ظهور الإسلام .

ومن المعروف أنّ أوروبة كانت حين ظهر الإسلام غارقة في سبات عميق ، في الحُقبة التي أطلق عليه المؤرخون « القرون الوسطى » فقد سيطرت المفاهيم الكنسيّة عامة على عقول الشعوب الأوروبية خلال تلك الحقبة الزمنية ، مما ساعد على بقاء هذه الشعوب في ظلام دامس . إذ كانت المفاهيم الكنسية هذه ترتكز إلى ما أسموه بالكتاب

المقدس المؤلف من التوراة والأناجيل . هذا الكتاب الذي لا يمثل تعاليم موسى وعيسى حقّ التّمثيل . لأن مضامينه صيغت ارتكازاً إلى ما كان يرويه رجال الدين اعتماداً على الذاكرة . وهي تختلف عما أنزل على موسى وعيسى ولا تمت إليه بصلة يقينيّة ، مما لا مجال للخوض فيه في هذا المقام . وكل ما نستطيع قوله هنا هو أن هذا الكتاب المقدس ، الذي لا يزال مُعتقد الكنيسة ، لا يجد الباحث فيه إجابة واضحة عن السؤال المطروح .

فلما اخترعت الآلة البخارية ، وبدأ عصر النهضة الصناعية ، وتمّرد العلماء والمثقّفون على معتقدات هذه الكنيسة وتعاليمها . لم تسنح لهؤلاء فرصة النّظر إلى القرآن المجيد بمنظار الباحث المحايد . أضف إلى ذلك أنّ بريق المال الذي كان بين أيديهم ، بنتيجة هيمنتهم التجارية على أصقاع العالم ، تند أعماهم عن تفهّم الحقائق الكونية التي جاء بها القرآن المجيد .

وقد سبق أن أوضحت أن علماء أوروبة اتّجهوا اتّجاهاً ماديّاً وجودياً ميكانيكياً ، فاعتقدوا أزلية المادة وأبديتها . متفاخرين متباهين ، ضاربين عَرْض الحائط بكل ما عداه . وكيف لا يهجرون كل رأي مخالف لآرائهم ، وهم الذين نفوا وجود العنصر الروحي في هذا الوجود . ونظروا إلى الإنسان على أنه مادة وحسب . وتمثّلوا ذلك في النظرية الداروينية . بل وظنوا العقل نفسه ، إنما هو ظاهرة تفاعلات فيزيائية وكيميائية . فأنّى لمثقّفي أوروبة ، وهذه حالهم في القرن التاسع عشر وما قبله ، أن يفكّروا في موضوع زوال هذا العالم ، بلْ أن يفكّروا فيما بعد زوال هذا الكون ؟ .

أجل إن أهل أوروبة اليوم ، وقد فاجأتهم نظرية النسبيّة والثورات العلمية ، ونظرية الإنفجار الكوني العظيم الأخيرة . أخذوا يُعيدون حساباتهم ، ويسفّهون فلسفات من تقدّموهم ، حين تراءى لهم بصيصٌ من نور كشف لهم زيف ما ذهب إليه أسلافهم ، وباتوا يرون أن العالم آيل إلى الزوال . لكنهم لا يزالون يخشون أن

يكونوا قد أخطؤوا الطريق ثانية ، فقد لاحظ علماؤهم أنهم ، وفلاسفتهم ، إنما غدوا يصيغون أفكارهم ونظرياتهم وفقاً للمعطيات الجديدة . فلا يؤمل على هذا أن نسمع من جانب أوروبة في هذه الفترة إجابة صريحة عن السؤال المطروح عما يكون بعد زوال هذا العالم ؟ .

ويجدر بنا أن نتساءل في هذا المقام عن السبب الحقيقي الذي آل بالأوربيين إلى أن يضربوا في أودية الظلام ، ويأخذوا في شعاب الظنّ ، بالرغم من تقدّمها العلمي والتكنولوجي والحضاري ؟ .

والجواب في نظري يكمن دوماً ، في عدم التزام هؤلاء للنهج العقلاني الذي وضّحه لنا الإسلام . وهو ضرورة استعانة العقل بالوحي السماوي ، فيما يتعلّق بالغيبيّات وما وراء الطبيعة .

فإذا تلا المسلم العادي من سورة المؤمنون قوله تعالى /١٠٠/ ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال ربّ ارجعون . لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلاّ إنّها كلمة هو قائلُها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون . فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه ، فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النّار ، وهم فيها كالحون** ﴾ .

أقول إذا تلا المسلم العادي هذه الآيات الكريمة ، عاد بعد تلاوتها مؤمناً بوجود حياة أخرى وراء حياتنا الدّنيا ، هي حياة عالم البرزخ . وأدرك بذلك جواب السؤال المطروح وهو أن انتهاء هذا العالم معناه انتهاء مرحلة الخلق الراهن ، لا انتهاء الحياة بجميع أشكالها . فحياة البرزخ إنما تقوم فيما وراء هذا العالم المادي .

فهذا جواب عفوي يدركه هذا المسلم العادي ، وهكذا يكون قد ألّم بحدسه وفطرته ما يدركه المثقف بعد إنعام النظر في الفلسفة الكونية البعيدة المرتكزات .

والحقيقة هي أن عالمنا الدنيوي وما يحويه ، إن هو إلاّ ظاهرة خلق إلهيّة أبدعها **الله** الخلاّق . بمعنى أنها مرحلة خلق ستنتهي بانتهاء هذا العالم . ويكون الله تعالى حينذاك **قد** حقّق مقصده من خلق الإنسان الذي قدّره من قبل تقديراً . وعالم البرزخ لابد لكل نفس أن تعبره بعد اجتيازها عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .

فلئن كان المسلم العادي غير قادر على فهم هذه الحقيقة بأغوارها ، وغير قادر على تصوّرها بأبعادها . فإنّ المسلم المثقّف يتجاوز مرحلة التفكير هذه ، إلى أسرار هذه الحقيقة القرآنية الكونية التي جاء بها الإسلام ، والكشف عنها .

فإذا تلا المسلم المثقف الآية التي ذكرناها ، وقد جاء فيها قوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون** ﴾ ، فلا بدّ أن يتدبّر كتاب الله تعالى ، منّقباً باحثاً عن كل ما يتعلق بالبرزخ وموضوعه . وإذا بلغ في تلاوته سورة الزمر /٤٥/ قوله تعالى ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمّىً ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون . أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أو لَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ، ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه تُرجعون** ﴾ .

أقول ما إن يفرغ من تلاوته لهذه الآيات الكريمة ، حتى تتبيّن لعينيه من خلالها الحقائق التالية :

١ ــ تدخل كل نفس بشرية عالم البرزخ يومياً ، وتعود منه حين الاستيقاظ من نومها .

٢ ــ ويكون عالم البرزخ هو العالم الذي يلي هذه الحياة الدنيا . يفصل بينها وبين يوم النّشور .

٣ ــ وكانت النفس البشرية هي الهدف من خلق المادة ، والمادة مجرّد أداة .

٤ ــ وإن المادة ، في حقيقتها ، إنما خلقت لمرحلة محدودة ، وهي آيلة إلى الزوال في يوم من الآيام ، بعد أدائها لمهمتها .

٥ ــ ويعني قوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون** ﴾ أن جميع هذه الأمور فيها كل الدلالات للمتفكرين على عظمة خلق الله لهذه النفس البشرية من هذه المادة ، وكيفية تعلّق الأرواح بالأبدان وتوفيّها عنها كلية حين الموت وإمساكها باقية حين النّوم .

٦ ــ وقد نبّه جل شأنه من خلال قوله تعالى ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أو لَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ، ولا يعقلون** ﴾ ؟ إلى أن من أبسط ضروريات الوسطاء أن يكونوا يملكون القدرة على القيام بالوساطة ، وأن يكونوا مكتملي العقول .

٧ ــ وعلى هذا الأساس يحصر امكانية الشفاعة في نفسه تعالى بقوله ﴿ **قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه تُرجعون** ﴾ .

وهكذا يدرك المثقف أن كل نفس بشرية تدخل كل يوم عالم البرزخ الحاجز بين اليقظة والنوم . وذلك من خلال قوله تعالى ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمّىٰ** ﴾ ، أي يردّ الأخرى إلى يقظتها ، لتستمّر في الحياة الدنيا إلى انقضاء أجلها المُسمّىٰ . ويتبيّن الفارق جلياً بين وفاة النوم ووفاة الموت ، يتراخي حواس الجسد وقواه في وفاة النوم ، ويضعف سلطان النفس على الجسد ، وتعطّل هذه الحواس والقوى تعطّلاً تاماً في وفاة الموت وانقباض النفس عن الجسد . وتخلد النفس في الحالتين ، وإنما يمسكها الله في النّوم ويردها في اليقظة ، ويقبضها في الموت لتُجزى بما فعلت يوم تقوم الساعة .

ويلاحظ المرء العلاقة الجدلية ما بين جسد الإنسان وجبلّته الباطنة . وهذه ملاحظة علمية ، يمكن التعبير عنها بمعادلة جبرية رياضية . تتلخّص بأن جبلة الإنسان

**الباطنة** تتناسب عكسياً مع وضع جسده . فالذي يُلاحظ في حالة النوم أن الجسد إذا بلغ في تراخيه نقطة الصّفر ، بلغت جبلّته الباطنة أوج نشاطها ، في مقابلة بلوغ الجسد تمام تراخيه . ويستنتج المرء من هذه المعادلة ، أنه إذا طرأ على الجسد ما نسميه حالة الموت ، فمن المحتّم بقاء هذه الجبلة الباطنة للإنسان ، والتي اختار لها القرآن الكريم اصطلاح الفطرة ، واصطلاح النّفس . أقول من المحتّم بقاؤها نابضةً بالحياة في حالة الموت ، وهي هذه النفس التي لوحظت في حالة المنام . أي يمكن القول بألفاظ أخرى إن النفس تكون قد دخلت عالم البرزخ وبقيت تنبض فيه بالحياة . كما يمكن القول على ضوء هذه المعادلة إن النفس البشرية تظل خالدة ، بينما يؤول جسدها إلى التراب الذي خلقت منه .

وهذا الأمر الذي انتهينا إليه ، إن دلّ على شيء ، فإنّما يدلّ على أن التكوين الذري للمادة ، الذي تألف منه جسد الإنسان ، إنما هو مجرّد أداة ، أبدعها الخالق البارىء ، ليبدع منه خلق النفس البشرية ليس إلاّ فالمادة من هذه الجهة مرحليّة غير دائمة ، فهي لا تحمل صفة الأبدية . وإلى هذا أشار تعالى في قوله من سورة الزمر /٦٦ ﴿ **وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويّات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ أي أن هذه النفوس وهذه المادة التي تألفت منها الأرض والسماوات ستكون مطويات بيمينه يوم القيامة ويكون أهل الأرض في قبضته ، فتنزّه الله عما يشركون . فهذه المادة المنتشرة اليوم على هيئة مجموعات شمسية وكواكب وسيّارات ومجرّات ، ومنها أرضنا ، ستُطوى في يوم من الأيام لقوله تعالى ﴿ **يوم نطوي السماء كطيّ السّجل للكتب** ﴾ وبذلك تكون نظرية الانكماش العظيم ، التي ذهب إليها بعض علماء أوروبة قد جاءت مؤيدة لصّحة هذه الدلالات القرآنية العظيمة .

وسؤال آخر يطرح نفسه ، هو هل تبعث النفس البشرية بجسدها الترابي المعروف ؟ أم تُبعث في جسد آخر ، وماهية أخرى غير هذه المادة ؟ .

نقول لقد أدركنا أن عالم المادة مرحليّ ، فلن تعود تُبعث الأنفس عن طريقه . ودليلنا أن الذرة الواحدة المادية ، التي تحملها أجسادنا ، ليست بذّرة جديدة ، بل هي نفس الذّرة التي تخلّلت أجساد مَن قبلنا . فقد كانت تعود في السابق تُراباً ، واليوم تعود تراباً . فهي نفس الذرة في جميع أطوار الجنس البشري . فالذرة المادية تظهر تارة في جسم تفّاحة ، وتارة في جسم خضراء من الخضراوات ، كما تبدو تارة على شكل خليّة في أحد الحيوانات ، أو داخل جسم الإنسان .

على هذه الصورة لا تزداد أحجام المادة نفسها ، وهي النّواة لتكوين أجساد بشر لا يُعدّون ولا يُحصون . فإذا ضربنا عدد الأفراد بأوزانها ، زادت أضعافاً على زنة الكرة الأرضية . وإذا ضربنا عدد الأفراد بأحجامها أيضاً ، زادت أضعافاً على حجم الكرة الأرضية . فإذا شاء الله تعالى بعث هذه الأعداد الهائلة من البشر بأجساد من الكرة الأرضية ، فلا يكفي تراب الكرة الأرضية لهذا الغرض . بل لا يتّسع سطح الكرة الأرضية لهذه الأعداد التي لا تُحصى من بني الإنسان . فالأنفس التي ستبعث ، لن تجد ما يقابلها كمّاً وحجماً من الذرات المادية ، وهذا دليل عقلي علمي يدعونا إلى التّحول عن رأي من يزعم أن الأنفس البشرية ستبعث بأجسادها الترابيّة .

أضف إلى ذلك أنه قد أثبت العلم أن جسد الإنسان يتجدّد كل سنتين أو ثلاث سنوات . وهكذا فمن بلغ من العمر مائة عام ، يكون قد أبلى أربعين أو خمسين جسداً ترابياً . فبأي جسد من هذه سيُبعث صاحب هذه الأجساد ، إن صحّ زعم هؤلاء ؟ .

فالمسلم المثقّف ، لا يفسّر كتاب الله تعالى ، إلا على ضوء ما يقتضيه العلم ، ويقرّه العقل . وليس بنا حاجة للإدلاء بالنصوص القرآنية المؤيدة لما ذهبنا إليه .

تعترض هذه الأسئلة المسلم المثقف ، فيجد لها هذه الأجوبة التي قدّمناها . وهذه المعلومات والحقائق التي لا زالت أوروبة متخلّفة عنها ، فلم تدْنُ منها .

ونحن لا نُنكر أن علماء أوروبة ، في النصف الثاني للقرن العشرين ، قد راحوا يخالفون أسلافهم في نظرتهم إلى المادة ، وأنّهم قرّروا وجود عنصرٍ روحي فيها ، وانتهوا

إلى أن عمر هذا الكون لا يتجاوز عشرين مليار عام من الأعوام ، وأنّه آيل إلى الزوال أيضاً . وقد تراءى لبعضهم آيات من الخلق تثبت وجود صانع وخالق لهذا الكون ، فذهبوا إلى تسميته بالعقل المطلق والمبدع الأعظم ، وذلك من خلال ما لاحظوه من أنّ الضرورة والمصادفة لا تفسّران هذا الإبداع الذي يشمل كل ناحية من نواحي الكون .

لكنا نقول آسفين إن حقيقة عالم البرزخ ، وحقيقة النفس وخلودها ، والأدلة المؤيدة لهذه الحقائق الكونية . والموضوع الدائر حول ماذا سيحلّ بعد زوال هذا العالم ، هذه الأمور جميعها ، لا يزال علماء أوروبة يجهلونها حتى هذه اللحظات .

فإذا اتفق أن راود المسلم المثقف أي شك ، وقارن بين ما توصّل هو إليه بطريق مقنع معلّل ، وما جاء يحمله له المشككون من معلومات . لابّد أن يشعر بنشوة الظفر باليقين والأسف على هؤلاء المشكّكين حين يراهم لا يزالون يحاورون ويتخبّطون في التماس الحقيقة ، فلا يدركون ما أدركه هو ، بتدبّر آي الذكر الحكيم .

وهكذا فإنه لابد للمسلم تأمل لآي الذكر الحكيم ، عاديّاً كان أو مثقفاً ، أن يجد جواب السؤال المطروح ، سواء في ذلك ما يتعلّق بحالة النفس في وفاة الإنسان التي تعني النوم ، ووفاته التي تعني الموت ، وخلود هذه النفس إلى يوم يُبعثون ، واضمحلال الكون وصيروته إلى الزوال ، ضمن نظرية كونية متكاملة . وهو يحظى بهذه الإجابة بأسلوب بديع معجز من الوجهة اللغوية والعلمية والتشريعية ، أسلوب اتخذه الله جل شأنه فريداً يأخذ بمجامع القلوب . فلم يدرج فيه على الطريقة التقليدية الجافة الباردة برودة الثلج في موسم الشتاء ، بل جاء تعالى بإجابته سائغة ، سلسلة ، مؤثرة نفسياً تأثيراً جذاباً ، وأتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلقين . وعلى هذه الصورة يكون تعالى قد أثبت في الأذهان سابع عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## السؤال الثامن : كيف كان بدء الخلق بالإجمال ؟

قد علمتم أن الله تعالى لم يكشف هذا الأمر على الأمم السالفة ، في العهود التي لم يكن لدى الإنسان فيها من العلوم والمعطيات ما يؤهّله لفهم هذا الموضوع بالذات . فإن وجدنا في الكتاب شيئاً من ذلك فقد أتى تلميحاً لا تصريحاً . من هذا ندرك أننا لو طُرح سؤالنا الثامن هذا على الإنسان يومئذ ، لعجز عن الإجابة عن سؤالنا كل العجز .

وأنها لحقيقة أن زمن نزول القرآن المجيد ، قد خلا أيضاً من أية معلومات وفهم واضح ، لما يتعلّق ببدء خلق هذا الكون . و لم يتضمّن القرآن المجيد هذه النظرية الكونية ، إلا من باب أنه قد نزل عاماً لكل زمان ومكان ، و لم يقصد بنزوله أبناء عصره ، على وجه الخصوص .

وكنا علمنا أن علماء أوروبة لما قبل القرن العشرين ، اعتقدوا أزلية المادة ، لأسباب سبق أن ذكرناها في حينها ، ومن ثم لم يكن يستطيع هؤلاء كذلك الإجابة عن سؤالنا المطروح .

أما علماء أوروبة المتأخرون ، فقد سفّهوا آراء ومعتقدات المتقدّمين منهم . وتوصلوا إلى أن نشأة الكون تعود إلى ما قبل ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار عام . وانتهوا من ذلك إلى نظرية الإنفجار العظيم . التي اعتُبرت جواباً علمياً عن سؤالنا المطروح ، في موضوع بدء خلق هذا الكون .

وخلاصة نظرية الإنفجار العظيم ، أن هذا الكون بدأت نشأته من مادة أعدّت في مساحة أصغر كثيراً من الحيّز الذي يشغله بروتون واحد ، وبكثافة لا يصدّقها الخيال . بمعنى أن جميع الكواكب والنجوم والمجرّات والطاقة والمادة التي اشتمل عليها هذا الكون ، كانت قد تخلّقت في حيّز لا يكاد حجمه يعادل حجم بروتون واحد . أي أن هذا الحجم لم يكن شيئاً مذكوراً . فلما حدث هذا الإنفجار العظيم الرهيب ، تولّد عنه تمدّد هائل في المادة ما زال مستمراً حتى يومنا هذا ، وتكوّن عن هذا جميع

الكواكب والنجوم والمجرات والطاقات المادية في هذا الكون الفسيح وقد حدث هذا الإنفجار العظيم ، على حسب ما أفاده فيزياء الكم قبل ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار عام .

من هنا ندرك أننا إذا طرحنا سؤالنا المذكور على علماء أوروبة الحاليّين ، فسيجيبوننا ، بما ذكرناه ، عن نظرية الإنفجار العظيم ، ظانين أنهم أجابوا بذلك إجابة علمية ، لم يسبقهم إليها كتاب سماوي .

وقد أكّدت قبلاً أنّ مفتاح إدراك أمور الغيب وما وراء الطبعيات ، لا تتأتّى إلا بانتهاج النهج العقلاني الذي وضّحه الدين الإسلامي ، فهل سلك علماء أوروبة هذا المسلك ، حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه . هذا ما سنكشف عنه في السطور القادمة .

ولنأت الآن صوب المسلم العادي نسأله نفس هذا السؤال الذي طرحناه عن بدء الخلق . فلا شك أنه يشير إلى الآية /٣٠/ من سورة الأنبياء ، فقد قال تعالى ﴿ **أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ، أفلا يؤمنون** ﴾ ؟ فإذا استوضحناه معنى هذه الآية الكريمة ، ردّد قول ابن كثير في تفسيره لها « أو لم يروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ، أي كان الجميع متصّلاً بعضه ببعض ، متلاصقاً متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق الله هذه من هذه فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً وفصل بين السّماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون** ﴾ » . وهكذا تكون إجابة هذا المسلم العادي إجابة عفوية صادرة عن فؤاد مفعم بالإيمان بما قال . والملاحظ أنه لا يجيب بما ذكرته التوراة من أمور لا يستسيغها العلم أصلاً .

ولنأت صوب المسلم المثقف ونطرح عليه السؤال نفسه ، المتعلق ببدء خلق الكون . فالذي نلاحظه أنه لا يتعجّل الإجابة ، بل يراجع معاني الآية الكريمة التي استدل بها المسلم العادي ، وذلك في معاجم اللغويين .

يقول صاحب معجم المقاييس : الفاء والتاء والقاف أصلٌ صحيح يدل على فتحٍ في شيء . من ذلك قولك : فتقت الشيء فتقاً . وجملٌ فيتق إذا تفتّق سُمناً . وأما الفاء والتاء وحدهما ، فكلمة تدل على تكسير شيء ورفته . والفتُّ هو بعرةٌ تُفتُّ ، وتوضع تحت الزند تشتعل بالقدح .

ويقول صاحب محيط المحيط : فتق ضد رتق . وفتق الثوب نقيض خياطته حتى فصل بعضه عن بعض . ورتق يرتق رتقاً : سدّ وأغلق ضد فتق . فإذا قيل عن امرىء : الفاتق الراتق معناه أنه مالك الأمر يتصرف كيف يشاء . وارتتق الشيء : التأم . والرتق هو الضّم والالتحام فمعنى ﴿ **كانتا رتقاً** ﴾ أي كانتا مضمومتين ملتحمتين .

ويخلص هذا المسلم المثقف من معاني الرّتق والفتق إلى أن المادة يوم خلقها الله تعالى ، خلقها للانفصال بعضها عن بعض ، كما يشير معنى الفتق والرتق ، وقابلة للتمدد كما يشير إليه معنى التفتّق ، كما خلقها قابلة للإنفجار لقول ابن فارس : الفتّ بعرة توضع تحت الزند للاشتعال .

وقبل أن يربط هذا المسلم المثقف هذه المعاني بألفاظها في الآية الكريمة وبمواضعها منها . نلاحظه يراجع تسلسل الآيات الموضوعي ، ليكوّن فكرة تفيده لانتقاء المعاني المناسبة التي تربط الآية بهذا التسلسل الموضوعي . لذا نراه يعود إلى سورة الأنبياء يتلوها من أوّلها﴿ **إقترب للناس حسابهم ، وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربّهم مُحدَث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهيةً قلوبهم ، وأسرّوا النجوّى الذين ظلموا ، هل هذا إلا بشرٌ مثلكم ، أفتأتون السّحر وأنتم تبصرون . قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ، وهو السميع العليم** ﴾ .

ويلاحظ المسلم المثقف أن البيان الإلهي في هذه الآيات جاء يشير إلى فئة غافلة مُعرضة عن الأخذ بما جاء به هذا الذكر المُحدث ، وأن قلوب هذه الفئة لاهية ، قد عميت عليها وجوه الرّشد ، فصورتّ هذا الذكر على أنه سحر . فهي فئة غافلة

ومتآمرة وظالمة ومعرضة لقوله تعالى ﴿ **في غفلةٍ معرضون** ﴾ وقوله ﴿ **إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم** ﴾ وقوله ﴿ **واسرّوا النّجوى الذين ظلموا** ﴾ . فهي فئة تعتزّ بفوقيّتها لذلك تصمُ ما أتى به الرسول ﷺ من ﴿ **ذكر محدث** ﴾ بالسّاحر ، وتخاطب فئة المؤمنين بقولها ﴿ **أفتأتون السّحر وأنتم تبصرون** ﴾ ؟ .

ولا شك أن مسلمنا المثقف هذا سيتذكر حين يتلو هذه الأوصاف التي تحملها هذه الآيات الكريمة ، فينتبه إلى أنها تنطبق على أوروبي عصرنا خاصة ، المستعمرين الذين تآمروا على شعوب العالم لاستعمارها وسلب خيراتها ، معتزّين بتفوّقهم العلمي والتكنولوجي ، وقد عميت عليهم وجوه الرشد ، فغفلت بصائرهم عن الحقائق التي جاء بها هذا الذكر المحدث ، فآثروا الظلم ، واعتقدوا أزلية المادة ، ومضوا في غلوائهم مُتباهين بنهضتهم الصناعية .

إنه يلاحظ أن جميع هذه الأوصاف قد تجمّعت في أهل زماننا من الأوروبيين تحديداً . وقد قال تعالى بعد هذه الآيات مباشرة ﴿ **قل ربّي يعلم القول في السّماء والأرض ، وهو السميع العليم** ﴾ ، ويدرك ممّا سبق أن كلمة ﴿ **القول** ﴾ وردت هنا بمعنى الرأي والاعتقاد ، إشارة إلى هؤلاء الأوروبيين ، فهو ينبه سبحانه وتعالى إلى أن القول الصحيح فيما يختص بأمور السماء والأرض فعلمه عنده ، وقد بيّنه في هذا الذكر المحدث . وهو تعالى يسمع ما يزعمونه ويعلم ما يقترفونه .

فلما يبلغ هذا المسلم المثقف قوله تعالى ﴿ **وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً ، بل عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنّي إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنّم ، كذلك نجزي الظالمين . أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ، أفلا يؤمنون** ﴾ . يدرك أن مضمون هذه السورة موجه إلى الأمم المسيحية الأوروبية خاصة الذين اتخذوا لله ولداً سبحانه .

ويدرك أيضاً أن الله عز وجل قدم في هذا المقام دليلاً قاطعاً يدحض عقيدة هؤلاء من خلال قوله ﴿ **بل عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ أي هل يعقل أن يكون المسيح ابن مريم هو الابن لخالق هذا الكون ، ومن ثم فإنه لا يُطلعكم في إنجيله على سّر خلق الكون ؟ واستعمل ( بل ) حرف الاستبدال ليقول ﴿ **بل عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ ، أي أن المسيح ابن مريم إن هو إلاّ عبدٌ مُكرم من جملة رسل الله المكرمين ، فيستحيل عليه أن يسبق ربّه بكشف سّر الخلق ، على اعتباره ممن ﴿ **بأمره يعملون** ﴾ . ويمكن التعبير عن هذا الدليل بألفاظ أخرى ، فنقول إن سكوت المسيح ابن مريم عن كلام عن سّر خلق العالم ، هو أمر يعتبر في حدّ ذاته دليلاً على كونه نبياً رسولاً ، وليس ابناً لله عز وجل . وإن الذي يدعي الألوهية ، لا يفلت من عقاب ربه ﴿ **فذلك نجزيه جهنّم ، كذلك نجزي الظالمين** ﴾ على اعتباره من الظالمين .

هنا يعاود هذا المسلم المثقف تلاوة آية البدء بسورة الأنبياء أي ﴿ **اقترب للناس حسابهم ، وهم في غفلة مُعرضون** ﴾ فيفهم منها أنه اقترب حساب هذه الأمم الأوروبية التي زعمت أن المسيح ابن مريم هو ابن الله ، فتستّرت بهذه الدعوى الباطلة ، لتستبيح مقدّرات الشعوب .

تنكشف هذه الحقائق لأعين هذا المسلم المثقف ، وهنا يعمَدُ على ضوئها إلى تدبر قوله تعالى ﴿ **أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ، أفلا يؤمنون** ﴾ ، ويدرك حكمة قوله تعالى ﴿ **أو لم ير الذين كفروا** ﴾ . فأشار إليهم في هذا البيان الإلهي الكفار بصورة عامة ، والأوروبيين هؤلاء بصورة خاصة ، الذين انتهوا بآرائهم إلى نظرية الإنفجار العظيم ، التي اعترفت بما أنبأ عنه الوحي الإلهي قبل أربعة عشر قرن من الزمان ، من حيث لا تشعر ، وهو قوله تعالى ﴿ **أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** ﴾ . فها

أنهم ذهبوا في نظريتهم إلى أن جميع ما في هذا العالم من كواكب وسيارات ومجرات وطاقات كانت جميعها مضغوطة معاً في حيّز لا يتجاوز حجم بروتون واحد .

على هذه الصورة ينتبه هذا المسلم المثقف إلى اتفاق النظرية القرآنية الكونية ، مع مضمون النظرية الأوروبية الأخيرة التي عرفت بنظرية ( الإنفجار العظيم Big Bang Tleory ) . ينتبه إلى اتفاق النظريتين في عموميات ما ذهبنا إليه . فإذا استعاد في ذاكرته جميع معاني ( فتق ورتق ) التي جمعها من معاجم اللغويين ، تنبّه أيضاً إلى أن النظرية القرآنية الكونية قد جاءت بتفاصيل أدقّ ، من معلومات نظرية هؤلاء . إذ جاءت تقول :

١ ــ بوجود الخالق لهذه المادة الذي أنبأ عن خلقه إياها قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

٢ ــ وأنبأ عن أن المادة المخلوقة ، كانت في بداية خلقها مؤهّلة للتمدد والاتساع .

٣ ــ وأن كتلة تلك المادة كانت قابلة للإنفجار .

٤ ــ وأنها كانت على شكل نطفة الإنسان تحوي في طيّاتها جميع أجزاء هذا الكون ، وفي حيّز لا يتجاوز بروتوناً واحداً .

٥ ــ وأن أجزاء هذه المادة كانت ﴿ **رتقاً** ﴾ أي مضمومة ، ملتحمة ، وملتئمة وهذه الأمور الخمسة الإضافية ، قد نبّهت إليها آية بدء الخلق التي ذكرناها .

ويستغرب هذا المسلم المثقّف أن يقال له إن الكون بأكمله كان مضغوطاً في هذا الجسيم المادّي الذي ما كان يتجاوز في حجمه بروتوناً واحداً . لكن استغرابه يزول ، حين يستعيد في مخيلّته جُسيم النطفة المنوي الذي لا يُرى إلا بالمجهر ، ومع ذلك ، فهو يحمل في تضاعيفه المتناهيه في الدّقّة أعضاء الإنسان المختلفة « اللحمية والعصبية والعظمية والعرقيّة والغضروفية والشحمية . وهكذا فإن المسلم العادي الذي لم

يتجاوز طفولته الفكرية ، قد قال من حيث الجوهر ، نفس ما قاله أصحاب نظرية الإنفجار العظيم الأوربيين . وهو الذي أخذ بما جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى قوله « إن السماوات والأرض كانت متصّلة بعضها ببعض ، ومتلاصقة ، ومتراكمة بعضها فوق بعض في ابتداء الأمر ... » . إن ابن كثير رحمه الله تعالى أورد هذه المعلومات من خلال فهمه لمعاني ( فتق ورتق ) اللغوية ليس إلاّ . ولم تكن معطيات علم زمانه ، تسمح له بالذهاب إلى أدّق من هذه المعلومات .

أرأيتم كيف انتهى المسلم المثقّف من تدبّره الآيات في سورة الأنبياء ، إلى أنها تشير إلى الأمم الأوروبية من أهل التثليث خاصة ، وتُنذرهم بأن الله تعالى ليس بغافل عمّا يعملون ويعتقدون ، وأن في آيات هذه السورة ، دلائل إعجازٍ لقومٍ يؤمنون ؟ .

المهم من ذلك كله هو أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً تحريراً ، يجد فيه جواب السؤال المطروح فيما يتعلق ببدء خلق هذا الكون بصورة إجمالية . ويجد هذه الإجابة صريحةً كافية لمختلف مستويات الفهم والإدراك . ويتبيّن له كذلك أن الله عز وجل لم يعرض هذه الإجابة عن هذا السؤال المطروح في كتابه الكريم ، على طريقة الكُتّاب التقليديّة ، فجّة ، جافّة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته تلك ، إجابة سائغةً ، سلسلة الورود على طبع الإنسان وفؤاده ، مقبولة ، تروق القارىء وتؤنسه . وقد صاغ البارىء تعالى هذه الإجابة ببلاغته التي تأخذ بمجامع القلوب . أجاب هذه الإجابة بالأدلة من خلال آيات معدودات ، طوى خلال صوغها كلمات وكلمات ، بل جملاً وجملاً . بل جعل من كل آية مصباحاً ومفتاحاً لما أراد تعالى بيانه وشاء الكشف عنه .وأتى بكل ذلك على طريقة التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التّلقين . وبهذه الطريقة أثبت تعالى في الأذهان ثامن عُنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## السؤال التاسع : ما هي الأدوار التي مرّ بها خلق العالم ؟

لم تكن لدى الإنسان القديم مُعطيات علمية تؤهله لفهم أسرار الكون وأدوار تكوينه . كما أن معطياته الدينية لم تكن تتجاوز لسان المجاز ، فلم يكن الله خالقهم ليحملّهم فوق طاقتهم الفكرية . وحتى التّوراة ، فإنها لم تتضمّن شيئاً واضحاً يفيد في الإجابة عن السؤال المطروح .

أمّا مفكروا أوروبة ، فقد سبق أن بينّت أنهم فئتان ، فئة تعود إلى ما قبل القرن العشـرين ، وأخرى تعود إلى مـا بعد القرن العشـرين ، أو ما بعد منتصف القرن العشرين خاصة . وقد تقدّم أنّي وضّحت أن علماء الفئة الأولى ذهبوا إلى القول بأزلية المادة علمياً وفلسفياً ، أمّا علماء الفئة الثانية ، فقد انتهوا إلى نظرية الإنفجار العظيم ، وتراءى لهم الكون محدود الأجل ، فهو لابّد آيل إلى زوال .

ولا يعني هذا التقسيم أن أوروبة قد أصبحت اليوم خالية من أنصار أصحاب التفكير المادي الميكانيكي . لا ، بل ما زال هناك أنصار كثيرون ، يقومون بطرح نظريّات بدبلةٍ في أصل الكون لأزلية المادة .

فالفلكي ( سير فريد هويل Sir Fred Houle ) ، خرج على الأوروبيين بفضية ( استقرار حال الكون Steady State Hybothesis ) ، وفرضية تستلزم تولد الهيدروجين تلقائياً في جميع أرجاء الكون ، فلم يُثبت خطأها ، إلا اكتشاف إشعاع الأسـاس الكوني ، الذي تحقق الإهتداء إليه ، على آيدي العالمين ( آرنو فيزباس وروبرت ويلسون ) عام ١٩٦٥ ، وهو ما سبق أن ذكرته في حينه . فاستبعدت باكتشافه نظرية ( هويل ) المذكور .

وقد ابتدع العالم ( نوسان الكون ) نظرية الانكماش العظيم أيضاً ( Oscillatuig Vnivezse ) ليثبت من خلالها أن الكون سينوس على هذا النحو ، يتمدّد تارة وينكمش أخرى ، ويستمر هذا النّوسان إلى الأبد ، ليثبت بذلك أزلية المادة من خلال أبدّيتها . وكادت نظرية ( الكون ) هذه تؤتي أُكلها ، لو لا أن ردّ

عليه ( ستيفن فاينبرغ ) صاحب كتاب ( الدقائق الثلاث الأولى لنشأة الكون ( Tle First Threl Minutes ) موضّحاً أنه لابّد أن تطرأ زيادة طفيفة على نسبة الفوتونات إلى الجسيمات النووية ، أي على درجة التعادل الحراري لكل جسيم نوويّ ، في كل دورة من دوررات الإنفجار والانكماش ، وذلك بفعل نوع من الاحتكاك ، يُعرف بإسم ( لزوجه الحجم Bulk Viscosity ) فتكون نسبة الفوتونات إلى الجسيمات النوويّة في كل دورة ، أكثر من سابقتها بقليل . ويلاحظ في زماننا أن هذه النسبة عظيمة ، لكنها متناهية ، بحيث يتعذّر جدّاً أن نتصور عدد الدورات السابقة غير متناه أمراً عسيراً جدّاً . وقد استند ( ستيفن فاينبرغ ) في ذلك إلى القانون الثاني للدنياميكا الحرارية ، ووضّح أن درجة حرارة الكون ، ودرجة تعادله الحراري ، محدودتان في الوقت الراهن ، الأمر الذي يرجّح أن تكون للكون بداية . فأبطل هذا مفعول نظرية ( نوسان الكون ) والانكماش العظيم .

و لم يقدم عالم واحد على تأكيد نظرية ( نوسان الكون ) ، بل أقدم أكثر من عالم على نقضها . فهذا الفيزيائي ( سدني آ . بلودمان Sidney A.Bludman ) ذهب في رأيه إلى « أن عالمنا لا يمكن أن يرتدّ في المستقبل ، على اعتبار أنه كون مغلق . فالكون المغلق لا يمكن أن يمّر إلاّ بدورة واحدة من دورات التمدد والانكماش ، بسبب ضخامة الانتربيا المتولّده في كوننا ، وهو أبعد ما يكون عن التذبذب والنّوسان . وبغض النظر عن كون عالمنا متذبذباً مغلقاً أو مفتوحاً ، مرتداً أو متمدّداً على وتيرة واحدة . فإن التحوّلات غير المتعاكسة في أطوار الكون ، تدل على أن للكون بداية ووسطاً ونهاية محدّدة » .

وقد شدّ من أزر الفيزيائي بلودمان ذهاب العالم ( جون ويلر ) من جميع هذه النظريات والردّود التي تأتت عليها ، ذهابه إلى أن عملية الانكماش العظيم هذه ، لو حدثت دورة كبيرة واحدة منها ، فمن شأنها أن تُنهي هذا الكون إلى الأبد . إذ قال : « لو حصل انهيار في الجاذبية ، فستكون قد وصلنا إلى نهاية الزمن . وما من أحد قطّ

استطاع أن يجد في معادلات النسبيّة العامة ، أدنى حُجّة تؤيد القول « بعملية تمدد أخرى » أو بوجود « كون ذي دورات » ، أو أي شيء آخر سوى النهاية » .

على هذه الصورة تدركون أن للفئة الأولى الغابرة من علماء أوروبة أنصاراً لا يزالون يدينون بمبدأ أزلية المادة . بل يتصرفون بعقلية الماديين أيضاً . وما يزال أنصار الفئتين من العلماء ، تتصارع آراؤهم ، فيما يخصّ نشأة الكون وبدايته ونهايته . وهذا ما يؤكّد لنا أن علماء أوروبة ، لا يزالون عاجزين عن إجابتنا عن سؤالنا المطروح فيما يختصّ بالأدوار التي مرّ بها خلق العالم . لكن هذا لا يمنع أن نقرّ أنهم بحثوا موضوع مجموعتنا الشمسية ، ووضعوا لنشأتها وأدوار تطورها مختلف النظريات وهو أمر سنتناوله بالبحث في الأسئلة القادمة .

ويراودنا ها هنا سؤال آخر ، وهو لماذا نرى علماء أوروبة ما يزالون يتخبّطون في موضوع نشأة الكون ، وأدواره ونهايته ، وهم الذين قطعوا شوطاً كبيراً في ميادين مختلف العلوم التجريبيّة ؟ .

والجواب ، كما ذكرت ، كامنٌ في ابتعادهم عن النهج العقلاني الذي نبّه عليه القرآن المجيد ، وهو ضرورة استعانة العقل في موضوع الغيبيّات وما وراء الطبيعة ، بوحي السماء ، تمكيناً للعقل من إعطاء أحكام صحيحة يقينيّة .

ولنأت الآن صوب المسلم العادي نسأله سؤالنا المطروح : هل تعلم ما هي الأدوار التي مرّ بها خلق هذا العالم ؟ .

وبالرغم من أن هذا المسلم العادي ، لم يقف على شيء من علم علماء أوروبة ، ولا هو فيلسوف أو عالم يمكن أن يبدي رأيهُ في الموضوع ، فإنّه يسارع إلى القول إن عالمنا مرّ خلقه في ستّة أيّام ، كما بيّنته لنا سور الأعراف ويونس وهود والفرقان والسجدة والحديد وسورة ق . وقد يأخذ بأيدينا ليدلّنا على ما اطلع عليه من تفسير هذه الآيات لابن كثير رحمه الله تعالى ، إذ جاء في تفسيره للآية /٥٤/ من سورة

الأعراف ﴿ **إن ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ، ثم استوى على العرش ، يُغْشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مُسخّراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** ﴾ . قال ابن كثير « يخبر الله تعالى أنه خالق العالم وأرضه وما بين ذلك في ستة أيّام . كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن . والستّة الأيام هي الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة . وفيه اجتمع الخلق كله . وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا في هذه الآيام هل كان يومٌ منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نصّ على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل . ويروي ذلك من رواية الضحّاك عن ابن عباس . فأما يوم السبت ، فلم يقع فيه خلق . لأنه اليوم السابع ، ومنه سُمي السبت ، وهو القطع » .

ألا إننا إذ نلاحظ من هذا المسلم العادي تسليمه لهذا التفسير التقليديّ ، نعذره ، على اعتبار أنه لا يزال في دور طفولته الفكرية . ونحن إذ نقرأ ما كتبه ابن كثير رحمه الله في تفسيره ، نعذره كذلك لتأثّره بأقوال أصحاب التوراة المنافية للعلم . فقد فسّر الآية على قدر مُعطيات زمانه .

فإذا طرحنا نفس السؤال على مسلم مثقف مفكر ، فسألناه هل تعلم ما الأدوار التي مرّ بها خلق العالم ؟ لاحظنا أنه لا يتسّرع في إجابته بالرغم من اطلاعه على التفسير التقليدي الذي سلّم به المسلم العادي .

فهو يتدبّر أوّل الأمر معاجم اللغويين ، يتفحصّ من خلالها دلالات كلمة ( يوم ) . فيجد أن صاحب محيط المحيط قال : يعني اليوم المدة الزمنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وإن العرب تطلق اليوم على الوقت والحين ، نهاراً كان أو ليلاً . فنقول : ذَخَرتُك لهذا اليوم ، أي إلى هذا الوقت الذي افتقرت فيه إليك . كما يجد أن صاحب أقرب الموارد يقول ( اليوم هو الوقت مطلقاً ) . فإذا طلب ذلك في معجم

المقاييس ، ألفاه يقول ( اليوم كلمة واحدة يستعيرونه في الأمر العظيم . يقولون : نعم الرجل في اليوم ) ويلاحظ أن صاحب اللّسان قد أيّده أيضاً في رأيه .

ويخلص هذا المسلم المثقف المفكر من جميع هذه الأقوال التي جمعها ، إلى أن كلمة ( يوم ) تستعمل للفترة الزمنية ما بين طلوع الشمس وغروبها . لكنها قد وُضعت أصلاً للتعبير بها عن الوقت مطلقاً . وهي تشمل الدور الزمني ، والعظيم منه خاصة . وبهذا يكون قد أمسك بطرف الموضوع . فذهنه هنا يذهب إلى أن معنى ﴿ **خلق السماوات والأرض في ستة أيّام** ﴾ .. تعني خلقها الله تعالى في ستة أدوار زمنية ، لا في ستة أيّام عادية .

وهنا ينتبه صاحبنا المثقف إلى أن الله تعالى ، قد عنى باليوم الدور أو المرحلة الزمنية المديدة ، كما يفعل علماء الفلك حين يقيسون المسافات الطويلة جدّاً بسرعة الضوء في الثانية اختصاراً للأرقام .

ويجلس هذا المسلم يستعرض الآية بكاملها : ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيام** ﴾ .. فلا يكمل التلاوة ، بل يستوقفه قوله تعالى ﴿ **إن ربكم الله** ﴾ .. فيتساءل : وما ضرورة أن يأتي الله تعالى هنا بصفة الربوبيّة ، فيقرنه باسم الجلالة الله ؟ أو لم يكن اسم الجلالة ( الله ) كافيا في هذا المقام ؟ ولا يجد الإجابة والحكمة من ذلك ، إلا في أن الله تعالى شاء سبحانه تنبيهنا إلى أمرٍ هام جدّاً . وهو أنه لم يخلق هذا العالم دفعة واحدة وفي ستّة أيام عادية ، كما ذهب ابن كثير إليه . بل خلق الله تعالى هذا العالم في ستة أدوار زمنية ، وفقاً لقانون النشوء والإرتقاء . باعتبار أن كلمة ( رب ) تعني الذي يطوّر الشيء حالا بعد حال إلى مرتبة التمام ، كما ورد في أقرب الموارد . ذلك أن اشتقاق الرب من التربية . يقال ربّاه يربيه تربيةً ، وربّبه يربّبه تربيباً ، والتربية قيام المربّي على الشيء بالصلاح .

ويتساءل ثانية : وهل أشار تعالى من خلال ربوبيته إلى قانون النشوء والارتقاء ، على حسب ما وضّحه ( دارون ) من أن الكون كان عبارة عن ذرات دقيقة ، ظلت

تنقسم حتى تطورت ، وتولّد عنها النبات والحيوان بعد مرور مليارات الأعوام . وظلت تتطوّر وترتقي شيئاً فشيئاً ، حتى أخذ النّوع يتحسّن وينتقل من درجة دنيا ، إلى درجة أرق منها ، حتى تولد القرد الذي تطّور هو أيضاً في أشكال حيوانية عديدة ، إلى أن تولد عنه هذا الإنسان الذي يعتبره ( دارون ) آخر درجة في درجات سلّم الارتقاء .

هل أراد القرآن المجيد ، هذا القانون ، من منظار رؤية ( دارون ) ، أم من منظار تصوّر آخر سواه ؟ أقول حين يعود المسلم يتدبّر كتاب الله تعالى ، سينتهي إلى أن القرآن الكريم لا يسلّم بمبدأ القفزات النوعية الذي أشار إليه ( دارون ) من قانون النشوء والارتقاء . فلا يسلّم أن يكون الإنسان تأتّى عن قفزةٍ نوعية لنوع من القرود . فالصحيح أنّ ثمة أمواجاً من المدّ والجذر مرت بها المخلوقات ، و لم تتولد جميع المخلوقات دفعة واحدة وبصورة مفاجئة ، ولا هي تولدت بعضها من البعض الآخر . بل خلق الله تعالى كل مخلوق من هذه المخلوقات ، حين تأتت الأحوال الجوّية والبيئة لولادته . وهاهي البحوث الجؤلوجية تثبت صحّة هذه النظرية ، فلم تكن الطفيليات المتولدة عن تعفّنات جسم الإنسان ، قد لوحظ وجودها إلاّ بعد خلق الإنسان نفسه في طبقات الأرض . وعليه فالمخلوقات وإن خضعت لقانون النشوء والارتقاء ، فإنه قد نشأ كل نوع منها مستقلاً عن سواه من الأنواع . فالقرد تولّد عن قرد ، والإنسان عن إنسان ، وهكذا .

ينتبه هذا المسلم المثقف المفكر إلى جميع هذه الحقائق من خلال ما يستشفّه من إيراد كلمتي ﴿ **إن ربكم** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض** ﴾ .. فيدرك أن يد ربوبيته عز وجلّ كانت تعمل وراء كل تطوّر في هذا الكون الفسيح . كما يدرك أنه يستحيل أن يكون هناك مقصداً للطبيعة العمياء تسعى لتحقيقه .

ويدرك هذا الأخ المسلم المثقف من خلال كلمة ﴿ **ربكم** ﴾ أيضاً أن خلق هذا العالم ، قد خضع لقانون النشوء والارتقاء الذي بيَّناه ، خصوصاً وإنه سبحانه وتعالى قد أعلن في نهاية هذه الآية قوله ﴿ **ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** ﴾ .

هنا يعود هذا المسلم إلى أول سورة الأعراف يستنطق تسلسلها الموضوعي ، بحثاً عن حكمة الكلام في هذا المقام عن خلق الكون وأدواره . فهو يبدأ بالتلاوة من أول السورة ﴿ **المص** ﴾ فيستذكر أنها اختزال من كلمات ( أنا الله العليم الصادق ) . ويُكمل التلاوة ﴿ **المص . كتابٌ أنزل إليك ، فلا يكن في صدرك حرجٌ منه** ﴾ . وتوقفه هذه الألفاظ الأخيرة . فأي حرجٍ يساور الصدر مما ذكر ، أو سيذكر ؟ وينتبه بعدها إلى قوله تعالى ، بعد آيات ﴿ **هل ينظرون إلاّ تأويله ، يوم يأتي تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل** ﴾ .. فيعجب كل العجب . ذلك أن مقدمة السورة تشير إلى أن الآيات ستنطوي على أمور ، قد يدعوا الإنذار بها إلى حرج الرسول ، لأن تأويلها وفهم أسرارها ، لا يتعلق بزمن الرسول نفسه ، بل بوقت آت فيما بعد كما يُستشف من قوله ﴿ **يوم يأتي تأويله** ﴾ فاليوم بمعنى الوقت والحين .

ويتابع هذا المسلم المثقف التلاوة ، فيقرأ قوله تعالى : ﴿ **فلنَقُصّن عليهم بعلمٍ ، وما كُنّا غائبين** ﴾ . وهذا الكلام المقدس يتبيّن منه أنه تعالى يقصّ أموراً غائبة عن علم الإنسان ، ولا يعلمها إلاّ هو ، لكونها علوماً غيبيّة محضة .

ويتابع التلاوة ، فيتلو قوله تعالى ﴿ **ولقد مكنّاكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلاً ما تشكرون** ﴾ . وهذه إشارة إلى أن تهيئة هذه الكرة الأرضية ، تمكيناً للإنسان من الحياة على سطحها ، وإعداد سبلٍ لمعاشه فيها ، ليس هو بالأمر السهل البسيط ، فهو يقتضي خلق عوالم غير الأرض تمدّها بجميع مقوّمات الحياة . ففي هذه الآيات الكريمة تمهيد إذن للكلام عن الكون وأدوار نشأته بفعل ربوبية رب العالمين .

ثم إن في قوله تعالى ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾تقريع للإنسان ، لغفلته عن إدراك عظمة نشوء هذا الكون ، وأسباب نشوئه ومقاصده .

إلى هنا يدرك هذا المسلم المثقف المفكر أن تسلسل سورة الأعراف الموضوعي ، اقتضى الكلام على نشأة الكون ، وأدواره الطويلة التي اقتضى أن يمرّ فيها . فهو مرّ بستة أدوار رئيسيّة ، كما اتضح من قوله تعالى ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام** ﴾ .. فإذا أخذ عمر الكون ما يتراوح بين ( ١٢ ـــ ٢٠ ) مليار عام على حسب ما أثبتته نظرية الإنفجار العظيم . يكون ناتج تقسيم هذا الرقم على ستة ، هو ثلاثة مليارات من الأعوام . وهو رقم احتاجه كل دور من أدوار الخلق الستة المذكورة . وهو أمرٌ معقول جداً . وتتجلّى لعيني هذا المسلم عظمة القرآن المجيد الذي نبّه العقول إلى هذه الحقائق الكونية العلمية قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، سبقت ظهور نظرية الإنفجار العظيم . ويترسّخ بذلك إيمانه في صدره ، ويستيقن أن العقل يعجزه إصدار أحكام يقينيّة صحيحة في موضوع الغيبيات ، ما لم يستعن بوحي السّماء ، ويجزم إلى جانب ذلك أن المعلومات التي ساقها القرآن الكريم ، بعيدة كل البُعد عمّا هو وارد في التوراة المحرفة المعاصرة .

فإذا راجع هذا المسلم المثقف سياق الآية نفسها ، التي تكلمت على أدوار خلق هذا العالم ، وتلا هناك قوله تعالى ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علمٍ ، هُدىً ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلاّ تأويله ، يوم يأتي تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاءت رُسُل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نُردُّ فنعمل غير الذي كُنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضّل عنهم ما كانوا يفترون . إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يُغْشي الليل النهار ، يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مُسخّراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** ﴾ أدرك أن سياق الآية نبّه إلى أن المعلومات والحقائق الكونية التي جاء بها هذا الكتاب المقدّس ، قد فصّلها الله جلّ شأنه ﴿ **على**

**علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾** أي جعل من هذه الآيات هُدىً إلى إدراك ما يحيط بنشأة هذا الكون وتطوره والحكمة منه ، وذلك كله رحمة من الخالق الرحيم الرؤوف بالمؤمنين . وهكذا يكون هذا الكتاب المقدس القرآن المجيد ، قد أتى قبل أربعة عشر قرناً من الزمان فوق ما أتى به وكشفه علماء أوروبة في هذا الشأن ، بعد هذا التاريخ الطويل .

والمهم من هذا كله أن الشخص الذي يتدبّر القرآن المجيد . سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، سيجد لا محالة بين دفتّي هذا الكتاب جواب السؤال المطروح ، حول الأدوار الومنية التي مرّ بها نشوء العالم وخلقه .

ويتبيّن له أن القرآن المجيد لم يعرض هذه الإجابة على الطريقة التّقليدية ، فجّة ، جافة ، باردة ببرودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته إجابة سلسلة ، سائغة ، سهلة الورود على الطبع ، وقد صاغها البارىء تعالى بمنتهى البراعة والبلاغة المؤثرة تأثيراً نفسياً جذّاباً ، وأتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المُعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التلقين . وبهذه الطريقة أثبت في الأذهان تاسع عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## السؤال العاشر : هل اختصت الأرض بظهور الحياة ، من دون الكواكب ، ولماذا ؟

لم يراود عقل الانسان القديم احتمال وجود حياة في نواحٍ أخرى من الكون . و لم يكن ليتصوّر وجود أرض غير أرضه التي يعيش فوق أديمها ، وأن السماء قد انطوت على ملايين من المجموعات الشمسية الشبيهة بمجموعته الشمسية .

فلما نزل القرآن المجيد ، فأجأ الناس بغيضٍ من المعلومات حول هذا الكون . واخذ المؤمنون بهذا الكتاب ينظرون الى ما في هذا الكون ونشأته وغايته ، نظرة جديدة كلّ الجدّة . على حين كانت الشعوب الأوربيه ترزح تحت وطأة ظلم جائر ، وتعيش في ظلام دامس ، الى أن قامت الثورة الصناعية في أوربة ، وحدث ما حدث

من صراع بين القديم والحديث . وهو أمر سبق أن القينا الضوء على بعض جوانبه ، وانتهت أوربة في أيّامنا الى اختراق أجواز الفضاء ، وابتغاء ، سطح القمر ، حتى عاد روّادها بنماذج من أحجاره وتربته .

والملاحظ أن الأوربين بالرغم من أبحاثهم الفضائية ، لم يعثروا حتى اليوم على أي أثر للحياة خارج الكرة الأرضيه . وهذا الأمر كان مدعاة لتساؤلهم الخطير عن سّر انحصار الحياة في كوكبنا الأرضي .

وقد راحوا يبحثون عن المكونات الأساسية المادية للحياة ، لَعلّهم يكشفون عن طريقها سّر اختصاص الأرض بالحياة . فيتبين لهم أن ذرات الهدرجين والأوكسجين والكربون والنيتروجين والفوسفور والكبريت ، وجزئيات تربو على الخمسين ، وذرات الصوديم والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكلور والكاليسوم والحديد وسواها من الذرات ، تؤلف المكونات الأساسية المادية للحياة . كما بحثوا عن مصادر هذه الذّرات : عن مصدرها الذي انبثقت منه ، وهل كانت أصلاً في حالة مفردة ، أم في تجمعات بسيطة ؟

كما راحوا يبحثون موضوع الجوّ المحيط بالكرة الأرضيه ، فتساءلوا : هل كان في الأصل جّواً « مختزلاً » غير غنّي بالأوكسجين قبل نشوء الحياة على الأرض ؟ أم كان يومذاك حّواً« مؤكسداً » ، أي غنياً بالأوكسجين ؟ وتساءلوا عن الوفرة الملاحظة لذرات الأوكسجين في جّو الأرض المعاصر : أجاءت وفرته عن طريق التمثيل الضوئي الحاصل بتأثير الأشعة فوق البنفسجية ، التي تحلّل الماء إلى عناصره الأولى ؟ وهم لم يلاحظوا تولّد الأكسجين من مياة الكرة الأرضيه بمعدل محسوس ، فتساءلوا هل تحقّق هذا عن طريق تفاعل الغلاف الجوّي مع المواد الكيميائيه التي تألّفت منها أقدم الصخور الرسوبية ؟ وانتهوا من جميع تساؤلاتهم إلى أن جّو الأرض اليوم لم يكن مختلفاً عنه في غابر الأزمان ، ما قبل ثلاثة مليارات عام على أقل تقدير . و لم يستطيعوا الجزم هل كان جوّ الأرض آنذاك مختزلاً أو مؤكسداً .

وقد تبين لهم ان الطبقة الجوية للأرض تحوي تحوي ( أوزوناً ) أي ذرات الأوزون . وهذه الطبقة من ذرات الأوزون تحمي الأرض من الأشعة الشمّسية فوق البنفسجية . فذهبوا إلى أن جوّ الأرض كان خالياًفي الأصل من ذرات الأوزون ، و لم يعرفوا السّبب العلمي الذي أدّى إلى تكّون هذه الطبقة من الأوزون ، أو يلاحظوا وجود طبقات أوزونية في أجواء كواكب أخرى غير كوكبنا الأرضي .

هذه النتائج التي ذكرناها ، توصل إليها عدد من علماء الكيمياء ، وعلى رأسهم ، أشهرهم علماء ، وقد بلغ من هذا العلم موضعاً جليلاً ، وهو ( ستانلي ميلر ) عام ١٩٥٣ .

وزبدة الكلام ، هو أن علماء أوربة بحثوا كثيراً في الأسباب الداعية إلى نشوء الحياة على سطح الكوكب الأرضي . و لم يصلوا من جميع ما بحثوه الى رأي حاسم ويقين جازم . الأمر الذي اضطر العالم البيولوجي الفيزيائي ( فرانسيس كريك ) والحائزة جائزة نوبل عام ١٩٦٢ ، أن يقول في مؤلفه ( طبيعة الحياة ): « ان الرّجل الأمين المسلّح بكل المعرفة المتاحة لنا ، الآن ، لا يستطيع أن يقول اكثر من أن نشأةَ الحياة في الأرض تبدو أقرب ما يكون الى المعجزة . » . فأين قوله هذا من قول ( داورن ) من قبل ، وقد جزم فيه أن الحياة نشأت عن طريق قانون النّشوء والإرتقاء . ولاتنسى ان العالم ( فرنسيسن كريك ) هذا ، الحائز لجائزة نوبل ، قد انتهى ألى القول : « ولكنّا الآن لا نستطيع أن نقول اكثر من أنه لايمكن ان نقرر هل كانت نشأة الحياة على الأرض حدثاً يكاد يكون مؤكّداً ، أوأن هناك احتمالاً آخر يقع بين هذين الطرفين . » . واضاف قائلاً : « اختصاراً ، إننا نريد أن نعرف التركيب التقريبيّ للغلاف الجّوي في زمن ما قبل وجود الحياة : هل كان « مختزلاً » أو كان « مؤكسداً » ؟ لكنه يبدو أن التوصّل الى أي استنباط محدّد في هذا الصدّد ، أمرٌ صعب جداً . ودرجة حرارة الأرض البدئية ، هي أيضاً غير مؤكّدة بالدرجة نفسها ، إذ تعتمد أساساً على سرعة تكوين الأرض » .

لابدّ أنكّم لاحظتم أن آراء علماء أوربة المعاصرين قد راوحت بين مدٍّ وجذر ، وبين جزم وشك . ذلك يذكّرنا يقول الله عزّ وجّل في سورة الكهف /١٥/ ﴿ **ما أشهدتم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم** .. ﴾، من هذا ترون أنهّم لايزالون عاجزين عن الإجابة عن سؤالنا الذي طرحناه ، إجابة شافيه وافيه .

وقد كان علماء أوربه في القرن التاسع عشر ، وهم الذين أخذوا بنظرية ( دارون ) قد ذهبوا إلى الاعتقاد أن الحياة لابدّ ستنشأ من جديد في المستنقعات ، والمنافع ، واللّحم النّتن ، وغيره من الأماكن الملائمة ، ويثبت من ذلك صّحة النظرية الداروينّيه . ذلك ما سعت إليه بحوث العالم ( ريدي Redi ) والعالم ( حوبلو Joblo ) والعالم ( سبالانزاني Spollonrgni ) . واستمرّ سعي هؤلاء ، إلى أن جاءت تجربة ( باستر ) التي أجزاها في جهاز عبقري التّصميم ، والتي انتهت الى تحطيم جميع مزاعم هؤلاء العلماء .

وطالما تساءل الأوربيون عن وجود حياة في كواكب غير الكوكب الأرضي . فلم يصلوا إلى جواب يشغي غليلهم . فانظر الى ما قاله العالم ( فرانسيس كريك ) . وهو عالم بيولوجي فيزيائي ولد عام ١٩١٦ كما ذكرنا ، قال : « إن معرفتنا عن الكواكب في نظامنا الشمسي نفسه محدودة .

ونحن لانكاد نعرف شيئاً على الإطلاق عن الكواكب الدائرة حول النجوم الأخرى غير شمسناً إلا اليسير ، وعن طريق استدلال غير مباشر . وربما كانت هناك أماكن كثيرة في الكون ملائمة لنشأة الحياة ، بل ربما كان لبعضها طروف أفضل من أرضنا هذه » .

فقد لا حظتم استعمال العالم المذكور لكلمة ( ربما ) التي لا تفيد مجرّد الاحتمال في أمر ، دون الجزم واليقين . وعلى ذلك نقول إن الأوربيين لم يجزموا في أمر ظهور الحياة على كوكب آخر غير كوكبنا الأرضي ، لذلك فهم غير قادرين على الاجابة عن سؤالنا الذي طرحناه .

فإن قيل قد يجدون آثار حياة على كوكب آخر في يوم من الأيام . ونقول لكل حادث حديث .

ولنأت الآن صوب المسلم العادي نسأله : هل اختصّ الله سبحانه وتعالى كوكبنا الأرضي بظهور الحياة فيه ، من دون سائر الكواكب الأخرى ، ولماذا ؟ فيتلو على مسامعنا الآيه /٦١/من سورة هود ، وهي قوله تعالى :

﴿ **والى ثمود أخاهم صالحاً ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب .** ﴾ . ثم يأخذ بأيدينا الى تفسير ابن كثير الذي يقول فيه : « وكانوا ، أي قوم ثمود ، بعد عاد ، فبعث الله منهم أخاهم صالحاً ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها ، خلق فها أباكم آدم ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أي جعلكم عُمّاراً وتستغلّونها ﴿ **فاستغفروه** ﴾ لسالف ذنوبكم . ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه ﴿ **إن ربي قريب مجيب** ﴾ » .

يستدل هذا المسلم العادي بهذه الآية الكريمة بصورة عفوية ، على أن الله خصّ هذه الأرض بالحياة ، واستعمر الإنسان فيها . فلا يغذّيه إلاّ ما تنتجه هذه الأرض من بقولها وثمارها . وتأتي إجابته هذه في نطاق تفكيره العفوي .

فإذا أتينا صوب المسلم المثقف ، وطرحنا عليه نفس سؤالنا الذي ذكرناه ، ألفيناه يُعرض عن الدلالات المذكورة ، فيفهم من قوله تعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ أنه أعطاكم القوة بعد ضعف ، وأنهضكم فجعل لكم الحكومات لتبني عليها الحضارة ، وتأخذ بأسباب الثقافة . ويذهب ذهن هذا المثقف أولاً إلى ضرورة فهم دلالات كلمة ( أرض ) بادىء ذي بدء . فيعود إلى ما قاله اللغويون في معاجمهم . فقد أورد محيط المحيط أنّ الأرض كرة مركبّه من الجواهر المفردة ، وهي كلمة مؤنّثة ، غير مذكرة ، واسم جنس واسم جمع بلا واحد .. والأرض كل ما استقرّ عليه قدماك ، وكل ما سَفُل وأورد صاحب معجم المقاييس أن أحرف كلمة الأرض

لها ثلاثة أصول . الأصل الأول منها كل شيء يسفل ، ويقابل السماء . وإن الأرض التي نحن نعيش على أديمها تسمى أرضاً وتجمع على أرضين . ولم تجيء في كتاب الله مجموعة .

ويخلص هذا المثقف من أقوال هؤلاء اللغويين إلى أن الأرض تعني كل ما سفل واستقرّ عليه قدماك من حيث الدلالة الأصلية ، ويقابلها في المعنى لفظ السماء . فإن حدث أن استقرّ الإنسان على سطح كوكب آخر ، تظلّ دلالات آي الذكر الحكيم واحدة لا تتغيّر . وهذا أمر يفيد ما سيأتي به الزمان من أحداث .

ويعود هذا المثقف يستقري الآيات المتعلقة بنهاية هذا العالم ، على اعتبار أن في استقرائها ما يزيد الموضوع كشفاً ، والحقائق دقّة ، فيتلو الآية /٥٠/ من سورة ( ق ) ، قوله تعالى : ﴿ **يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير** ﴾ . وهذه تفيد أن الأرض ستتشقّق عن أنفس العباد يوم الحشر . وفي هذا دلالة على أن الأرض مختصّة بحياة الناس إلى يوم المحشر . ثم يتلو الآية /٤٨/ من سورة إبراهيم ، قوله تعالى : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات** ﴾ .. فيدرك أن هذه الآية الكريمة تؤكّد استمرار علاقة الإنسان بهذه الأرض أيضاً إلى يوم الحشر .

وبعد أن يطمئن إلى دلالات آيات نهاية العالم هذه ، يعود يتلو الآية /٥٥/ من سورة طه قوله تعالى ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سُبُلاً ، وأنزل من السّماء ماءً ، فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولي النُّهى . منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

ويعود ليسأل نفسه لِمَ قال تعالى ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ؟** ﴾ وتتجلّى لعينيه عدّة أمور :

١ ـ أن جسم الإنسان ، لا يُقيمه ولا يُغذّيه إلا ما تُنبته هذه الأرض ﴿ **منها خلقناكم** ﴾ .

٢ ــ وأن هذا الجســم ، إذا ما فقد الحيـاة ، سيؤول إلى هذه التّربه ﴿ **وفيها نعيدكم** ﴾ .

٣ ــ وما دامت نفس الإنسان قد نشأت من قوى هذه الأرض ، فلا بُدّ أن تظلّ لهذه النفس بهذه الأرض علاقة خفيّة ، حتى يأتي يوم النّشور ﴿ **ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

٤ ــ وهذه الأمور الثلاثة بمجموعها تعني أن الله تعالى اختص كوكبنا الأرضي بخلق الإنســان . وعليه فقد اختصت الأرض لظهور الحياة الإنسـانية فيها من دون الكواكب الأخرى . ذلك لتكون مركز نشأة الإنسان وتطوره وترقّيه ليس إلاّ . وقد تنشأ حياة في كواكب أخرى وينتقل إليها الإنسان أيضاً .

وتُلفت كلمة ﴿ **مهداً** ﴾ من قوله تعالى ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً** ﴾ نظر هذا المسلم المثقف . فهو يعلم أن : مهّد الأرض معناه بسطها وسهّلها وسّواها وأصلحها ، ومكّن أهلها منها ، على حسب ما ذكره اللغويون . فكلمة ( مهداً ) تدل إذاً على أن الله تعالى كان في بسطه لهذه الأرض من كوكبنا ، توطئةٌ لها وإعدادٌ وتمهيد وإرصاد لخلق الإنسان فيها ، وتمكينه من العيش فوق أديمها . وفي هذا إجابة واضحة عن سؤالنا المطروح .

وهنا يتذكّر قول ربّه في سورة البقرة /٢٢/ ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتّقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بنـاءً ، وأنزل من السّماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . فالله عز وجل إذ يطلب منّا عبادته والتخلّق بصفاته ، إنما يطـلب حقّـاً لنفســه علينـا ، فهو الذي خلقنـا وخصّنا بالحياة فوق هذا الكوكب الأرضي ، الذي مهدّه فجعله فراشـاً لنا مُدَمّثاً نستريح إليه ونسكن ونثوب إليه ، ونستنيم ، وأكمل خلق الكون فأقام السماء بنظامها . ونورها وخيرها ومائها ، فاخرج بذلك كلّه ثمرات الأرض رزقاً للإنســان ومعاشاً . فهذه جميعها حقائق علمية ثابتة

﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أي تعلمون أنه لو لا توفّر عناصر الحياة من الهيدروجين والاوكسجين والنتروجين وسواها من الذرات الأساسية ، ولو لا تولّد الماء ، وفعل البَخْر ، وتكّون السُّحب وهطل المطر وتجمع المياه وتفجر الينابيع ، لّما تحقق خلق الإنسان على هذا الكوكب الأرضي ، ولّما تفرّدت الأرض من دون الكواكب جميعها بمعالم الحياة على سطحها .

وبعد أن يطمئن هذا المسلم المثقف إلى ما عرفه من إجابة عن السؤال المطروح ، من خلال آي الذكر الحكيم ، يعود يستعرض ما توصّل إليه علماء أوروبة ، وما صرّحوا به ، فيقرأ قول العالم ( براندون كارتر Bramdon Carter ) الذي يقول : « إننا ننظر إلى الكون على أنه يستهدف الحياة والإنسان » . ويقرأ قول العالم ( فريمان داين Freeman Dyon ) الذي يقول : « إذن فخواص المادة على أصغر نطاق ، وعلى نطاق الكون كله تبدو ملائمة للحياة ملاءمة فذّة محكمة بارعة . وإن حدوث أدنى زيادة أو نقصان في مقادير العناصر الثابتة ، يجعل من الحياة في كل حالة أمراً مستحيلاً » فهذا القول اعتراف من هذا العالم أن هناك إلهاً قادراً عليماً ، خلق المادة وخواصها على صورة ملائمة لظهور الإنسان ، وباتزّان بين عناصره اتزاناً ، ما إن يختلّ زيادةً أو نقصاناً ، حتى يختل الخلق كله بأجمعه .

وهذا العالم ( جون ويلر ) صاحب نظرية الانكماش العظيم ، يقول صراحة : « لماذا يكون العالم بهذه العظمة والأحكام ؟ يكون كذلك لأننا موجودون فيه . فعظمة الكون وإحكامه يعتبران سبباً في جعل الحياة ممكنة » . وقوله هذا هو ما عبّر عنه القرآن المجيد بقوله تعالى في سورة الأنعام /٧٣/ : ﴿ **وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق** ﴾ ... بمعنى أنه تعالى خلق هذه السماوات المؤلفة من مليارات الشموس لمهمة جليلة ، هي المساعدة على ظهور الحياة على الأرض التي **بسطها** فمهدّها لتحقيق هذه الغاية الحقّ ذاتها .

وقد أضاف العالم ( جون ويلر ) قوله : « إن الحياة لم تأت إتّفاقاً ، بل على نقيض ذلك ، فإن ميكانيكا الكمّ قادتنا إلى أن نأخذ بجديّة ، ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً ، وهي أن المراقب لازم لخلق الكون ، لزوم الكون نفسه لخلق البشر المراقب ، هذا بالرغم من أن الإنسان ليس مادة في مركز الكون ، بل هو على ما يبدو ، في مركز الغاية من خلق الكون » .

وتزيد هذه الأقوال جميعها ، إيمان هذا المسلم المثقف المفكّر على إيمانه ، ويترسّخ في فؤاده أن القرآن المجيد أكدّ أن الله تعالى اختصّ هذا الكوكب الأرضي بالحياة من دون سائر الكواكب الأخرى هادفاً بذلك خلق الإنسان من تربته وإعادته فيها ، وإنشاءه نشأة أخرى يوم النّشور منها أيضاً ، لقوله ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

والمهم من ذلك كله ، هو أن الشخص الذي يتدّبر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً . فلا محالة يجد بين دفتّي هذا الكتاب جواب السؤال المطروح ، وهو هل اختصّت الأرض بظهور الحياة من دون الكواكب ، ولماذا ؟ .

كما يتبيّن له أن القرآن المجيد ، لم يعرض إجابته تعالى على طريقة بعض الكتاب التقليّديين ، فجّة جافة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته إجابة سائغة سلسلة ، سهلة الورود على الطبع ، شائعة متقبّلة ، تروقك وتؤنسك . وقد صاغ الله تعالى إجابته هذه بمنتهى البراعة والبيان ، وهكذا يكون قد تمّ إيصال المعنى المطلوب إلى الفؤاد ، في أحسن صورة من اللفظ ، وأتى ذلك على طريقة التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التلقّين . وبهذه الطريقة أثبت تعالى في الأذهان عاشر عنصر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## السؤال الحادي عشر : ما الأدوار الجيولوجية التي مرّت بها الأرض في تطوّرها ؟

كان قد شاع في العالم القديم أن الأرض محمولة على قرن ثور ، ولم تكن لدى الناس فكرة عن نشوء الأرض وتطورها ، أو عن الأدوار الجيولوجية التي مرت بها .

ولكن ما إن نزل القرآن المجيد ، إلا وظهر للعيان ، من خلال دلالات آياته الكريمة ، أن الأرض التي نعيش عليها ، إنما هي عبارة عن كوكب سيّار ، يدور في الفضاء حول الشمس ، كما يدور القمر حول الأرض . هذا ما دلّت عليه كلمة ( الأرض ) نفسها ، وكما دلت على ذلك آيات عديدات أيضاً . فانتفى بذلك من أذهان المؤمنين بكتاب الله القرآن المجيد ، ما سلف من أساطير .

وقد ظلت الشعوب الأوروبية ، تعيش في ظلام دامس ، وجهل مطبق ، بل كان قساوستهم يعتقدون أن الأرض مركز هذا الكون . وحين نهض من بينهم عالم ، فبيّن في كتابه ( دوران الأجرام السماوية ) الصادر عام ١٥٤٣م أن الأرض كرة تدور حول الشمس ، وكان يدعى ( كوبر نيكوس ) ، هبّ القساوسة من فورهم يُكفّرونه ويندّدون بكتابه ، بل وطالبوا بإعدامه . وقد تستغربون وتتساءلون : أيّ ذنب اقترفه العالم المذكور ؟ فيزول عجبكم إذا علمتم أنّ القساوسة اعتبروا نظرية ( كوبرنيكوس ) إهانة للجنس البشري كله . ذلك أنهم علّلوا تكفيرهم للعالم المذكور ، بأن الإنسان يعيش في هذه الأرض ، وهو مركز العالم ، فالأرض إذاً هي مركز العالم . فإن قال أحد من الناس أن الأرض تابعةً للشمس ، تدور حولها ، فقد انتهك قداسة الإنسان نفسه ، وجعله تابعاً ، لا متبوعاً ، لذلك يستحيل أن تكون الأرض تابعة للشمس ، تدور في فلكها . بمثل هذه الحجّة الواهية ، ناهضوا رأي ( كوبرنيكوس ) ، وكادوا يحقّقون مأربهم بإعدامه ، لو لا أنه أظهر لهم التّوبة مُمالأة منه ودهاء ، فقال إن الشيطان سّول له ، فوسوس إليه بهذا الخاطر . وانتهت قضّيته عند هذا الحدّ . لكن العقلاء أدركوا صحّة أدلّته التي قدّمها على كرويّة الأرض ودورانها حول الشمس . وكانت هذه الحادثة ، حدثاً هامّاً أيقظ الأوربيين المثقّفين من

سُباتهم ، فبدؤوا ينأون بمعتقداتهم عن تعاليم الكنيسة بل راحوا يبحثون عن نشأة الأرض ، وعن الأدوار الجيولوجية التي مرّت بها خلال نشوئها وتطوّرها. فوضعوا مختلف النظريات التي تبحث هذا الموضوع .

وإنني أكتفي هنا بالكشف عن النظريّة ، الأكثر شيوعاً في زماننا المعاصر ، والتي وضعها المتأخرون من العلماء الأوربيين .

فقد ذهب هؤلاء إلى أنه كانت هناك سحابة غباريّة غازيّة في منتهى السّعة ، تدور في هذا الفضاء الفسيح . فأخذت الجاذبية المُنبعثة من وسطها ، تؤثر في هذه السحابة ، فبدأت هذه تنكمش ببطء في الفضاء ، وتتضاغط ذراتها ، وتتداعى شيئاً فشيئاً ، حتى أصابها ، ما يصيب الماء في الحوض ، إذا أصاب فيه ثُقباً ، فإنّه يدور حول الثقب ، ويتداعى لينطلق خارجاً من الحوض ، وقد أصاب هذه السحابة الغبارية الغازية ، ما أصاب الماء من جرّاء الدّوران والانضغاط ، فتكونت في وسطها نواة مركزية كبيرة ، كما تكونت فيها دوّامات صغيرة ، ما لبثت أن أصبحت كُتلاً أخرى أصغر من الكتلة المركزية . وتحولت الكتلة المركزية هذه ، فتولّدت منها الشمس المعروفة ، كما تحوّلت الكُتل الأصغر ، فتولدت منها هذه الكواكب التي أضحت تدور حول الشمس ، كالأرض والقمر والمشتري وزحل وسواها .

هذه صورة موجزة لأحدث النظريات الغربية شيوعاً ، كما قلت ففيما يتعلّق بكتلة كوكب الأرض ، ذهب العلماء إلى أنها كانت باردة في بادىء الأمر ، ولكن تولّد عن احتكاك غبارها وغازاتها ، ثم انضغاطها وتداعيها نحو المركز ، حرارة أخذت تتعاظم ، حتى آلت بكتلة الأرض ، إلى كتلة ناريّة سائلة من المركز إلى السّطح . وطرأت أسباب عديدة ، جعلت السطح الخارجي يبرد ويتصلّب ، حتى تكّون منه هذه القشرة الأرضية التي نعيش على أديمها . وفي رأيهم أن تكوّن هذه القشرة ، حدث قبل أربعة إلى خمسة آلاف مليون عام مضت من يومنا هذا . كما ذهبوا إلى أنه قد أعقب تبّرد قشرة الكرة الأرضية ، أن تكاثفت الغازات التي كانت تملأ الجّو من حولها ، فتكونت

منها طبقة من المياة الخليطة غطّت وجه الأرض . وكانت تلك المياه خليطاً من ( غاز الميثان Methane ) والنوشادر وثاني أكسيد الكربون . وقد انحلّت هذه الأنواع من الغازات ، في مياه المحيطات ، على مرّ الزمان ، فنشأت الأحياء في هذا الوسط الذي ذكرناه ، وقد حيّرت نشــأة الحيـاة هذه علمـاء أوروبة ، فلم يتوصّــلوا حتى هذه اللحظة ، إلى حقيقةٍ علميةٍ مُسْلمةٍ في هذا المضمار .

وهذا ، جعـل العـلمـاء الأوروبيين يُنقبّون ويتتّبعون آثار نشـأة الحياة بمختلف الوسـائل والأسـاليب ، وقد عثروا على أقدم آثار الحياة في صخورٍ قدّروا عمرها بـ /٢٧٠٠/ مليون عام ، فذهبوا من ذلك ، إلى أن نشأة الحياة تعود إلى تاريخٍ أقدم من التاريخ المذكور . وقد قسّموا الأزمنة الجئولوجية إلى ستة أدوار ، فذهبوا إلى القول بأن ما أسموه ( بدائيـة النّوى ) كالبكـتريا والطحـالـب الخضراء والكُمبرى ، قد ظهرت جميعها في القرن الأول من هذه القرون الزمنية . كما ذهبوا إلى أن ما أسموه ( حقيقية النّوى ) التي تعني سائر الأحياء ، قد ظهرت في القرن الجئولوجي الثالث . وأوّل هذه الأحيـاء ، الأحيـاء ذوات الأجزاء الصّــلبـة ، وتبعتها الثديّيات فالدّيناصورات وقد انقرضت هذه لأسباب مجهولة ، لم يستطيعوا تحديدها بشكل علمي ثابت . ثم نشأ الإنســان على وجه الأرض . وكانت خلال المرحلة الســابقـة لنشـوئه قد تكّونت المحيطات والجبال والأنهار .

وخلاصة ما تقدّم جميعاً ، هو أن الأوروبيين ، والعلماء منهم خاصّة ، إذا سُئِلوا عن الأدوار الجئـولوجيــة التي مرّت بهـا الأرض خلال نشـوئها وتطورّها ، أوجزوا الجواب فقالوا : إن الأرض نشـأت خلال دورين عظيمين متميّزين . ثم مرّت على الأرض بعدها ستّـة أدوار جئولوجيـة نشــأت خلالها بدائيـات النوى ، وحقيقيات النوى ، والمحيطات والجبال والأنهار .

فلنأت الآن صوب المسـلم العادي ، الذي لم يطّلع على ما توصّـل إليه علماء أوروبة من آراء ونظريات حول الأدوار التي مرت بها الأرض ، فإذا سـألناه سؤالنا

المطروح ، أخذ بأيدينا ليتلو علينا آيات من سورة السّجدة ، منها قوله تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها ، في أربعة أيّام ، سواءً للسّائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرهاً ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كلّ سماء أمرها ، وزيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، ثم يأخذ بأيدينا إلى ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات ، قال : « هذا المكان فيه تفصيلٌ لقوله تعالى ﴿ **خلق السماوات والأرض في ستّة أيام** ﴾ ... ففصّل ها هنا ما يختصّ بالأرض ، ممّا اختصّ بالسماء ، فذكر أنه خلق الأرض أولاً ، لأنها كالأساس ، والأصل أن يُبدأ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قال تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السّماء فسّواهنّ سبع سماوات** ﴾ الآية فأما قوله ﴿ **أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها ... والأرض بعد ذلك دَحاها** ﴾ . . ففي هذه الآية أن دَحْو الأرض كان بعد خلق السّماء ، فالدّحو هو مفسّر بقوله ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ ،وكان هذا بعد خلق السّماء . فأما خلق الأرض ، فقبل خلق السّماء بالنّص . وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه » .

ولنأت الآن صوب المسلم المثقف نسأله سؤالنا المطروح . فهو لا يتعجّل الإجابة ، بل يمضي ليبحث عن مفردات كلمات هذه الآيات الكريمة في معاجم اللّغويّين ، لينتقي من هذه المعاني ما يناسب المقام وتسلسل الآيات الموضوعي .

فهو يتذكر أنه طالع سابقاً معنى اليوم ، فدلالته الدّور والحين والزمن مُطلقاً . ويراجع معنى ﴿ **أنداداً** ﴾ التي هي جمع ندّ . فقد ورد في معجم المقاييس أن معنى الندّ هو الإنسان الذي يُنادُّ في الأمر ، فيأتي برأي غير رأي صاحبه . والندّ هو المِثْل ، ولا يكون إلا مخالفاً . كما يلاحظ أن بقية المعاجم تؤيد ما ذكره صاحب معجم

المقاييس . ثم يُطالع معنى ﴿ **جعل له** ﴾ فيجد أنها تعني : صنع وهيّأ وأعطى له . كما يطالع معنى ﴿ **بارك فيها** ﴾ فيجدُ أنها تعني : جعلها مباركة ، أي مصدراً للرزق والمعاش وبشكل ثابت ودائم العطاء . على حسب قولك : بركَتِ السّحابة أي دام مطرها . والبروك يعني الجلوس . ثم يطالع معنى ﴿ **سواء للسائلين** ﴾فيجد أنّها تعني صنعها وهيأها مُشاعةً لجميع من يطلبون منها الرزق والمعاش .

وهنا يبحث المسلم المثقف عن المخاطب المقصود في هذه الآيات الكريمة ، على ذلك أنه يلاحظ أن كلمة ﴿ **أنداداً** ﴾ لا تعني المعبودات من الأصنام . فالمشركون كانوا يعبدون الأصنام لتقرّبهم زلفى من الله ، فلم يجعلوها ﴿ **أنداداً** ﴾ لله عز وجل .

وهو يتابع مواضع استعمال ﴿ **أنداداً** ﴾ في كتاب الله ، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً . فتواجهه خمسة مواضع غير هذه الآية . وتتراءى فيها الإشارة إلى أنظمة الحكم غير الدينيّة ، هذه الأنظمة التي اتخذت قوانينها الوّضعية ، والتي اتّجهت وجهة لم يُقرّها عليها كتاب الله تعالى . أنظمة الحكم المؤلفة من الرؤساء والمتبوعين ، الذين اعتبرهم الله تعالى كافرين بنعمائه ، مُضّلين عن سبيله ، والمقدّر أن تكون عاقبتهم النّار والتّبار .

فالموضع الأول ، هو الآية /٢٢/ من سورة البقرة ، حيث حذّر الله تعالى فيه مخالفة هؤلاء لآرائه وتعاليمه عز وجل ، قائلاً : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . والموضع الثاني الآية /١٦٥/ من سورة البقرة نفسها حيث حذّر الله تعالى من أن يخصّوا الأنداد بمحبّة تضارع المحبة التي يختصّون بها الذات الإلهية ، قائلاً ﴿ **ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً ، يحبّونهم كحبّ الله ، والذين آمنوا أشدّ حُبّاً لله** ﴾ .... والموضع الثالث الآية /٣٠/ من سورة إبراهيم ، حيث حذر هؤلاء الذين يتخذون ﴿ **الأنداد** ﴾ ليضلوا بها الناس ، وينأوا بهم عن سبيل الله تعالى ، قائلاً : ﴿ **وجعلوا لله أنداداً ليضلّوا عن سبيله ، قل تمتّعوا ، فإنّ مصيركم إلى النار** ﴾ . والموضع الرابع الآية /٣٣/ من سورة سبأ ، حيث يتنبأ سبحانه وتعالى عمّا سيقع يوم العذاب من التلاوم بين المستكبرين عن عبادة الله وأتباعهم من

المستضعفين ، وقد شاركوهم في اتّخاذ ﴿ **الأنداد** ﴾ ، فاستحقوا العذاب جميعاً ، بقوله : ﴿ **وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ، بل مَكْرُ الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعَلَ له أنداداً ، وأسّروا النّدامة لمّا رأوا العذاب** ﴾ . والموضع الخامس الآية /٨/ من سورة الزمر ، حيث أطلق الله تعالى لقب ( الطّاغوت ) لكل رأس من رؤوس الضلال ، الذين اتخذوا ﴿ **الأنداد** ﴾ ، فأضلّوا العباد عن سبيل الله ، قائلاً ﴿ **ثم إذا خوّله نعمةً منه ، نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليُضّل عن سبيله ، قل تمتّع بكفرك قليلاً ، إنك من أصحاب النار** ﴾ .

ويلاحظ هذا المسلم المثقف أن الله تعالى ، في كل مرّةٍ . ذكر فيها الأنداد ، نبّه إلى عظمة ربوبيّته ونعمائه التي أنعمها على الإنسان . هذه النعماء المتجلّية في خلقه للأرض والسماوات ، وتسخيرهما للإنسان ، وقد عبّر عن ذلك بقوله ، وفي نفس المواضع ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً ، فأخرج به من الثمرات رزقاً ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ البقرة /٢٢/ . وتارة بقوله تعالى ﴿ **إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح ، والسّحابِ المسخّرِ بين السّماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله ، والذين آمنوا أشد حُبّاً لله** ﴾ ... البقرة /١٦٥/ . ونحو ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم ﴿ **الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السّماء ماءً ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره ، وسخّر لكم الأنهار . وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخّر لكم الليل والنّهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصوها ، إن الإنسان لظلومٌ كفّار** ﴾ إبراهيم /٣٣/ .

وراح تعالى يصف الذين آمنوا به ، وتبرؤوا من هؤلاء الأنداد ، واعترفوا بنعماء ربّهم عليهم ، راح يصفُهم في سورة الزمر قائلاً ﴿ **أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربّه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنّما يتذكّر أولوا الألباب** ﴾ .

فحين يبلغ هذا المسلم ، هذا الحدّ من التّحقيق ، تتراءى لعينيه بآيات سورة السّجدة دلالات أوسع مدى ، وأعمق غوراً ممّا ذهب إليه المسلم العادي وابن كثير . فهو يدرك أن الخطاب موجّهٌ أصلاً لمن خبطوا خبط عشواء ، في مواضيع خلق الأرض والأدوار التي مرّت فيها ، هؤلاء المتخرّصين والمتناسين لوجود ربّهم ونعمائه التي أنعمها عليهم ، المهملين للنهج العقلاني الذي جاء به الإسلام ، وهو ضرورة الرجوع في أمور الغيبيّات إلى عامل الوحي المساعد في هذا المضمار . فالخطاب مُوجّهٌ أصلاً إلى هؤلاء ﴿ **الأنداد** ﴾ والذين اتخذوهم من دون الله ، والذين آثروهم بحبٍّ فوق حُبّهم الله ، أنّ مصير هؤلاء جميعاً إلى النّار والتبّار . وكأن مضمون هذه الآيات يتفّق مع مضمون آيات سورة الأنبياء التي خُوطب بها أُناس أشبه ما يكونون بأهل عصرنا .

يستشفّ المسلم المثقف كل هذه الدلالات من خطابه تعالى بقوله ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك ربّ العالمين** ﴾ . أي كيف تتناسون عظمة رب العالمين ـــ أشار إلى معنى العظمة اسم الإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ ـــ الذي خلق لكم هذا الكوكب الأرضي في دورين أو مرحلتين زمنيتيّن متمايزتين . فما لكم تتخذون له أنداداً يدّعون من القوة ، ما لا يملكون ، ويفترون على الله ما ليس في كتابه الحكيم ، أفَلَم يُخبركم الله جلّ شأنه في كتابه القرآن المجيد ، وقد أنزله منذ أربعة عشر قرناً ، أنه خلق الأرض في يومين ، أي في مرحلتين زمنيتيّن متمايزتين ، فكان لها شكلُها الرّاهن ، وأنه بسط الأرض بعد ذلك ونصب الجبال وأرساها وبارك في الأرض ، فأعدها لتكون للإنسان معاشاً تمدّه بعطائها الدائم ، ﴿ **وقدر فيها أقواتها** ﴾ بمعنى أنه كلّما انقضت حُقبة من الزمن تكشّفت فيها مصادر

للخير جديدة كالطاقات التي تولدت بالنّفط والكهرباء والذّرة وأشعة الشمس ، **فعل** كل ذلك في أربعة أدوار زمنية متمايزة أيضاً .

فالله تعالى قدّر في هذه الأرض أقواتها التي يحتاج إليها سكانها ، في كل زمان ، ولن ينفد عطاء الأرض في يوم من الأيام ، كما يتخوّف هؤلاء الأنداد وأتباعهم . وإن رب العالمين قد حقق لكم جميع ما ذكرناه في أربعة أزمنة متمايزة وتقولون أنتم أنها ستة أدوار جيؤلوجية ، فهذا لا يُناقض أن الأرض بعد أن أخذت شكلها المعروف ، قد مرّت بأربعة أدوار حسب تقسيمنا النابع من ترتيب ما ذكرناه من أمور . وقد جعلنا كل هذا ﴿ **سواء للسائلين** ﴾ أي أن عطاءاتنا لم نحصرها في فئة المؤمنين بوجودنا ، والمُقّرين بنعمائنا عليهم ، بل جعلنا عطاءاتنا مُشاعةً لجميع الناس ، وفي مختلف العصور ، ذلك أنّ رحمتنا وسعت كل شيء .

وعندما يبلغ المسلم المثقّف هذا المبلغ من العلم ، ويلاحظ مدى تطابُق ما أخبرنا به في كتابنا قبل أربعة عشر قرناً ، وما توصل إليه علماء القرن العشرين ، يزداد إيماناً بعظمة الله تعالى وكتابه القرآن المجيد ، على إيمانه .

والمهم من ذلك كلّه ، هو أنّ من يتدبّر القرآن المجيد ، سواءً أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، فإنّه يجد جواب السؤال المطروح عن الأرض وتطوّرها والأدوار الجيؤلوجية التي مرّت بها . فقد عرضت النظرية القرآنية الكونية لموضوع هذا السؤال وأجابت عنه إجابة صريحة وواضحة ، فوضّحت أن نشوء الأرض قد تحقّق على مرحلتين وفي زمانين متغايرين . وأن الأرض بعد أن تكامل وجودها مرّت بأربعة أدوار زمنية ، نصبت خلالها السلاسل الجبليّة ، وتشكلت مصادر الرزق في بطونها ، مصادر خيرٍ لا ينضُب ولا ينقطع في يوم من الأيام . وقدّر الله تعالى بذلك أقواتها اللازمة لجميع الأحياء سواء للسائلين .

أفلا يلاحظ قارئنا الكريم ، كيف جاءت إجابة القرآن المجيد عن السؤال المطروح مخالفة للطريقة التقليدية التي درج عليها الكُتّاب ، فلم تكن فجّةً جافّةً ، بل أتت سائغة

سلسلة سهلة الورود على الطبع ، مقبولة . وقد صاغها الله عز وجل آيةً في البراعة والبلاغة ، لتأخذ سبيلها إلى القلب . أقول دخلت على القلب دخول المأنوس به ، فقبلها قبول المتهيِّء لها ، المطمئن إليها ، ذلك أنه أتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب الذي يُعدّ على صعيد علم النفس أرفع أساليب التّلقين . وبهذه الصورة أثبت عز وجلّ في الأذهان العنصر الحادي عشر ، من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى الوجود .

## السؤال الثاني عشر : كيف بدأت نشأة الإنسان على الأرض ؟

لقد راوح الكلام قديماً عن نشأة الإنسان على سطح الأرض ، ما بين مجازٍ وأساطير ، بعيداً عن الحقائق العلمية . هذا ، وإن كَتَبَةَ سفر التكوين من التوراة المعاصرة المحرّفة ، نهجوا في بيانهم هذا النهج . فذهبوا إلى أن الله تعالى جبل تُراباً ، فخلق منه آدم . وانتزع ضلعاً من صدر آدم ، فخلق منه حوّاء . وكان هذان أوّل ما خلق الله تعالى من الجنس البشري . ولكن لم يخطر ببال هؤلاء أنه لا يصحّ أن تنشأ عدّة عروق ، كالأسود والأحمر والأصفر من عرق واحد ، وهو عرق آدم نفسه . فجاءت قصّة آدم في سفر التكوين بعيدةً كل البعد عن الحقيقة ، والأساس العلمي .

وأنزل ربّنا كتابه العظيم القرآن المجيد ، فنبّه من خلال آياته الكريمة إلى نشأة الإنسان ، وإلى الأطوار التي قطعها على طريق نشوئه . ولم يستطع العلم حتى يومنا هذا دحض أي معلومة قرآنية في هذا المضمار . بل تكشفت على العكس من ذلك ، صّحة الحقائق التي أتى بها القرآن المجيد ، وما زالت تتكّشف يوماً بعد يوم .

وقد ضلّلت قصّة آدم التوراتية الشعوب التابعة لها . وتمردّت على تلك القصة فئة علماء القرن التاسع عشر من الذين تحرّروا من الأفكار الكنسيّة ، واتبعوا ما جاءت به النظرية الداروينية من آراء حول نشأة الإنسان . فلمّا هلّ القرن العشرين ، وظهرت النظرية النسبيّة ، ارتقت الوسائل العلمية ، وطغت نظرية « الإنفجار العظيم » على العقول ، بدت النظرية الداروينية واهنةً باهتةً في أعينهم . فمالوا إلى اعتقاد أن كوننا

هذا مخلوق ، لا يتجاوز عمره ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار عام . كما تجاوزوا تفسير الأشياء بمنظار المصادفة والضرورة ، إذ تبيّنت لهم ملامح عقلٍ مُطلق ، هادف من وراء خلقه لكل شيء خلقه في هذا الوجود . وقد سبق أن اقتبست لكم بعض أقوال هؤلاء العلماء ، أمثال الفيزيائي ( هنري ماجينو ) والعالم ( بورتمان ) والشاعر ( ثورو ) وسواهم من العلماء .

تتساءلون عن سّر موقف العلماء المتأخّرين الأوروبيين من النظرية الدّاروينية . هذه النظرية التي اعتنقها أسلافهم من العلماء ؟ .

ألا فاعلموا أن هؤلاء العلماء ، قد تبيّت لهم نواحي ضعف كثيرة في النظرية الداروينيّة ، فانصرفت أذهانهم عنها . وإليكم بعضاً من النقاط الجوهرية التي كشفت لهم عن هذا الضّعف :

**أولاً ــ** قد علمتم سابقاً أن طغيان المادية على كل شيء في أوروبة ، قبيل ظهور النظرية الداروينية ، قد دفع دارون ، عن غير شعور منه ، إلى تعليل نشأة الإنسان عن طريق قفزات نوعية ، وبطريق النشوء والارتقاء . فلمّا ظهرت نظرية الإنفجار العظيم ، التي أثبت أصحابها ، عن طريق ميكانيكا الكمّ أنّ عمر الكون لا يتجاوز ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار عام ، وأنّ المادة ليست أزلية ، زعزع هذا الحدث الهام ثقة العلماء بالنظرية الداروينية ، وحملهم على إعادة النظر في موضوع إمكانية نشوء الحياة من وسطٍ مادي تلقائياً . وكثُرت أبحاثهم في هذا المجال ، إلى أن أجرى العالم ( باستير ) تجربته الشّهيرة في جهاز صمّمه لهذه الغاية ، وكان جهازاً عبقري التّصميم . فحطّمت تجربة باستير هذه جميع الاعتراضات ، وأثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ ، أنّك إذا استخدمت جهازاً مُعقّماً ، ووضعت داخله أغنى المُخمّرات ، وأكثرها إغراءً ، فلن يظهر خلالها أي أثر للحياة ، ولو كان ثمّة منفذٌ حرٌّ للهواء في الجهاز المذكور ، على أن يحتاط صاحب التجربة ، فيمنع دخول أي كائنٍ حيٍّ دقيقٍ من الوصول إلى وعاء التجربة . وجاءت تجربة ( باستير ) هذه ، ضربةً قاصمةً للداروينيّة .

**ثانياً ــ** وقد لاحظ هؤلاء العلماء أنّ طفولة المولود عند الإنسان ، هي أطول زمناً منها عند الحيوان . بل هي تمتدّ إلى عدّة سنوات . فانتبهوا إلى أنه لو كان خلق الإنسان قفزةً نوعيّة عن الحيوان ، لقضى المنطق بأن تقلّ فترة طفولته ، إلى أقصر ممّا هي لدى الحيوان ، لا أن تزداد . ففكّروا في الأمر ، فلاحظوا أن امتداد زمن الطفولة ، قد رافقه ظهور ملكة العقل والإرادة لديه . وهذه الأمور مجتمعةً تساعده على تلقيّ حصيلة تجارب والديه ، وما لديهم من معلومات . إضافةً إلى أنّ ملكة الفكر تفيده في إضافة معلومات جديدة ، إلى معلوماته الخاصّة . وبهذه الصورة يحدث التّراكم العلمي ، وينمو تراثه ، فيمتاز بذلك عن الحيوان . وأدركوا أنّ مثل هذه الخطوة التّطورية ، يستحيل أن تتأتّى عن قفزةٍ نوعيه . ذلك أن الطبيعة العمياء ، لا يُعقل أن تخطّط مثل هذا التخطيط الواعي ، لمثل هذه القفزات النوّعية . وهكذا تزعزعت ثوابت النظرية الداروينية في نظر المفكّرين .

**ثالثاً ــ** وقد لاحظ العلماء أيضاً أموراً لا يستطيع منطق المصادفة والضرورة تفسيرها ، تفسيراً علمياً . ولم يكن بمقدورهم تفسيرها ، ما لم يعترفوا بوجود عقلٍ مُطلقٍ يخطّط لهذه الأمور . وقد سبق أن اقتبست لكم من كتابات ( هنري مارجينو ) وأدولف (بورتمان ) و( فرانسيس كريك ) والشاعر ( ثورو ) بعضاً من أقوالهم واعترافاتهم على هذا الصعيد . وقد رأيتم أن العلماء لاحظوا وجود قدرٍ وافٍ من الجمال في كل مكان ، وعلى جميع المستويات ، الأمر الذي يعجز منطق المصادفة والضرورة عن تفسيرها . كما لاحظوا في طبيعة صوت الإنسان نفسه ، أنّ مواهبه الموسيقيّة لا تفسّرها المصادفة أو الضرورة ، ولا تعود هذه الملكة على الإنسان بمنفعةٍ في شؤونه الحياتيّة اليومية . وعلاماتها الفارقة أشكالاً لا تفسّرها المصادفة ولا الضرورة .

هذه المسائل الجوهرية ، كشفت عن مدى ضعف النظرية الداروينية ، بل أوهنت مكانتها في أعين العلماء والمفكرين . وقد زرت لندن منذ سنوات لحضور

مؤتمر إسلاميّ عقد في انكلترا ، وقد دُعيت لحضوره . فزرت متحف لندن ، وكان يحتوي على تمثالٍ لداروين . فسألت مسؤولاً في المتحف : هل تعتقد مُعتقده ؟ أجاب : يكفي أن داروين رفع اسم بلاده انكلترا ، وهذا التمثال تكريماً لعلمه ، فليس ضروريّاً أن نعتنق نظريّته . وكان جوابه دبلوماسياً .

وأنا أقول : لقد أصاب داروين ، حين كشف عن وجود قانون النشوء والارتقاء في هذا الكون . ذلك أن القرآن المجيد نبّه إلى وجود مثل هذا القانون . لكنّ داروين قد أخطأ حين ربط ما بين الحلقات الحياتية بما سماه « قفزاتٍ نوعية » . إذ أن الحقيقة التي صرّح بها القرآن الكريم ، وأثبتها الكشف العلمي ، تتجلّى في أن كل نوعٍ من الأنواع الحيوانية ، إنّما تولّد مستقلاً عن سواه يقيناً ، وكذلك الإنسان .

لا شك أن النظرية الداروينية زادت علماء القرن التاسع عشر الأوروبيين بُعداً عن جادّة الصواب . لكن نظرية « الإنفجار العظيم » ، وتجربة « باستير » واكتشاف العلماء للأمور التي ذكرناها ، والتي لا تفسّرها المصادفة ولا الضرورة ، أخذت بأيدي هؤلاء العلماء الأوروبيين المتأخّرين لتصرفهم عن أفكار التوراة والنظرية الداروينية ، وتتجه بهم مجدّداً نحو جادة الصّواب . ومع ذلك ، فما زال هؤلاء العلماء ، أعجز من أن يستطيعوا الإجابة إجابة « شافية » عن نشأة الإنسان وفقاً لسؤالنا الذي طرحناه .

وإذا أتينا الآن صوب المسلم العادي ، نسأله سؤالنا هذا فإننا نلاحظه يتلو علينا آياتٍ متعلّقةٍ ببعثة آدم عليه السّلام . وهي آيات عديدة قد وردت في مواضع عديدة من كتاب الله العظيم . يتلو علينا مثلاً قوله تعالى في سورة البقرة ، الآية ٣١ : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدّماء ، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

فيذهب ذهن هذا المسلم العادي إلى تلك الآيات المتعلّقة بآدم ، أنّ آدم هو أوّل بشرٍ خلقه الله تعالى على سطح هذه الكرة الأرضية . يذهب ذهنه إلى ذلك بصورة

عفوية ، بسبب وقوع المفسّرين في هذا الخطأ الفاحش ، والذي يُعتبر في نظرنا أثراً من آثار تأثير ما ورد في سفر التكوين من التوراة المعاصرة . وقد فات هذا المسلم العادي ، ومن على شاكلته ، فاتهم ملاحظة الأمور التالية في تلك الآيات :

**أولاً ــ** أن تلك الآيات الكريمة نصّت على أنّ آدم لم يكن أول مخلوقٍ من بني الإنسان . بل كان أوّل نبيٍّ مرسل . وقد صّرح ربّنا بهذا الأمر في سورة آل عمران حيث قال هناك : ﴿ **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ . فهذا نصّ قرآني صريح ، وضّح لنا أن الله تعالى اصطفى آدم ، على شاكلة ما اصطفى بقيّة رسله الكرام .

**ثانياً ــ** ثم إن الآيات الكريمة التي تكلمت على آدم ، سُميّ فيها آدم باسم ( خليفة ) ، وذلك في قوله تعالى ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ ... ، وخليفة الله لا يكون إلا نبيّاً مرسلاً ، لقوله تعالى في سورة ( ص ) ٢٦ ﴿ **يا داوود إنّا جعاناك خليفةً في الأرض** ﴾ .... فالألفاظ واحدة في الآيتين . وهل كان داوود إلا نبياً ؟ أضف إلى ذلك أن لفظ الخليفة نفسه ، يشير إلى وجود أُناسٍ مُستخلفين من قبل الله عز وجلّ . ولا تدل كلمة ( خليفة ) على كون آدم أول مخلوق ، بأيّ حال من الأحوال .

ثم إن فعل ( جاعل ) ، في قوله تعالى ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ لا يعني الخلق ، بل يعني الصيّرورة . تقول جعلتك وزيري ، أي صيّرتك ونصّبتك أو وليّتك ، لا خلقتك .

**ثالثاً ــ** وأن قول الله تعالى في سورة ( ص ) الآية /٧١/ ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين** ﴾ . احتوى هذا البيان الإلهيّ على ثلاثة أمور هي :

١ ــ إني خالق بشراً من طين .

٢ ــ فإذا سوّيته .

٣ ـــ ونفخت فيه من روحي .

فهذه الأمور الثلاثة تعني بيان خلق الإنسان من طين أولاً ، وتسويته ثانياً ، والنفخ فيه من روح الله ثالثاً . وهذه تقديرات إلهيه اتخّذها ربّنا قبل خلقه للإنسان ، وقد قضى بها ، فحقّقها تدريجياً ، وعلى مراحل زمنية متفاوته ومناسبة .

فقد حقق جلّ شأنه تقديره الأول عن طريق إنبات الإنسان من طين . وحقق تقديره الثاني في مدّة لا يعلمها إلا الله عز وجل . ويطلق العلماء على إنسان هذا الدّور اسم ( رجل الكهف Cave Man ) . لأن إنسان هذا الدّور لجأ في سُكناه إلى المغاور ، محافظة منه على نفسه من العوامل الجويّة ، واتّقاء هجمات الوحوش . وتمت عمليّة تسوية الإنسان في هذا الدّور ، فقد اكتمل وعيه ، وأضحى مؤهّلاً للنفخ فيه من روح الله عز وجل .

وحقق الله تعالى تقديره الثالث ، وذلك باصطفائه لآدم من بين سكان الكهوف . فحمّله رسالته إليهم ، ليؤسّس معهم أوّل تعاونيّةٍ في تاريخ الإنسان . وهي ما ورد تسميته عن غير قصدٍ من صاحب التّسمية « المشاعة البدائية » . ولّما كان بحث ذلك يطول ، فبإمكان القارىء انتظار كتابي المسمّى « خلق الإنسان ونشأته » ، ففيه يجد التفاصيل .

على هذه الصورة تدركون أن موضوع نشأة الإنسان على سطح هذه الأرض ما زال موضع التباسٍ واشتباهٍ بعيداً عن حقيقة ما أفاد به كتاب الله القرآن المجيد .

ولنأت الآن صوب المسلم المثقّف المفكر . فإذا سألناه نفس سؤالنا الذي طرحناه . لا حظنا أنّه لا يستدّل بالآيات التي تكلمت على آدم وبعثته ، على اعتبار أنه وعىٰ أن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن نشأة الإنسان . بل يذهب بنا إلى سورة نوح يتلو علينا منها الآيات ( ١٤ ـــ ٢٠ ) . حيث قال الله تعالى ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تَرَوا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل**

**القمر فيهن نوراً ، وجعل الشّمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ .**

يُلفت هذا المسلم المثقف أنظارنا إلى أن الله تعالى نبهنّا في هذه الآيات الكريمة ، إلى أن نشأة الإنسان لم تتحقّق على ما هي عليه الآن ، بل مرتّ في أطوار عديدة ، حتى بلغت ما بلغته . ذلك أنّ الطّور معناه امتدادٌ في مكان أو زمان . على حسب ما ورد في معجم المقاييس . فمعنى ﴿ **خلقكم أطواراً** ﴾ مّر بكم بعدّة مُدَدٍ من الزمان . فإذا أحب الإنسان معرفة الأطوار التي مرّت بها نشأته ، فما عليه إلاّ تقصيّها من مختلف الآيات والمقامات .

فعلى سبيل المثال ، ورد قوله تعالى في سورة المؤمنون ١٢ ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثمّ أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ . فالخلق من سلالة من طين ، هو طور من أطوار الخلق . والخلق عن طريق النطفة هو طور آخر والخلق داخل الرّحم بإمرار هذه النطفة في ظلمات ثلاث ، هي أطوار أيضاً .

ونلاحظه تعالى ، بعد أن قال ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ ، أضاف قائلاً : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهنّ نوراً ، وجعل الشمس سراجاً** ﴾ ، فما محّل ذكر هذه الأمور في هذا المقام ؟ حكمة ذلك أنه تعالى لفت أنظارنا إلى أن كل شيء في هذا الكون خُلق أطواراً وبغاية تحقيق مقصدٍ وغاية معيّنين . فقد كانت نشأة الكون وأطواره التي مّر بها ، تهدف إلى جعل شمسٍ سراجاً وقمرٍ منيراً . كذلك خلق الله تعالى البشر أطواراً بغاية ظهور محمد رسول الله ﴿ **داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ ، حتى وظهور مهدّي آخر الزّمان قمراً مستمداً نوره من الشمس المحمدية .

ومضى سبحانه وتعالى بعد ذلك ينبهّنا إلى الطّور الأوّل لنشأتنا ، وهو خلق الإنسان ﴿ **من سلالة من طين** ﴾ فقال عنه ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ أي أن نشأتكم الأولى تحققت على شاكلة نشأة النباتات ، فقد أنبتكم من الأرض نباتاً علماً بأن النبت في اللغة هو نماءٌ في مزروع ، ونهدٌ ونشوء وخروج من الأرض . ( المقاييس والمحيط ) .

والذي يُلاحظ ها هنا ، هو أن الله تعالى لم يقل ﴿ **والله أنبتكم من الأرض إنباتاً** ﴾ أي لم يأت بالمصدر المزيد ﴿ **إنباتاً** ﴾ ، بل أتى باسم المصدر الثلاثي [ نباتاً ] ، كعطف بيان . تنبيهاً منه سبحانه وتعالى لأذهاننا ، إلى دور الضّعف الذي أتى على نشأة الإنسان ، في هذا الطّور من نشأته . وقد أشار تعالى في سورة الروم ، الآية ٥٤ قوله ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعفٍ ، ثم جعل من بعد ضعفٍ قوّة ، ثم جعل من بعد قوّةٍ ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير** ﴾ ، أشار إلى طور ﴿ **وأنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ .

يصل المسلم المثقف بنا إلى هذا الحدّ من بيان نشأة الإنسان ، ويتمهّل ليذكّرنا بقول ربنا ﴿ **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ، ولا خلق أنفسهم** ﴾ مضيفاً قوله : إن ربّنا لم يزدنا علماً عن نشأة الإنسان أكثر ممّا علمناه لحكمة لا يعلمها إلا الله وحدة . وهذا شأنه تعالى في إخفاء حقائق الأشياء . ويكفينا هذا القدر ممّا كشفه علينا ربّنا ، هذا القدر الكبير من المعرفة ، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان . يوم لم تكن الشعوب قد عرفت شيئاً مذكوراً عن نشأة الإنسان .

أفما رأينا أن علماء أوروبة في القرن التاسع عشر ، اعتقدوا أزليّة المادة ، فظنوا أن الحياة إنّما نشأت عن طريق قانون النشوء والارتقاء ، كما فهمته النظرية الداروينية ؟ لذلك لاحظناهم سلّموا مع صاحب هذه النظرية أن نشأة الإنسان قد تحقّقت عن طريق قفزةٍ نوعية لنوعٍ من القرود .

أو لا نرى علماء أوروبة المعاصرين ، وإن تداعت النظرية الداروينية في اعينهم وجاءت تجربة ( باستير ) فجزمت باستحالة نشوء الحياة في أغنى المُخمّرات وأكثرها إغراء . وقَضت نظرية الإنفجار العظيم على اعتقاد أزلية المادة . فإنّهم لم يصلوا في موضوع نشأة الإنسان إلى رأي حاسم ، فلا تزال نشأة الإنسان ، تشغل عقول مفكّريهم إلى حدٍّ بعيد .

ويرى هذا المسلم المثقف أن سّر حيرة علماء أوروبة والتباس وجه الصواب عليهم ، إنما يكمن في ابتعادهم عن النهج العقلاني الذي جاء به الإسلام ، وهو ضرورة الاستعانة بوحي السماء في نطاف المغيبّات ، مساعدةً للعقل على إصدار أحكام سديدة في هذا المضمار .

أَوَ لم نَرَ حين استعنّا بوحي القرآن المجيد ، أننا علمنا علم اليقين أن نشأة الإنسان قد تحقّقت :

**أولاً** ــ بعد أن اكتمل ظهور الجبال على سطح الأرض ، لقوله تعالى في سورة الحجر ١٩ : ﴿ **وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ ، أي لصالح نشأة الإنسان .

**ثانياً** ــ وأن نشأة الإنسان لم تتحقّق ، إلا بعد أن استقرّ جوّ الأرض ، وأضحى صالحاً لتنفّس الإنسان ، لذلك تأخرت نشأته عن نشأة النباتات والحيوانات .

**ثالثاً** ــ وأن التّربة الطينيّة السوداء اللازبة ، كانت مهد نشأة الإنسان ، لقوله تعالى في سورة الصافات ، الآية ١١ ﴿ **فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً ، أم من خلقنا ، إنّا خلقناهم من طين لازب** ﴾ . وقوله تعالى في سورة السجدة ، آية /٧/ : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلَقَه ، وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ .

ويضيف المسلم المثقف إلى ذلك قوله : إن من واجب العلماء تحديد المساحات الطينية السوداء التربة اللازبة ، في مختلف بقاع العالم ، والقيام بحفائر في أكثرها

خصباً ، وإلى أعماق كافية ، بحثاً عن إنسـانٍ بدائي الخلقة ، يعود إلى طور الإنسان البدائي ، فقد يدلّهم ذلك على كيفيّة نشأة الإنسان ، ولو على وجه من التقرّيب . هذا ما توحيه آي الذكر الحكيم .

والمهم من ذلك كله ، هو أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواءَ أكان مسلماً عادياً ، أو عالماً نحريراً ، سيجد بين دفّتي هذا الكتاب المقدّس ، جواب السؤال الذي طرحناه حول نشأة الإنسان . ويتبيّن له أن القرآن المجيد لم يعرض إجابته تعالى على طريقة بعض الكُتّاب التقليّديين ، فجّةً ، جافّة ، باردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته سـائغـة مأنوسـةً مقبولةً ، وقد صـاغها آية في البراعة ، فأتت أُكُلها ، فنفذت إلى النفوس ، واستقرّت مطمئنة . وأتى بها على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المُعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التّلقين . وبهذه الطريقة يكون تعالى قد أثبت في الأذهان العنصر الثاني عشر ، من عنـاصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## السؤال الثالث عشر : هل كان وراء خلق الله للإنسان غاية يُراد بلوغها ؟

لم يكن الإنسان القديم على علم باتساع هذا الكون ، على مستوى ما علمه علماء القرن العشرين . ولا كانت للذّات الإنسانية مزيّة التكّريم عن بقية المخلوقات . هذا ما تفيدنا به الحفائر الأثرية عن الإنسـان القديم . فقد كان الإنسان نفسه ، إذا شاء تقديم قرابين بين يدي خالقه ، قدّم أحياناً إبنته أو إبناً من أبنائه ، قرباناً . ويدلّ ذلك على أن ذات الإنسان في نظره لا تفترق عن ذات الحيوان .

وكُلّكـم لابد أن مرّ برؤيا إبراهيم عليه السّـلام ، التي جاء بصددها في سورة الصافّات ١٠٢ ـــ ١٠٧ ﴿ **فلما بلغ معه السّعي ، قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت إفعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من**

**الصابرين . فلمّا أسلما ، وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدّقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين . إنّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبحٍ عظيم ﴾ .**

تلاحظون أن إبراهيم ، لو كان يعرف للذات الإنسانية منزلتها من التكّريم آنذاك ، لجادل ربّه في هذا الموضوع ، أو لكان سأل إسماعيل أباه أن يستفتي ربّه عن تأويل رؤياه .

ثم إن قول الله تعالى هنا ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبحٍ عظيم** ﴾ تؤيّد ما ذهبت إليه . فالإبتلاء هو الامتحان وإشعار إبراهيم من حيث الظاهر بطلب تقديم ابنه إسماعيل قُرباناً . وقوله تعالى ﴿ **وفديناه بذبحٍ عظيم** ﴾ كان إشعاراً ببدء عصرٍ جديد ، يحرّم الله عز وجل فيه تقديم الذات الإنسانية قُرباناً ، كما تقدّم الحيوانات ، تمييزاً لها عن العجماوات .

ولن نذهب صوب علماء القرن التاسع عشر الأوربيين نسألهم سؤالنا المطروح ، لقولهم ، كما نعلم ، بأزلية المادة ، وإنكار وجود الله تعالى ، كما أنكروا وجود أي عنصر روحي غير مادّي .

لكن يشجعّنا ذلك أن نذهب صوب علماء القرن العشرين الأوربيين ، الذين تحرّروا من فكرة أزلية المادة ، ونظروا إلى هذا الكون على أنه محدود العمر ، وخصّوا الذات الإنسـانية بمزيّة التكريم عن العجماوات . خصوصاً وأنّه برز من بين هؤلاء العلماء من دلّ نتاج أقلامهم إمكانية أجابتهم على سؤالنا المطروح .

وعلى سبيـل المثال ، هناك العالم ( جون ويلر Jhon Weller ) الذي تصدّى لنظرية الانكماش العظيم ، كتب يقول : « إننا ننظر إلى الكون على أنه يستهدف الحياة والإنسان . لماذا يكون العالم بهذا الاتساع ؟ لأننا موجودون فيه . فرحابة الكون تُعتبر سبباً في جعل الحياة مُمكنة » . ولا يكتب مثل هذه الكلمات ، إلاّ من خطر لذهنه نفس سؤالنا الذي طرحناه .

كذلك هناك العالم ( فريمان دايسن Freeman Dyson ) كتب يقول : « كلّما ازدادت دراستنا للكون ، وتفحصنا تفاصيل هندسته ، وجدنا مزيداً من الأدّلة على أن الكون كان يعرف ، بطريقةٍ ما ، أننا قادمون » . وهذا العالم يكاد يقول بألفاظ أخرى إن خلق الإنسان كان هو المقصد الأساسي لخلق هذا الكون . وقد أضاف العالم ( فريمان ) نفسه : « فبغضّ النظر عن الظروف الموضوعية الضرورية للحياة ، كان هذا العالم قد رُكّب تركيباً في الإنفجار العظيم ، منذ البادية » . وهذا إقرار من هذا العالم أن خلق الانسان ، كان مُخطّطاً له من الخطوة الأولى لخلق هذا العالم .

ثم إن ( ويلر ) أكّد فيما كتبه قوله : « إن الحياة لم تأت اتفّاقاً ، بل على نقيض ذلك ، فإن ميكانيا الكمّ ، قادتنا إلى أن تأخذ الأمر بالتدّبر ، ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً ، وهي أن المراقب ملازم لخلق الكون ، ملازمة الكون نفسه لخلق المراقب » . وقد قصد بالمراقب الأول وجود الله عز وجل . وقصد بالمراقب الثاني وجود الإنسان نفسه .

وقد أضاف ( ويلر ) كذلك : « بالرغم من أن الإنسان ليس مادة مركز الكون ، فهو على ما ظهر في مركز الغاية من خلقه » .

كذلك فإن العالم ( ايرون شرودنغر Erain Schrödivger ) كتب جملةً مفعمةً بالحقيقة الناصعة ، فقد كتب يقول : « الكون من دون الإنسان ، هو أشبه بمسرحيةٍ تُمثّل في قاعة ، تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين . وكأنّه قد قال بألفاظ أخرى إذا حذفنا وجود الإنسان من هذا الكون العظيم ، لم يعد لوجود الكون معنى يحقّقه ، ويكون أشبه بمسرحية تمثّل في قاعة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين .

هذه الأقوال وأمثالها ، سطّرتها أنامل كبار المُتخصصّين في مختلف العلوم في أوروبة ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين . وهي تمثّل تيّاراً فكرياً عظيماً ، بدأت تلمع ملامحه ، مؤيّدةً ما جاء به القرآن المجيد قبل اليوم بأربعة عشر قرناً من

الزمان . وهي تباشير تحقّق نبوءة محمد رسول الله ﷺ المتعلقة بآخر الزمان ، يوم تُشرق الشمس من مغربها ، وكل ما هو آتٍ آت .

تصّوروا هذه الحُقبة الطويلة التي احتاجت إليها الشعوب الأوروبية ، من بعد نزول القرآن ، ليبدأ مفكّروها يَنحون نحو الذي جاء به القرآن المجيد . فلو أنهم انتهجوا النهج العقلاني القرآني ، لوفّروا من حياة شعوبهم ألوف السنوات .

فلو عاصر أكابر المفكرين الأوروبيين اليوم ، بلالاً الحبشي ، مؤذن رسول الله ﷺ مثلاً ، وسألوه على بساطته ، سؤالنا المطروح . لسارَعَ يتلو عليهم سورة الفاتحة قائلاً : قد علّمتنا آياتها أن الله تعالى قد أخضع خلق هذا الكون لقانون التطّور ، وجعل خلق الإنسان فيه ، المسألة المركزية المرجوة من خلقه . ذلك أن الخالق هو ﴿ **رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين** ﴾ . وقد خلق الإنسان ليصبح عبداً لله تعالى ، وجُنديّاً في مملكته السماوية ، تعبيراً عن ذاته ، لذلك علّم الإنسان ، هذا المخلوق ، أن يدعو ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ طلباً لمرضاته ، وابتغاءً للتقرب منه . وقد حثّه على الاستعانة بخالقه على هذا الطريق بقوله ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ الذين أنعم عليهم من الصّلحاء المقرّبين ، ومن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . كما حذرنا تعالى أن نتولّى سوى هؤلاء من المغضوب عليهم أو الضّالين ، بقوله ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضآلين آمين** ﴾ .

أو ليس في إجابة بلال رضي الله عنه هذه ، ما يُشعر هذا العالم السّائل أنه لا يزال في مجال علمه الكوني ، في أوّل الطريق ؟ .

لا تذهبوا بعيداً ، دونكم المسلم العادي المعاصر ، فأسألوه سؤالنا المطروح . تلاحظوهُ يتلو عليكم الآيات من سورة الذاريات /٥٦/ ، وهي قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون . ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون إن الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين** ﴾ . ويقول ابن كثيرٍ رحمه الله في شرح

قوله ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ أي « إنّما خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم ... وليقرّوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً . وقال ابن جريج إلاّ ليعرفون . وقال الربيع بن أنس إلاّ للعبادة » .

وإذا أتينا صوب المسلم المثقف المفكر ، نطرح عليه سؤالنا عن الغاية والمقصد من خلق الله للإنسان . لاحظنا أنه يستدّل بنفس هذه الآيات الكريمة من سورة الذاريات ، ويختار ممّا ورد في شرح ابن كثير معنى إلا ليعرفون ، تفسيراً لقوله تعالى ﴿ **إلا ليعبدون** ﴾ .

ويضيف هذا المسلم المثقف ، فيقول : تعالوا نعمد إلى منهج الإستقراء العلمي ، نستعين به لنكشف عن المقصد الأسمى من خلق الإنسان . إذ لابدّ عند صُنع أي شيء ، أن يكون ثمّة قصد يُسعى إليه من وراء صُنع هذا الشيء . فلننظر إلى النحل مثلاً ، من هذا المنظار ، فهي حشرة صغيرة إن آذيتها لسعتك ، وهي تقع على الأزهار ، تجمع رحيقها ، لتصنع منه هذا العسل الذي جعل الله تعالى فيه شفاء للناس . وأنّى للإنسان أن يحصل على هذا النوع الفاخر من الغذاء المتعدد الجدوى ، لو لا النّحل . ونقول إن أسمى مقصد تحقّقه النّحلة من وجودها ، هو صنع هذا العسل . فالمقصد الأساسي من خلق النحل إذن هو صنع العسل يقيناً . توصّلنا إلى هذه المعلومة بطريق الاستقراء العلمي الذي عمدنا إليه .

فتعالوا ننظر إلى موضوع المقصد من خلق الإنسان من هذا المنظار . فالذي نلاحظه أن أكل الإنسان وشربه ونومه وسعيه ، لا يتجاوز مُقتضيات رغباته وشهواته وحاجاته الجسدية المادية . شأنه في ذلك شأن بقية المخلوقات . لكننا نلاحظ أن الإنسان يفترق عن جميع المخلوقات في أمر ظمئه المتناهي لكشف أسرار هذا الكون من حوله ، والبحث فيما وراء المحسوسات . ولا شك أن هذا الظّمأ الشديد ، والعطش الجاهد إلى هذه المعرفة ، لابدّ أن يسوقه إلى الكشف عن المقصد من وجوده ، مستنيراً

بقوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾ . أي خلقتهم ليتعرّفوني ، فأنا كنزٌ مخفي ، كما ورد في الحديث القدسي .

ويقول لنا المسلم المثقّف : أفرأيتم كيف توصّلنا بلاستقراء العلمي إلى أن معنى ﴿ **ليعبدون** ﴾ هو ليعرفوني ؟ ثم نلاحظه يأخذ بأيدينا إلى سياق الآية الكريمة ، فقد قال تعالى قبل الآية المذكورة مباشرة ﴿ **وذكّر ، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ أي أن الله تعالى ينبهنا إلى المقصد من خلقنا ، على سبيل التذكير . وكأنه يقول بألفاظ أخرى : إنني نبّهت أباكم آدم ، وهو أول نبيّ اصطفيته منكم لتحقيق هذا المقصد الأسمى من وراء خلقي للإنسان .

ثم يأخذ بأيدينا إلى سياق الآية ، حيث قال تعالى ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ ، فيقول : لاحظوا كيف أن هذه الآيات الكريمة تؤيّد المعنى الذي استقريناه لكلمة ﴿ **ليعبدون** ﴾ أي ليعرفوني . وكأنّ خالقنا يُنبّهنا إلى أنه لم يخلقنا إلاّ لعبادته ، وتعرّف ذاته . منبّهاً إلى أنّه هيّأ لنا جميع متطلبات غذائنا وشرابنا ولباسنا ومأوانا . فجميع هذه الأسباب ، وضعها في متناول أيدينا ، دون طلبٍ منّا . وليس المطلوب منّا ، والحال هذه ، إلاّ أن نستخدم كل شيء بطريقة علمية حفاظاً على وجودنا من الهلاك . وهكذا يكون الله تعالى قد نبّهنا من خلال آيات السباق إلى أن الأكل والشرب وسواهما من مستلزمات بقاء الجسد ، ليس هو المقصد الأساسي من خلقنا . بل هو ذريعة نستعين بها لنتعّرف الله ، وعبادته .

ولا يكتفي هذا المسلم المثقف بما فعله ، بل يقف بنا عند كلمة ﴿ **ليعبدون** ﴾ ، شارحاً إياها ، على ضوء ما ورد في معاجم اللغويين . فيرينا أن صاحب ( محيط المحيط ) قد قال : عبَدَ الله ، بمعنى طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحّده . فإذا أضيف اسم عبد إلى اسم الجلالة الله ، جمعته العرب على ( عباد الله ) . فإذا أضيف إلى مخلوق ، جمعته العرب على عبيد ، كقولك : عبيد فلان . ويقول إن

بقيّة المعاجم أيّدت صاحب المحيط في ذلك . فمعنى ﴿ **ليعبدون** ﴾ أي ليطيعوني ويخضعوا لي ويلتزموا شرائعي ويوحّدوني . وهذا كله يدور حول معنى ليعرفوني .

ثم ينبهنا هذا المسلم المثقف إلى أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً ، فدونكم قوله تعالى في سورة فاطر ٣٩ ﴿ **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض . فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً** ﴾ . ويقول : ألاحظتم كيف جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض . وخليفة مفرد خلائف . وهل يكون الخليفة إلاّ من اتّصف بصفات من استخلفه ، وتجانس معه في الصفات ، استحقاقاً لنعمة الاستخلاف . ولهذا أمرنا محمد رسول الله ﷺ بقوله : ( تخلقوا بأخلاق الله ) أي اتّصفوا بصفاته ، لتستحقوا نعمة الاستخلاف ، وتكونون بذلك قد حققتم المقصد الأسمى من خلقكم ، وهو أن تكونوا خلائف في الأرض .

والله سبحانه وتعالى عندما قال بعدها ﴿ **فمن كفر فعليه كفره** ﴾ . فالمقصود من الكفر هنا ، الكفر بهذا المقصد الأسمى لخلق الإنسان ، لذلك قال بعدها ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلا مقتاً** ﴾ ، أي أن الله تعالى يمقتُ من لا يسعى ليكون خليفة الله في أرضه ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً** ﴾ ، أي أن من لا يسعى من الناس إلى تحقيق هذا المقصد الأسمى من خلقه ، ينقلب عليه خُسراناً مبيناً . لأنه حينئذ لا يفترق عن العجماوات . على هذه الصورة تكون آيات سورة فاطر ، التي تلوناها ، مفسّرةً قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا لعبدون** ﴾ . وتفسّره أيضاً الآيات ١٣٧ من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيّون من ربّهم ، لا نفرّق بين أحدٍ منهم ، ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، فقد اهتدوا ، وأن تولّوا ، فإنّما هُمْ في شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغةَ الله ، وَمَنْ أحسنُ من اللهصبغة ، ونحن له عابدون** ﴾ .

ويضيف هذا المسلم المثقف قائلاً : أفلا تلاحظون أنّ كلمة [ صبغةً ] أتى بها الله عز وجل هنا منصوبةَ الآخر ، فقد فعل ذلك للحثّ والإغراء على الإتصاف بصفات الله وصبغته ـــ فلم يقل تعالى هنا [ ومن أحسن منه صبغة الله ] ، بل قال ﴿ **ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ ، فهذا سرٌّ بلاغي عظيم . ثم أن الصبغة هي حلية المصبوغ ولباسه ومظهره ، من حيث الدلالة اللغوية . فقد جاء ربّنا يحثّنا من خلال هذه الصيغة ، على الاصطباغ بصبغته تعالى ، أي الإتصاف بصفاته السّامية التي تتوق إليها كل نفس عاقلة منفوسة .

وعندما أنهى الآية بقوله تعالى ﴿ **ونحن له عابدون** ﴾ ، تلاقت الألفاظ مع قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ . فمعنى ليعبدوني إذن ليعرفوني ويصطبغوا بصبغتي ويتصّفوا بصفاتي . وهذا هو المقصد الأسمى من خلق الإنسان .

ويزيدنا هذا المسلم المثقف علماً ، فينبّهنا إلى أن الله عز وجل لم يختص مخلوقاً من مخلوقاته ، بمثل هذا المقصد الأسمى لحياته . نبّهنا إلى ذلك في قوله تعالى من سورة الأحزاب ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ . ويقصد بالأمانة الشريعة . ويقصد بحملها ، التزام العمل بمقتضياتها ، وقصد من السماوات والأرض والجبال مخلوقاتها . وكأنهُ تعالى قد نبهنا إلى أن جميع هذه المخلوقات مُسخّرة لنا في نطاق قانون التضّحية بالأدنى ، في سبيل الأعلى المؤهل للتخلّق بأخلاق الله ، والاتصاف بصفاته .

أفلاحظتم كيف دلّنا هذا المسلم المثقف على موضوعٍ هامٍ وشاملٍ حول المقصد الأسمى من خلق الله للإنسان ؟ فأين دلالاته هذه ، من أقوال علماء أوروبة المعاصرين ، هذه التي كُنّا قد نقلناها وأتينا على ذكرها ؟ .

إن العلماء الأوروبيين أشعرونا أن الإنسان هو المحور المركزي لخلق هذا الكون فقط ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى الكلام على المقصد الأسمى من خلق الله للإنسان ،

لذلك فلن يتمكّنوا من إجابتنا على سؤالنا المطروح ، إجابة واضحة وكاملة وشاملة . فقد جاءت إجاباتهم ناقصةً إلى حدٍّ بعيد . ولو أنهم انتهجوا ، مع هذا المسلم ، النهج العقلاني ، فاستعانوا بوحي الله المقدس ، لاستطاعوا فهم هذا الموضوع ، ولكانوا كفوا أنفسهم مشقّة التّعب والعناء .

ويقارن هذا المسلم المثقف بين ما فصّل القرآن المجيد قوله فيه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وبين إجابة أحدث علماء أوروبة المعاصرين المفكرين القاصرة ، فيزداد إيماناً على إيمانه ، ويعلم أن هؤلاء ما يزالون على أعتاب هذا الموضوع ، غير واعين للمقصد الأسمى من حياتهم ، حتى هذه اللّحظات .

ذلك أن الذي يعتقد القرآن المجيد وحياً سماوياً مقدّساً ، سيجد أنه من الميسور أن يجيب عن سؤالنا : هل كان وراء خلق الله للإنسان غايةً يُراد بلوغها ؟ فيعلم أن الله تعالى كان كنزاً مخفيّاً ، فأراد أن يُعرف ، فخلق الخلق والإنسان ، ومن ثم عرّفه صفاته ، وأهّله للإتصاف بها ، ليكون أحد أركان مملكته السماوية . وهذا المقصد العظيم ، هو الذي استدعى خلق الله تعالى لهذا الكون العظيم .

المهمّ من ذلك كلّه ، هو أن من يتدبّر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، يجد فيه إجابة عن السؤال المطروح حول القصد من خلق الله للإنسان ، إجابة قد عالجت المسألة من جميع جوانبها ، صريحة كافية للفهم والإدراك في مختلف المستويات . يتبيّن لنا كذلك أن الله عز وجل لم يعرض هذه الإجابة على الطريقة التقليّدية فجّة جافة ، بل أتى بها سلسلة سائغة ، وصاغها ببلاغة أخّاذة . وأتى بها على طريقة التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلقين . وبهذه الطريقة أثبت الله تعالى في الأذهان ، العنصر الثالث عشر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## السؤال الرابع عشر : ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟

لو سألنا الإنسان القديم : ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟ لاستغرب هذا السؤال .

ولو سألنا علماء القرن التاسع عشر الأوروبيين نفس السؤال ، لسفّهوا السائل وخطّؤوه ، وقالوا : المادة أزلية الوجود ، فلا مغزى لوجودها بأيّ شكلٍ من الأشكال .

أما استغراب الإنسان القديم لسؤالنا ، فلا يُلام عليه ، لأن مستوى تفكيره ومعطياته العلمية لا تسمح له بوعي مثل هذا السؤال .

أما تخطئة علماء القرن التاسع عشر الأوروبيين للسائل عن مغزى وجود الإنسان وتسفيهه ، وهم على أعتاب نهضة علمية ، فأمرٌ يلامون عليه . وموقفهم هذا يدل على ما كان يهيمن على بصيرتهم من قوة المال وجبروت السلطان . ومع ذلك فقد حاول هؤلاء الدفاع عن أنفسهم ، بقولهم إننا نتّخذ منطقاً مادياً ، ينكر الغائية ، وأي مغزى لوجود أي شيء مادي والمادة لا ترسم في الأصل هدفاً تسعى إليه ، أو مغزى تدلّ عليه . بل المادة تتصرّف بضرورة مكيانيكية ذاتية فحسب .

بمثل هذه التعليلات والأدّلة الواهية ، استبعد ( بيكون Bacon ) و( ديكارت Descartes ) فكرة المغزى والغائية من أبحاثهما . وبسبب هذا التفسير المادي ، راح عالم النفس ( فرويد ) يفسّر الأحلام تفسيراً مادياً محضاً . وبهذا المنظار وضع ( دارون ) نظريته المعروفة في النشوء والارتقاء .

ثم إنّنا لو سألنا علماء أوروبة المعاصرين ، نفس سؤالنا المطروح ، أي ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟ فلا يقف هؤلاء موقف أسلافهم من السؤال ، بل نرى في إجابتهم سماتُ نظرة علمية جديدة ، تحمل لنا ، عن الكون ، أنباء مثيرة .

ولعلّ من المناسب ، قبل أن استرسل في توضيح إجاباتهم ، أن ألقي الضوء على نصّ سؤالنا المطروح . فما هو المقصود من المغزى الحقيقي لوجود الإنسان ؟ .

تصوّروا أنكم زرتم معرضاً للرسوم الزيتية مثلاً ، وأخذتم تتأملون لوحاته المثبّتة على جدرانه . فلابّد أن يتناوب جوارحكم إحساسان رئيسيّان : إحساس متعلق بجمال اللوحات المثبّتة بعضها إلى جانب بعض . وإحساس يتعلق بالفنان نفسه ، الذي أودع فنّه هذه اللوحات . فإذا سألكم سائل : ما المغزى من هذا المعرض ؟ فلن يكون جوابكم : إنه طرح موضوعات وأساليب في الرسم والتلّوين ، وإنّما يكون إنه التعبّير عن وجود فنّان له مثل هذا الإبداع .

من هذا المثال تدركون أن المغزى الحقيقي من وجود الانسان ، ليس هو مجرد خلق هذا الإنسان على هذا الشكل ، وهذه القوى التي يملكها ، بل هو التعبّير عن وجود الله الخالق لهذا الإنسان ، وما يملكه هذا الإله الخالق من قدرات جبارة ، وصفات وطاقات لا تحدّها حدود .

فعلى ضوء ما شرحته ، نلاحظ أن علماء أوروبة المعاصرين ، أخذوا يدركون المغزى لوجود الإنسان في العالم . وهو دلالة هذا المخلوق على وجود خالقه الذي جعله في أحسن تقويم . أدركوا هذه الحقيقة ، لكنّهم وقفوا عند هذه الخطوة من المعرفة ، فلم يتجاوزوها إلى بحث موضوع الذات الإلهية ، وما تحمله من علم وقُدرات وصفات .

يقول علماء أوروبة المعاصرون : ما دامت المادة والطاقة والمكان والزمان ، قد ثبت حدوثها قبل ( ١٢ — ٢٠ ) مليار عام ، فلابّد أنّ شيئاً ما ، كان موجوداً قبل ذلك ، إذ لا يُعقل أن يتولّد ، ما تولّد عن العدم ، فالعدم لا ينتج إلاّ العدم . وإن هذا الشيء الذي كان موجوداً قبل الإنفجار العظيم ، لا يُعقل أن يكون شيئاً مادياً أيضاً ، فهو إذن كائن غير مادي . وإن العقل ، هو في حقيقته شيء غير مادّي ، فلابد أن

تكون المادة إذن من صنع عقل أزليّ الوجود . بمعنى أن هناك كائناً عاقلاً أزليّاً خلق كل الأشياء ، وهو ما يُطلق عليه الناس اسم ( الله ) جلّ جلاله .

هذه هي خلاصة ما يقوله علماء أوروبة المعاصرين . هذه خلاصةٌ لخصّها العالمان ( روبرت آرغوس Ropert M.augros ) و( جورج ستانسيو George N.stancior ) في كتابهما ( العلم في منظوره الجديد ) .

لكن هؤلاء لم يتساءلوا حتى الآن ، من هو هذا العقل المطلق ؟ ومن هو هذا الكائن الأزلي ؟ وهل هو موجود حقّاً ؟ وما علاقته بنا ؟ وهل يمكن الإتّصال به وتعرّف ذاته ؟ . فلا يزال علماء أوروبة عاجزين عن الإجابة عن هذه الأسئلة . بل إنّهم لم يخوضوا فيها حتى الآن .

فلو أنهم انتهجوا النهج العقلاني الذي جاء به الإسلام ، فاستعانوا بوحي الله المقدّس ، في موضوع هذه الغيبيّات ، لتعرّفوا هذا العقل المطلق ، وهذا الكائن الأزلي الذي اهتدوا إلى وجوده عن طريق علميّ .

وإذا سألتم المسلم العادي : من هو الذي أبدع السماوات والأرض وما بينهما ؟ يجيبكم : هو الله ربّي ، لا أشرك به أحداً . هو الله الذي لا إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبّر ، الخالق البارىء المصّور ، الغفّار القهّار الوهاب الرزّاق الفتّاح ، العليم القابض الباسط الخافض ، الرافع المعزّ المذلّ السميع البصير ، الحكيم العدل اللطيف الخبير العليم العظيم ... ويمضي هذا المسلم العادي فيذكر من صفات هذا الكائن الأزلي ، نحو مائة صفة ، مستنبطاً هذه الأسماء الحسنى من وحي الله المقدّس في كتابه القرآن المجيد .

فإذا سألناه عن مغزى خلق الله للإنسان في هذا الكون ، يجيبنا على الفور : لقد ورد في الحديث القدسي ( كنت كنزاً مخفياً لا أعرف فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ) . ويأتي جوابه مُفعماً بالحقيقة الناصعة ، وهي أن خلق الخلق ، هو تعبير عن

الذات ، على شاكلة تعبير الفنان بلوحاته عن كونه فنّاناً ، ويكشف بها عن مستواه الفنّي .

ونذهب صوب المسلم المثقف المفكر ، نسأله ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟ يجيبنا باختصار : أراد الله الخالق أن يكشف عن وجوده ، وما يتّصف به من صفات ، فخلق هذا الإنسان ليجلّي عن طريقه صفاته .

وبعد أن يُطلعنا هذا المسلم المثقّف على هذه الخلاصة ، يمضي ليثبت لنا أنّها ليست مجرّد ادّعاء . وهو لا ينحو في ذلك ، منحى المسلم العادي ، فيردّد على أسماعنا أسماء الله الحسنى . بل يحاول أن يصل بنا إلى نفس النتيجة عن طريق الاستقراء العلمي .

يقول لنا : قد سلّم علماء أوروبة المعاصرون بعدم أزلية المادة ، من خلال نظرية الإنفجار العظيم . كما سلّموا بوجود كائن مطلق أزلي . فتعالوا نستنبط معاً صفات هذا الكائن الأزلي بالأسلوب العلمي الاستقرائي .

وما دام الإنسان بين أيدينا ، ففي مقدورنا تقدير صفات خالقه من طريقة خلقه لهذا الإنسان ، ومن طريقة صُنعه ، إبداع صُنعه ، والقوى التي زوّده بها . فأنتم لو أمسكتم بكأسٍ زجاجيّ ، أفلا تستطيعون تقدير ما يتّصف به صانعه ؟ ستقولون ، أول ما تقولون ، إن صانع هذا الكأس يملك مصنعاً لصنع الزجاج ، ويملك معرفة بصنع الزجاج وخبرة وموهبة فنيّة و ... على هذه الشاكلة تستنبطون كل ما يتصفه صاحب الكأس من صفات . فما بالكم بالّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وأبدعها ، وخلق هذا الإنسان ؟ وقد خلقهم جميعهم من مادّة كانت مضغوطة في حيّز لا يتجاوز حيّز بروتون واحد ، وركب فيها أصل الكواكب وقوانينها ، والنباتات وقوانينها ، والحيوانات وقوانينها والإنسان وما يمتّ إليه من قوانين . ركّب كل ذلك في هذا الحيّز الذي لا يُشغل مكاناً أصلاً ، ثم فجّره ، فأخذت الكائنات جميعها تظهر إلى العيان كأبدع ما يكون . هذا حدث بإقرارٍ من أصحاب نظرية الإنفجار العظيم .

أفلا نستدلّ من هذا الصّنع والإبداع على أن هذا الكائن الأزلي ، ليس كمثله شيء ؟ وأنه البارىء المصّور الخالق الخبير العليم ، الغنيّ عن العالمين ، الفعال لما يريد ، القهّار الوّهاب الرزّاق ...؟ .

ويمضي هذا المسلم المثقف يستقري لنا ، من خلال عملية الإنفجار العظيم جميع الصفـات التي أتى بها القرآن المجيد ، وهو يصف بها هذا الكـائن الأزلي الذي هو الله عز وجل . بل يثبت من خلال قانون النشوء والتطور الذي تجلّى في خلق الله تعالى لهذه السماوات والأرض والإنسان أنه هو الله رب العالمين .

ويضيف هذا المســلم المثقّف إلى هذا قوله : لاحت لأوروبة معـالم وجود الله عـز وجـلّ مـن خـلال نظرية الإنفجار العظيم ، وذلك بعد أن مضى أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، على إنزال القرآن المجيد . ومع ذلك ، لا تزال بعيدةً عمّا تضمّنه هذا القرآن من حقائق كونية ، بل بعيدة جدّاً عنه . فمتى يستفيقون من هذا السّبات العميق ؟ ليعرفوا المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في هذا العالم ؟ .

ولا يقف هذا المسلم المثقف عند حدّ طريق الاستقراء العلمي ، بل يلّخص لنا المعلومات التي جاء بها القرآن المجيد ، فيما يتعلق بهذا الكائن الأزلي ، فيقول إن الإسلام يدعونـا للإيمان بإله واحد ، جامعٍ لجميع المحامد ، قائم بذاته ، كامل في وجوده ، مستغنٍ عمّا سواه ، لا تحدّه حدود . هو إله في السماء والأرض ، فلا تحدّه الجهات ، ولا يتحكّم فيه الزمان . بعيدٌ منّا على قُربه ، وهو غير مخلوق ، وخالق كل شيء ، وهو الأعلى المتصّرف المطلق بمقدورات كل شيء . هو فعّال لما يريد . وهو الملك الهادي الحفيظ ، يعزّ من يشـاء ، ويذّل من يشـاء ، وهو السميع البصير . يعلم سرّنا بغير جارحة ، والعالم مظهرٌ لصفاته . وهو إله أبدي أزلي ، خلق العالم لخير هذا العالم . وليس لله شكل أو صورة أو جسم ذو أعضـاء محدودة ، وهو خالق المادة . وليس باستطاعة الإنسان إدراك ماهية ذات الله المقدّسة . ذلك أن الإنسان إذا ما أدرك كُنه شيء ، حاول أن يصنع مثيلاً لهذا الشيء من هنا جاء عجز الإنسان عن إدراك ماهية

نفسه أيضاً . فالله تعالى أخفى ماهية كل شيء في هذا الوجود ، كيلا تظّل في أيدي الإنســان حجّـة يعترض بها على ربه قائلاً : وما فائدة الإيمان بإاله لا ندرك كُنهه ، ولا حقيقة ذاته ؟ .

ويضيف هذا المسلم ، إلى هذا وذاك قوله : إن المغزى الحقيقي من وجودنا في العالم ، هو تعرّف خالقنا ، والسعي للتقرّب منه ، ونيل رضاه ومحبّته ووصاله . فإن لم نفعل ، فقد فاتنا إدراك المغزى الحقيقي لوجودنا ، ذلك أن الله تعالى غنيٌّ عن العالمين . لهذا السبب نفسه ، لاحظنا أن الله عز وجل قد لفت أنظارنا في كتابه العزيز إلى أهمية الدلائل العقلية ، في سبيل تعرّفه . فقد قال تعالى في سورة آل عمران ( ١٦ ) ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ، ربّنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

والمقصـد هو أن أربـاب العقول ، والحكمـاء من النـاس ، هم الذين يهتدون ويتعـرّفون وجود الله تعـالى ، وذلك عن طريق إنعـام نظرهـم في تكوين الأرض وكواكب السماء . فينظرون في بواعث هذه الظواهر الكونية ، كاختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً ، دائبين على البحث طلباً لمزيد من الكشف والاستطلاع . حتى إذا تبيّن لهم من خلال أبحاثهم هذه حقيقة وجود الله تعالى ، لم ينفكّوا عن أبحاثهم ، بل ثابروا عليهـا ، لتزداد الحقـائق في عقولهم قوّة وجلاء ، ويتحقّق لهم أن هذا النظام الكوني البديع المحكم الأكمل ، ما هو إلاّ مرآة تجلّي مُحيّا مبدع السماوات والأرض خالقهم . فـإن كانوا من طـالبي الحقيقـة ، جُذبوا إلى خالقهـم ينزهّونه ويستمطرون رحمتـه ويستوهبون رضاه .

ويضيف هذا المسـلم معلّقاً : ها هم أولاء علماء أوروبة المعاصرين قد علموا بوجود الله الخالق ، عن طريق أبحاثهم الكونيـة التي انتهوا منهـا إلى نظرية الإنفجـار العظيم . فإذا كانوا جادّين في البحث عن الحقيقة ، فلابدّ أن تدفعهم معرفتهم لهذا

النظام الكوني البديع الأكمل المحكم ، إلى مثابرة البحث والاستقصاء ، في طلب الوجه الحقيقي لمبدع السماوات والأرض ، والسّعي لمعرفة طريق كسب رضاه ، اتّقاءً لعذاب النـار ، وتبـديداً للحـيرة التي تـلابسهـم ولا تدعهـم يدركون المغزىٰ الحقيقي من وجودهم ، ولا يتـأتّى ذلك بأبحاث هي أقرب إلى الرفاهيـة العقـليّة . بل لابّد من مباحث جديّة متواصلة ، تهدف إلى إدراك المغزى الحقيقي لوجودهم في هذا العالم .

ويكشف لنا هذا المسلم عن بالغ سعادته القلبية ، وإنشراح صدره ، بأن هداه الله تعـالى إلى الإيمـان بـه تعـالى وأطـلعـه على خفـايا كونه ، وبعثـه على البحث والاستقصاء ، وفتح له باب قربه ووصاله . ويشكر ربّه أن هذه الكشوف العلمية التي يطلع بها عليه علماء أوروبة المعاصرون ، لا تزيده إلاّ إيماناً على إيمانه ، واندفاعاً في استمسـاكه بدينه وإسلامه . ويعلم هذا المسلم المثقف إن هذا الكون من صنع الله وإيجـاده ، وإن القرآن المجيد هو كلام الله المقدّس ، ويستحيـل أن يتنـاقض الكـلام والصّنع ، إذا كان المتكـلم والصـانع واحداً . وهو يعذر المفسـرين القدامى الذين اخطؤوا في فهم مضـامين الآيات الكونية ، على اعتبار أن معطيات زمانهم لم تكن لتساعدهم على فهم هذه الآيات الكريمة على حقيقتها .

ويضرب لنا المسلم المثقف مثالاً على أخطاء المفسرين القُدامى ، التي هي من هذا القبيل . فيتناول موضوع طبقة الآزون المحيطة بجو الكرة الأرضية ، ويقول : لقد فسّر ابن كثير قوله تعالى من سورة فصّلت /١١/ ﴿ **وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ أن كلمة حفظاً هنا تعني « حرساً من الشياطين أن تستمع إلى المـلأ الأعلى » . وأن ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصـابيح** ﴾ تعني « الكواكب المُنيرة المشرقة على أهل الأرض » .

لم يكن ابن كثير رحمه الله يدري أن هذه التي يسميها كواكب ميزة مشرقة ، هي في حقيقتها شموس تملأ الكون الرحب ، وأن بُعد الواحدة منها عن الأخرى بعدٌ يتجاوز التصّور والخيال .

ومعلوم أنه قد تم كشف طبقة الأوزون المحيطة بجو الأرض ، وأنّ وجود الأوزون لم يأت عبثاً ، وإنما وجد لمهمة أساسية ، هي حفظ سكان الكرة الأرضية ، وذلك بالحيلولة دونهم ، ودون وصول الأشّعة فوق البنفسجية من الشمس إلى الأرض ، هذه الأشعة الضارة بنسيج وخلايا جسم الإنسان . والعلماء لم يلاحظوا وجود مثل هذه الطبقة في أجواء الكواكب المشابهة للأرض ، وأبدوا عجزهم عن إدراك كيفية تشكل هذه الطبقة من الأوزون.

وإننا نحن المسلمين ، وقد أطلعنا على هذا الكشف العلمي فقد أصبحنا قادرين على فهم مضمون قوله تعالى ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . فكلمة ( حفظاً ) تشير إلى قيام طبقة الأوزون في محيط جّو الأرض حفظاً للبشريّة من الهلاك ، بمنعها لتسّرب الأشعة فوق البنفسجية من الشمس إلى الأرض . وقوله تعالى ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ فيه تأكيد لفهمنا الحديث . فالله تعالى هو الذي قدّر وجود الأوزون، دلالة على أنّه ( عزيز ) أي قوي وقادر . كما أنه ( عليم ) أي لا يخفى عن علمه شيء من الأشياء .

ويضيف هذا المسلم المثقّف إلى ذلك قوله : قد تفحصّت ما جمعه ابن كثير من روايات منسوبة إلى رسول الله ﷺ ، فلاحظته يروي عند تفسيره ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** ﴾ من سورة الأنبياء ٣٣ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ، فقال يا سول الله ما هذه السّماء ـــ يقصد من سؤاله معنى السقف المحفوظ ـــ فأجابه رسول الله ﷺ بكلمات مُفعمةٍ بالحقيقة العلمية . فقال له ( هي موجٌ مكفوفٌ عنكم ) . ومعلوم أن كلمة ( موج ) تستعمل في زماننا للتعبير عن حُزَم الأشعة من أي نوع كان من الأشعة . فهي إذن اصطلاح علمي . فقد قصد ﷺ من كلة ( موج ) أي موج الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس . وقوله ( مكفوفٌ عنكم ) أي موضوع ما يحول دونه ودون الوصول إليكم حتى لا يؤذيكم . على هذه الصورة تكون في هذا الحديث الشريف إشارة صريحة إلى وجود طبقة الأوزون التي تكفّ عنّا موجة الأشعة فوق البنفسجية ـــ فيا له من حديث صحيح مُعجز معاً .

ونحن وقد اتضّح لنا معنى ﴿ **سقفاً محفوظاً** ﴾ اتضّح لنا معنى كلمة [ حفظاً أيضاً ، ذلك أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً . ذلك أن قوله تعالى في سورة الأنبياء ٣٢ ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون** ﴾ يؤكد كل التأكيد ، ما فهمناه من معنى [ حفظاً ] ، و ﴿ **سقفاً محفوظاً** ﴾ ، لتذييله تعالى هذه الآية بقوله ﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ . فهو سبحانه وتعالى اعتبر وجود طبقة الآزون ، وقيام هذا السّقف المحفوظ آيةً من آياته ، ومعجزة من معجزاته عز وجلّ ، وآيه من آيات قدراته .

وبعد أن يضرب لنا هذا المسلم المثقّف ، المثال المذكور ، هذا المثل الذي يثبت ألاّ تناقض بين مضامين القرآن المجيد وما بين الكشوف العلمية . يضيف قائلاً : إننا مستبشرون بأن المستقبل سيأتي تصديقاً لكلام الله المقدس ، الذي احتواه كتابه القرآن المجيد .

المهمّ من ذلك كله أن الذي يتدبر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً أو عالماً نحريراً ، سيجد لا محالة بين دفّتي هذا الكتاب العظيم ، جواب السؤال المطروح الذي يتجلّى به المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم . ويتبيّن له أيضاً أن القرآن المجيد ، لم ترد فيه هذه الإجابة على الطريقة التقليدية ، فجةً جافّةً بل وردت إجابةً سلسلة سائغة سهلة الورود على الطبع . وقد صاغها البارىء تعالى آية في البراعة بل البلاغة الآخذة بمجامع القلوب . وأتى بها على طريقة التلقين غير المباشر هذا الأسلوب المعتبر على صعيد علم النفس ، أرفع أساليب التلقين . وبهذه الطريقة أثبت في الأذهان العنصر الرابع عشر من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

## السؤال الخامس عشر : ما مصير الإنسان على سطح هذا الكوكب ؟

لم يتجاوز عدد سكان الكرة الأرضية قديماً عدة ملايين . لذلك لم يواجهوا التساؤل عن مصير الإنسان على سطح هذا الكوكب . إذ لم تعترضهم مشكلة إنفجار

سُكّاني أو مشكلة تلّوثٍ بيئي ، أو مشكلات اقتصادية غير عادية . **فلا يُعقل أن** يراودهم مثل هذا السؤال ليفكّروا في الإجابة عنه .

وهكذا كان علماء القرن التاسع عشر ، إذ لم تواجههم في أوروبة هذه المشكلات أيضاً . وكل ما ذهب إليه بعض علماء الاقتصاد السياسيّ ، هو أن الكوارث والحروب ، كفيلةٌ بمعالجة أي إنفجار سُكّاني ، وأي أزمات اقتصادية .

لذلك كان علينا طرح سؤالنا على علماء القرن العشرين الأوروبّيين الذين اعترضتهم مختلف أنواع المشكلات التي تهدد مستقبل الجنس البشري .

والحقيقة هي أن هؤلاء العلماء ، قد عُنُوا بالمشكلات الملّحة خاصة . فألّفوا لها اللجان المختصة ، وعقدوا المؤتمرات لبحثها ومعالجتها ، وجعلوا يخطّطون للمستقبل . ولم يطرق سمعُنا أنّهم استطاعوا الجزم بمستقبل متفائلٍ للجنس البشري . من هذا ندرك أننا إذا طرحنا عليهم سؤالنا الذي بيّناه ، فلن نسمع منهم أجوبةً متفائلةً قاطعة ، أي جازمة ويقيّنية . ويعود ذلك إلى ابتعادهم عن النهج العقلاني الذي جاء به الإسلام ، وهو ضرورة الإهتداء بوحي السّماء عند كل بحثٍ من هذه البحوث المستقبليّة .

فإذا اتّجهنا صوب المسلم العادي نسأله سؤالنا المطروح ، فلا شكّ أنّه سيتلو قول الله تعالى من سورة الصفّ ٩/١٠ : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله مُتِمّ نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله ، ولو كره المشركون** ﴾ مشيراً إلى أن ظروف العالم ستتبدل ، وتشرق شمس الإسلام من جديد على العالم كله فتُملأ الأرض ، على أيدي مهديّ آخر الزمان ، عدلاً ، كما ملئت قبل ظُلماً وجوراً . وأنه إلى الله تُرجع الأمور . ولذا فلا نلاحظ هذا المسلم العادي يُبدي كبير اهتمام بمُجريات الأمور .

فإذا اتّجهنا صوب المسلم المثقّف المفكّر ، نسأله نفس السؤال عن مصير الإنسان على سطح هذه الأرض . فلابُدّ أن يُلفت أنتظارنا إلى أسسٍ خمسة ، نبّهنا إليها ربّنا في

كتابه العزيز ، يطلب من البشرية الالتزام بها ، لتوفير مُستقبل أفضل . وهذه الأسس هي :

أولاً : أمّا الأساس الأول فقد استوفاه قوله تعالى في سورة فُصلّت : ﴿ **قل أئنكّم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهُنّ سبع سماواتٍ في يومين ، وأوحى في كل سماءٍ أمرها ، وزيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . فقد شاء الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن يُطمئن الإنسان إلى مستقبله . فأشار أولاً من خلال قوله ﴿ **وجعل فيها رواسي من فوقها** ﴾ إلى أنه أوجد دورة مائية تشكّل الأساس لحياة الإنسان . فقد جعل المياه تتبخّر ليؤّلف منها غيوماً في السّماء ، تهطل من خلالها الأمطار والثّلوج ، فتختزنها الجبال ، فتتفجّر المياه منها عيوناً وأنهاراً . فهذه الدّورة المائية الحياتيّة ، كان المقصود بها ضمان مُستقبل الإنسان .

وثانياً : عندما قال تعالى في كلامه على الأرض : ﴿ **وبارك فيها** ﴾ كان قصده أنّه سبحانه جعل هذه الأرض مباركةً ، أي دائمة العطاء ، بشكلٍ ثابت . بمعنى أنّه تعالى جعل الأرض مصدراً للرزق والمعاش ، فتسنّى فيها العطاء دائماً مستمّراً . فأنت تقول : بَرَكت السّحابة ، إذا دام مطر هذه السّحابة .

وثالثاً : لم يكتف عز وجل بما تقدّم ، بل أضاف قوله ﴿ **وقدر فيها أقواتها** ﴾ أي أحكم توالي هذه الأقوات في كل زمانٍ ، سدّاً لحاجات الإنسان في جميع العصور فأضاف تعالى قوله موضّحاً ذلك بقوله ﴿ **سواءً للسّائلين** ﴾ .

رابعاً : وقد نبهّنا جلّ شأنه ، في مقدّمة هذه الآية الكريمة من خلال قوله ﴿ **ذلك ربّ العالمين** ﴾ فاستبدل من اسم الإشارة القريب بـ ﴿ **ذلك** ﴾ اسم الإشارة البعيد . ومن خلال صفة ﴿ **ربّ العالمين** ﴾ . أقول نبّهنا إلى أنّه بارك الأرض ، وقدّر فيها

أقواتها ، من مُنطلق كونه المسؤول عن عبادِهِ ، فهو ربّ العالمين ، وليس هو بربّ المسلمين وحدهم ، أو أنه ربّ أناسٍ في عصرٍ دون آخر . فالربّ لُغةً هو الذي يُنشيء الشيء حالاً بعد حالٍ حتى يصلَ به مرتبة الكمال .

ويضيف هذا المسلم المثقّف قائلاً : هذا أساسٌ وضعه ربُّنا ، ضماناً لمستقبل الإنسان على سطح هذا الكوكب الأرضي . واكتفى بأن ترك تبعة البحث والاستقصاء على كاهل عباده .

**الأساس الثاني** : والإساس الثاني الذي اختطّه ربُّنا جلّ شأنه للمحافظة على مستقبل الإنسان على سطح الأرض ، قد صرّح به تعالى في سورة البقرة /٣٠/ بقوله ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السّماء ، فسّواهُن سبع سماوات وهو بكل شيءٍ عليم** ﴾ . فالمقصود من ( خلق لكم ) أي خلق لمصلحتكم دونما أيّ تفريقٍ بينكم . وبألفاظٍ أخرى ، فقد أشرك الناس جميعاً في استغلال موارد الأرض ، على حدٍّ سواء . وقد نبّه سبحانه وتعالى من خلال هذا ، إلى تحريم احتكار فئةٍ دون فئةٍ أخرى من النّاس ، أيّ موردٍ طبيعيٍّ من موارد هذه الكرة الأرضية . كما نبّهنا أيضاً من خلال قوله تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السّماء ، فسّواهُن سبع سماوات** ﴾ إلى أنّه تعالى فتح باب الرّقي الروحيّ غير المتناهي للذين يؤمنون بتعاليمه من البشر ، ويعملون بأوامره ونواهيه ، بتقوى وأمانة . فلفظ السّبعة يُستعمل في العربيّة دلالة على الكثرة في أغلب الأحيان . والسّماء هنا من الرقيّ والسّمو .

وهذا الأساس في حقيقته ، يهدف إلى مصلحة مستقبل البشرية الأفضل . فالّذين يحتكرون الموارد الطبيعيّة ، كالبترول وسواه ، إنّما يقفون حجر عثرةً في طريق تقدّم الإنسان ورفاهيتّه وسعادته .

**الأساس التالث** : والأساس الثالث الذي اختطّه جلّ شأنه لمصلحة الإنسان ومستقبله على سطح هذه الأرض ، وضّحه في قوله تعالى من سورة الحُجرات /١٣/

﴿ **يا أيها النّاس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾ . والمقصود من هذا البيان الإلهي هو أنّ التّقسيم العرقيّ واللوني والقومي ، هو شيء طبيعيٌّ جدّاً . الغاية منه التّعارف بين النّاس . ولفظ التّعارف يعني تعرّف كل طرف للطرف الآخر . وأن يتّسم هذا التعارف بالمحبة والتعاون والحرص على التعايش ، في شتّى المجالات .

والله تعالى يحضّ البشرّية ، من خلال كلامه هذا ، على التّفاهم فيما بينهم ، على أسسٍ من التعايش والمودّة لمصلحة مستقبل أفضل تُسعد فيه البشرية بالأمن والرّخاء .

**الأساس الرابع** : والأساس الرّابع الذي اختطّه لنا جلّ شأنه لمصلحة البشرية جمعاء ومستقبلها ، ضمّنه قوله تعالى في سورة النساء /٥٨/ ﴿ **إن الله يأمركم إنّ الله نِعِّما يعظُكم به ، إنّ الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً** ﴾ .

فلقد وضح لنا ربّنا جلّ شأنه ، في هاتين الآيتين ، الأساس الأمثل لتحقيق الأمن والاستقرار في العالم أجمع . فقد نصحنا أولاً أن نختار حُكّامنا بأمانة تامة ، فلا ننتخب منهم إلا من كان أهلاً لحمل أمانة الحكُم . وقد نصح ثانياً من اختاره الشعب لتسيير دفّة الحكم ، أن يعدلوا بين الرعيّة فلا ينحازوا في جميع قراراتهم وأحكامهم وتصرفّاتهم لهضم حقوق فريق من الزعيّة لمصلحة فريقٍ آخر . وقد ترك للحُكّام ثالثاً ، ما دام قد تمّ اختيارهم من قِبَلِ الشعب بالطريقة المُثلى ، ترك لهم حقّ الطاعة على رعيتّهم ، فيما ليس فيه معصيةٌ لله ولرسوله . إذ لا طاعة لمخلوق مهما كان شأنه في معصية الخالق .

**الأساس الخامس** : والأساس الخامس الذي اختطّه لنا ربّنا جلّ شأنه لمصلحة مستقبل البشرية جمعاء ، ضمّنه قوله تعالى في سورة آل عمران الآية /٦٤/ ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءَ بيننا وبينكم ألاّ نعبُد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولّوا ، فقولوا اشهدوا بأنّا**

**مسلمون** ﴾ . نبّهنا في هذا الموضع من القرآن المجيد إلى خطر الشرك على مستقبل الإنسانية وتقدّم الأمم . لذا نلاحظه يقول ﴿ **إن الشرك لظُلم عظيم** ﴾ لقمان /١٣/ . وحذّرنا منه في سورة المائدة /٧٢/ ﴿ **إنّه من يُشرك بالله ، فقد حرّم الله عليه الجنّة** ﴾ . كما حذّرنا منه في سورة النساء /٤٨/ بقوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . فالشرك يثير غضب الله تعالى على المشرك ، ويجلب عليه سُخطه ونَقَمَته ويحرمه من رأفته ورحمته . ولا تفهم أضرار الشّرك على حقيقتها إلا بالإطلاع التّام على التوحيد الكامل .

ويضيف هذا المسلم المثقف قوله إن هذه الأسس الخمسة تؤلف بمجموعها منهاجاً سلوكياً لبني الإنسان ، لابّد لهم من انتهاجه ، إذا أرادوا تحقيق مستقبل أفضل للإنسانية .

وبعد أن يكون هذا المسلم المثقّف قد نبّهنا إلى النّهج الذي ذكرناه ، نلاحظه يتوجّه مخاطباً المتشائمين من مستقبل الإنسان في هذه الأرض ، من جرّاء هيمنة أمريكة وأوروبة على العالم ، هيمنةً لا يُرى معها مخرجٌ يمكن أن تفلت منه الشعوب لتعيش خارج نطاق هذه الهيمنة ، وتلك السيطرة .

يُخاطب هؤلاء المُتشائمين قائلاً : إنّ مرضكم كامنٌ في أنكّم تفكّرون تفكيراً مادّياً لا يُخالطه جانبٌ روحي . وتفكّرون وكأن العالم في معزلٍ عن ولاية ربّ العالمين ورعايته لشؤونه . فينبّه هؤلاء المُتشائمين إلى أن القرآن المجيد لم يُغفل التعرّض لذكر هذه الأقوام ، ولا أهمل إنذارهم وتوعّدهم بالهلاك والعذاب الذي يستحقّونه .

وينبري هذا المسلم المثقف ، فيكشف لنا عن الحقائق التي أوردها القرآن المجيد ، فيما يتعلّق بهذه الأمم الظّالم أهلها . ويقول : لابدّ أنّكم مررتم على قوله تعالى في سورة البقرة /٢٨/ ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلكم تتّقون** ﴾ . فخطاب الله تعالى بألفاظ ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ المقصود منه تنبيهنا إلى صفة العالمية التي تتمتّع لها الرسالة المحمدية ودعوة الإسلام فجميع النّاس من مُختلف

العصور ، قد شملهم هذا الخطاب الإلهي . من هذا تُدركون أن أهل زمانا مشمولون **فيه** يقيناً .

وهنا يقول لنا : هاكم تفحصّوا الآيات الكريمة التي خُوطب بها المشركون ، فستجدون أن بعضها يخاطب أهل هذا الزمان من المشركين .

وقبل أن يُسهب هذا المسلم المثقّف في عرض هذه الآيات وشرحها شرحاً يؤيّد مُدّعاه . يذهب بنا إلى وصف وضع المسلمين والعالم الإسلامي بالتردّي والانحطاط . موضّحاً أن وضع المسلمين المُتردّي هذا ، قد أشار الله تعالى إليه في سورة السّجدة /٥/ بقوله تعالى : ﴿ **يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون** ﴾ ومنبّهاً إلى أن ضمير ﴿ **يدبّر الأمر** ﴾ إنّما يعود إليه عز وجلّ ، بدليل قوله تعالى بعده ﴿ **ثم يعرج إليه** ﴾ أي يعود أمر الكتاب إليه بعد أن يدبّر أمر المسلمين ألف سنة ممّا تعدّون . أي يرتفع الإيمان من الصدور ، فلا تعود أعمال المسلمين موافقة لتعاليم دينهم الحنيف .

يقول : تعالوا ضيفوا إلى الألف سنة ، ثلاثة قرون ، وهي أفضل القرون من حياة دعوة الإسلام ، مصداق قول محمد رسول الله ﷺ وهو ( خير القرون قرني ، فالذي يلونه ، فالذي يلونه ، ثم فيج أعوج ).فيكون لديكم ثلاثة عشر قرناً من الزمّان . أي أن ذروة زمان انحطاط المسلمين تظهر في القرن الثالث عشر الهجري . ويُزامن عصر ترقّي هذه الأمم الأوروبية التي ينفسح لها مجال الهيمنة على العالم .

ويقول تعالوا الآن إلى الآيات المُنذرة المشركين ، تلاحظون أن بعضها يحدّد نفس التاريخ الذي توصلنا إليه . فها هوذا سبحانه وتعالى يقول في سورة الحج /٤٨/ ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يُخلف الله وعده ، وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة مما تعدّون** ﴾ . فهذه هي الألف سنة التي أضفنا إليها خير القرون الثلاثة . من هذا تُدركون أنّ آيات سورتي السجدة والحج ، قد حدّدت لنا تاريخ ظهور مشركي أوروبة إلى مسرح الأحداث ، وهيمنتهم على العالم الإسلامي خاصة .

والآن أنصتوا إلى قول الله عز وجل في سورة طه /١٠٢ ــ ١١٤/ التي قال تعالى فيها ﴿ **يومُ ينفخ في الصّور ، ونحشر المجُرمين يومئذ زُرْقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلاّ عشـراً ، نحن أعـلم بمـا يقولون ، إذ يقول أمْثَـلُهُـمْ طريقـةً إن لبثـتم إلاّ يوماً . ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسقها ربّي نسفاً .فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . يومئذٍ يتبّعون الداعي ، لا عِوج له ، وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلاّ همساً . يومئذٍ لا تنفع الشّفاعة ، إلاّ من أذِن له الرحمان ورضي له قولاً . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علمـاً . وعَنَتِ الوجوه للحيّ القيّوم ، وقد خاب من حَمَلَ ظلماً . ومن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن فلا يخاف ظُلماً ولا هضماً . وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصّرفنا فيه من الوعيد ، لعلّهم يتّقون ، أو يُحدِثُ لهم ذكراً . فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ، وقل ربّ زدني علماً** ﴾ .

يقول المسلم المثقّف : ها هي ذي الآيات الكريمة باتت واضحة الدّلالات . فهي تحمل وعيداً رهيباً من قبل الملك الحقّ . وهذا الوعيد مُوجّه إلى كبار حكّام هذه الأمم المشركة ، الذين يقودون أُممهم في طريق الظلم والعدوان . فالرّجل العظيم يقال عنه في العربية ( جبلٌ في قومه ) على حسب ما أورد صاحب أقرب الموارد . فليس المقصود هنا من قوله تعالى ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾ الجبال ذات الأحجار والتّربة ، بل كبار سياسي وحكام تلك الأمم الذين يقودون أممهم في طريق الظلم والعدوان . فقرينة الكلام وسياقه يقتضي منّا هنا العدول عن معنى الجبال الحقيقيّ ، والأخذ بالمعنى المجازي . والتخافت بهم ما يبيّتونه من مؤامرات على الإسلام والمسلمين . وقول [ أمثلهم طريقة ] : ﴿ **إن لبثتم إلاّ يوماً** ﴾ يشير إلى الألف عام التي أوردتها سورة السجدة . وقوله ﴿ **ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرقاً** ﴾ إشارة إلى هؤلاء الحكام زرق العيون . وقوله ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن** ﴾ إشارة إلى أن العاقبة ستكون إلى جانب انتشار الإسلام في العالم ، وما سيتحقّق عن طريق مهديّ آخر الزمان .

يضيف هذا المسلم المثقف قوله : هذه إنذارات لحكام زماننا من المهيمنين على شعوب العالم ومصائرها والمتآمرين على الإسلام لذلك لاحظتم قوله تعالى في آخر هذه الآيات يقول : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقّون** ﴾ . وللسبب نفسه قد جاء هنا يقول ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ، وقل ربّ زدني علماً** ﴾ .

يضيف هذا المسلم المثقف قوله وبمنتهى التفاؤل من المستقبل : عصرنا هذا هو عصر المعجزات العلمية ، كما أنه عصر المعجزات السماوية ، فلا تظنوا أن الله بغافلٍ عمّا يعمل الظالمون . فلو اتّسع المقام لشرحت لكم سورة طه بكاملها ، فلا يتسع لذلك المقام . ويكفي التذكير بقوله تعالى من سورة الحج /٧٦/ ﴿ **الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ، إن الله سميع بصير ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾ .

المهم من ذلك كلّه ، أن الشخص الذي يتدبّر القرآن المجيد ، سواء أكان مسلماً عادياً ، أو كان عالماً نحريراً ، سيجد لا محالة بين دفّتي هذا الكتاب جواب السؤال المطروح حول مستقبل الإنسان على سطح هذا الكوكب الأرضي .

ويتبيّن له أن القرآن المجيد لم يعرض إجابته عن السؤال ، على طريقة التقليديين جافةً ، فجّةً ، وباردة برودة الثلج في موسم الشتاء . بل أتى بإجابته إجابة سلسلةً سائغة ، وصاغها البارىء تعالى آيةً في البراعة والبلاغة المؤثرة تأثيراً نفسياً جذاباً آخذاً بمجامع القلوب . وقد أتى بإجابته على طريق التلقين غير المباشر . هذا الأسلوب المُعتبر على صعيد علم النفس أرفع أساليب التّلقين . وبهذه الطريقة ، يكون تعالى قد أثبت في الأذهان العنصر الخامس عشر ، وهو الأخير ، من عناصر النظرية القرآنية الكونية ، وأبرزه إلى حيّز الوجود .

★ ☆ ★

# الفصل الرابع

# نقاط التلاقي والتباعد ما بين هذه النظريات

من المفيد أن نعلم أن ما أطلقنا عليه مُصطلح « نظرية قرآنية كونية » ، لا يتجاوز في مضمونه الأسئلة الخمسة عشر التي طرحناها وأجبنا عنها في هذا الكتاب . وأن جميع ما قدّمه علماء العالم ، وأوروبة خاصة ، من أبحاث كونيّة ونظريّات ، إنما تؤلّف في حقيقتها فروعاً من الأسئلة الخمسة عشرة ، وتدور معها وفي إطارها العام .

من هذا الفهم نعود قادرين على المقارنة بين النظرية القرآنية الكونية ، وبين ما ظهر حتى الآن من نظريات كونيةٍ وأبحاث . ولذا فستروني أحاول القيام بهذه المقارنة باختصارٍ مقبول . فأقدم على توضيح نقاط التلاقي بين هذه النظريات ، ونقاط التبّاعد فيما بينها . جاهداً في إفادة القارىء الكريم ، من خلال عملية المقارنة المشار إليها ، وتمكينه من إدراك هذه المعالم على وجهها الصحيح .

وأول ما ينبغي أن نضعه في حُسباننا ، هو أنّ النظرية القرآنية الكونية ، ليست هي وليدة اليوم . بل أتى على ذكرها كتاب الله القرآن المجيد منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، يوم كان مجرّد الكلام على نظريّاتٍ كونيّة ، يُعدّ من قبيل الفضول . ومن هذا تدركون كم أعدّ الله عز وجل من احتياط حين أنزل كتابه الكريم في ذاك التاريخ الغابر من الزمان .

فقد ابتدأ جلّ شأنه مخاطباً أُناساً لم تتوفّر لهم معطيات علمية في مجال الحقائق الكونية . وابتدأ مخاطباً أمّةً أميّةً لم يطلع معظم أفرادها على ما أسفر عنه ثمار الفكر الإنساني من ثمار . كما جاء تعالى يخاطب أهل كل زمان ومكان . وكان لزاماً أن يضع لنظريته مُصطلحاتها بلسانٍ عربي مبين .

وجوه الاحتياط هذه ، أخذها ربّنا بعين اعتباره ، عندما طرح في كتابه القرآن المجيد نظرية كونية كاملة الجوانب والأبعاد . فجاءت نظريّته مُقتضبةً وواقعية وشاملة . وقد كان مفسّروا القرون السابقة معذورين حين لم يُحيطوا علماً بهذه النظرية الكونية على الوجه الذي وضّحناه وبيّناه . وينبغي أن يظلّ عالقاً في أذهاننا قولي ، عند الكلام عن أهميّة هذا البحث « أن النظرية القرآنية الكونية» لم تتجاوز في مُعطياتها حاجة الإنسان المعرفيّة ، وما يملكه هذا الإنسان من قُدُراتٍ تساعده على إدراك المعرفة . وقد ترك الله جل شأنه معرفة ما وراء ذلك للباحثين » .

★ ☆ ★

# نقاط التلاقي

## نقطة اللقاء الأولى

إذا عاودنا سؤالنا الأول وهو : عالمنا هذا ، هل هو ماديّ وحسب ، أم يضمّ إلى المادة عُنصراً روحيّاً ؟ .

لاحظنا تقارُباً بين ما توصّل إليه علماء القرن العشرين الأوروبيين ، وبين ما كشف عنه القرآن المجيد من حقائق ، تقارباً بدا جليّاً ، حين بلغ هؤلاء حدّ القول إن الإنسان ما دام يملك حريّة الاختيار ، فلا داعي يدعونا لأن نقصر سلوكه الإنساني على آلياتٍ غريزية هي أدنى من مستوى البشر . وأنّه ينبغي اعتبار الدّوافع الواعية للإنسان المُعافي ، هي الأسباب الحقيقية لتصرُّفاته . وقد علمنا أنّه تصّدر هذا المنحى الفكري كبار علماء النفس كالدكتور ( فيكتور فرانكل ) والدكتور ( فرانك سفرين ) . إلى جانب علماء الذرّة الذين كشفوا عن أنّ الذّرة مُركّبةٌ هي أيضاً من عَنصرٍ مادّي وآخر روحي وهو ما يُسمّى بقوى الذّرة .

وقد نبّهنا القرآن المجيد ، على شاكلة ما قاله هؤلاء ، إلى أن الإنسان مُركّب من جسدٍ وروح ، وأطلق على هذا العنصر الرّوحي اسم النّفس . بل سلّحنا أيضاً بمواعظ لتهذيب هذه النفس ، على أسسٍ علمية ، ممّا لا مجال للكلام عليه في هذا المقام .

على هذه الصورة تكون النظرية القرآنية الكونية قد تلاقت على هذا الصعيد مع النظريات المعاصرة الكونية يقيناً ، وإن كان ثمّة بينهم فروق في التفاصيل .

## نقطة اللقاء الثانية

وإذا عاودنا قراءة سؤالنا الثاني ، وهو : مادّة هذا العالم ، أزليّةٌ هي أم مخلوقة ؟ .

لاحظنا تقارباً بين ما توصّل إليه علماء القرن العشرين الأوروبيين ، وبين ما كشف عنه القرآن المجيد ، تقارباً قد بلغ حدّ التوافق . إذ بلغ هؤلاء حدّ القول إن المادة غير أزليّة الوجود ، وإنّ عُمر هذا الكون لا يتجاوز ما بين ( ١٢ ـــ ٢٠ ) مليار عام . بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، حين أعلنوا عن نظرية الإنفجار العظيم » . هذه النظرية التي أثبتوا من خلالها أن هناك عقلاً مُطلقاً أزليّاً وراء خلق هذا الكون . وقد خلق هذا الكون من مادّةٍ كانت مضغوطةً في حيّزٍ لا يتجاوز بروتوناً واحداً . وذلك عن طريق تفجيرها ، مع إخضاعها لقانون التمدّد والنّشوء والإرتقاء .

وقد رأينا كيف نبّهنا القرآن المجيد إلى مخلوقيّة هذا الكون ، وأنّ الله تعالى هو خالق هذه السّماوات والأرض . وقد برهن بذلك على ما لله من علمٍ وقُدُرات . نبّهنا تعالى إلى هذه الحقيقة ، من خلال عشراتٍ من آيات كتابه العزيز . حتى غدت لدى المؤمن إحدى البديهيّات .

على هذه الصورة تكون النظرية القرآنية الكونية قد تلاقت مع أحدث النظريّات الكونية المعاصرة ، على طريق الجزم بموضوع مخلوقية المادة وعدم أزليتّها .

## نقطة اللقاء الثالثة

وإذا عاودنا قراءة السؤال الثالث ، وهو : إذا صّح خلق المادّة ، فمن هو خالقها ؟ .

لاحظنا أن هناك بين ما توصّل إليه علماء القرن العشرين الأوروبيين ، وبين ما كشف عنه القرآن المجيد ، تقارباً لم يبلغ حدّ الإلتقاء . إذ بالرغم من أن هؤلاء قد بلغوا حدّ القول أنّ خالق المادة هو عقلٌ مُطلق أزليّ ، ودلّهم على وجوده نظرية

الإنفجـار العظيم . بل راحوا يرون في جمال الطبيعة الوافر ، وموسيقى الأصوات ، وما شـاكل ذلك ، ملامح تدلّ على ما يملكه . هذا العقل المطلق الأزلي من صفاتٍ وسمات . فبالرغم من هذا كلّه ، نلاحظ أنّهم لا يزالون قاصرين عن تصّور ما لهذا الخالق من سمو الصفات والقدرات .

بينما نلاحظ أن القرآن المجيد ، قد نبّهنـا إلى وجود هذا العقـل المُطلق الأزلي ، وأسماه اسماً ذاتيّاً ، هو لفظ الجلالة ( الله ) . وأطلعنا على ما يزيد على مائة صفة من صفاته أيضاً . بل فتح لنا الطريق لتحصيل معرفته وتلقيّ تجليّاته .

أي أن النظرية القرآنية الكونية قد تلاقت مع أحدث النظريات الكونية المعاصرة جزماً بوجود الله ، العقل المطلق الأزلي ، هذا بالرغم من تخلّف هذه النظريات عن الإحاطة بصفات هذا الخالق وتبيّن السّبيل للوصول إليه .

**نقطة اللقاء الرابعة**

وإذا عاودنا قراءة سؤالنا الرّابع : إذا صحّ أنّه لابُدّ من خالق ، أوَلَم يكن خلقه عن إرادةٍ وغايةٍ وتصميم ؟ .

لاحظنا أنّ علماء الفلك والفيزياء الأوروبيين المعاصرين ، وإن كان اختصاصهم لا يمتّ إلى سؤالنا بصلةٍ موضوعية ظاهرة . قد تكلموا فعلاً عن الكون بوصفه كُلاًّ واحداً قابلاً للبحث العقلاني . كما ذهبوا إلى القول إنّ هناك أشياء كثيرة لا تفسّرها المصادفة ولا الضرورة ، وإنّما يفسّرها إبداع الخالق الذي خلق الكائنات في هذا العالم عن إرادة وغاية وتصميم .

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى أن الله تعالى ، قد خلق هذا الخلق عن إرادة وغاية وتصميم . بل أتى على ذكر هذه العاية ، في أكثر من مقام .

أي أن النظـريـة القـرآنيـة الكونيـة ، قد تلاقت مع أحدث النظريات الكونيـة المعاصرة ، حين جزمت بما ذكرناه . بل لا تزال النظريات الكونية المعاصرة ، دون

مستوى ما بيّنه القرآن المجيد في هذا المجال وأفاض . إذ لم تستطع الجزم بالغاية من خلق الله لهذا الكون العظيم . ولا الجزم بالغاية من خلق الإنسان على سطح هذه الأرض .

وبألفاظٍ أخرى ، فإن النظرية القرآنية الكونية قد تلاقت مع أحدث النظريّات الكونية المعاصرة في موضوع الجزم بتحقّق خلق هذا العالم من قبل الله تعالى عن إرادة وغاية وتصميم . لكن هذه النظريات ظلّت دون مستوى ما أفاض به القرآن علينا في هذا المجال .

## نقطة اللقاء الخامسة

وإذا عاودنا قراءة سؤالنا الخامس : أَوَجَاء خلقُ الخالق للكون دفعةً واحدةً ، أم خلقه فاستنّ فيه قانون النشوء والارتقاء ؟ لاحظنا أن علماء القرن العشرين الأوروبيين المعاصرين ، خالفوا ما صرّحت به تَوْرَاتُهم . ورفضوا ما قال به أسلافهم من علماء القرن التاسع عشر ، وذهبوا إلى أنّ الكون يعود خلقه إلى ( ١٢ ــ ٢٠ ) مليار عام . وقد خضع طوال هذه المُدّة لقانون التمدد والنشوء والارتقاء .

هذا على حين نبهنا القرآن المجيد إلى أن الله تعالى ، لم يخلق هذا العالم دفعةً واحدة ، بل أتّمه بستة أدوار ، وأخضعه لقانون النشوء والارتقاء .

أي أن النظرية القرآنية الكونية قد اتفّقت مع أحدث النظّريات الكونية المعاصرة جزماً ، في خضوع خلق هذا العالم لقانون النشوء والارتقاء .

## نقطة اللّقاء السادسة

فإذا عاودنا قراءة سؤالنا السادس ، وهو : ما مصير هذا العالم ، الفناء أم الخلود ، ومتى يفنى ؟ .

لاحظنا أنّ علماء القرن العشرين الأوروبيين المعاصرين لم يوافقوا أسلافهم في موضوع أزلية المادة وخلودها ، بل قالوا إنه لابدّ أن يأتي على هذا الكون الفناء ، في يومٍ من الأيّام .

والقرآن المجيد قد نبّهنا أيضاً إلى أنه تعالى خلق المادة أداةً مرحليّةً ، ولم يخلُقها لتخلد خلود النّفس البشّرية . كما نبّهنا أيضاً إلى أنّه سيعيد هذه المادة سيرتها الأولى ، فتؤول بذلك إلى زوال .

أي أن النظرية القرآنية الكونية قد توافقت مع أحدث النظريّات المعاصرة جزماً بعدم أزليّة المادة ، وعدم أبديّتها ، وأنّها ستزول في يومٍ من الأيّام .

## نقطة اللقاء السابعة

وإذا عاودنا قراءة السؤال الثامن ، وهو كيف كان بدء الخلق إجمالاً ؟ لاحظنا أن بين ما توصّل إليه علماء القرن العشرين الأوروبيين المعاصرين من خلال نظريتهم التي طرحوها ، المسمّاة بالإنفجار العظيم ، والمتعلقة ببدء خلق الكون . أن بين ذلك ، وبين ما كشف عنه القرآن المجيد توافقاً عجيباً . بل بإمكاننا القول : إن تصريح القرآن الكريم جاء أكثر دقّةً وأكثر تفصيلاً ، لهذا الموضوع . على حسب ما لاحظتموه عند إجابتنا عن سؤالنا المطروح .

وعليه بات بإمكاننا أن نجزم أن النظرية القرآنية الكونية ، متوافقة مع أحدث النظريات المعاصرة ، عند الكلام على موضوع بدء الكون بشكل إجماليّ .

## نقطة اللقاء الثامنة

وإذا عاودنا قراءة السؤال العاشر ، وهو : هل اختُصّت الأرض بظهور الحياة ، من دون الكواكب ، ولماذا ؟ .

لاحظنـا بـين ما توصـل إليـه علمـاء القرن العشـرين الأوروبيـين المعـاصرين وما كشف عنه القرآن المجيد توافقاً إلى حدٍّ معلوم . إذ بالرغم ممّا جاء به هؤلاء من البحث عبثاً عن وجود حياة أو ظواهر حياة ، في كواكب غير كوكبنا . فقد اضطروا إلى التّسليم مبدئياً أنّـه لم تظهر معالم الحياة ، إلاّ فوق كوكبنا الأرضي ، ولكن ظلّت أبحاثهم مستمرةً في هذا المجال .

هذا في الوقت الذي نبهنا فيه القرآن المجيد إلى أن الأرض قد اختُصّت بالحياة ، من دون سائر الكواكب السماوية الأخرى . وقد وضّح لنا مراراً وتكراراً ، أنّه تعالى قد خصّ الأرض بخلق الإنسـان وتنشئته على سطحها وتطويره . ولو أنه لم يسدّ باب نشوء الحياة في كواكب أخرى لحكمة تقتضيها تقلبات الظروف والأحوال .

لذلك أمكن القول إن النظرية القرآنية الكونية ، قد تلاقت مع أحدث النظريات الكونية المعاصرة ، فيما يتعلّق بموضوع اختصاص الأرض بالحياة . وأضافت إلى ذلك إيضاحها للحكمة من هذا التّفصيل .

## نقطة اللقاء التاسعة

وإذا عاودنا قراءة السؤال الحادي عشر ، وهو : ما الأدوار الجيولوجية التيّ مرّت بها الأرض في تطوّرها ؟ .

لاحظنـا بين ما توصّـل إليـه علمـاء القرن العشـرين الأوروبيـين المعاصرين ، وما كشف عنه القرآن المجيد من معلومات في هذا الصّدد ، توافقاً إلى حدٍّ كبير . فلا اختـلاف إلاّ في عدد الأدوار . وهذا فرق يعود سببه إلى الزوايا التي يُنظر منها إلى الموضوع . فالخلاف ظاهري ليس إلاّ .

المهـم من ذلك ، هو أن القرآن المجيد ، والمُعطيات العلمية على اتّفاقٍ ، من أن الأرض لم يخلقها الله تعالى دفعة واحدة ، بل مرّ في خلقها بأدوار جيولوجية عديدة .

وإن هذا الكشف من جانب القرآن المجيد ، يُكسبه المكانة العظمى . لأنه تأتّى عن عالِمِ الغيب ، و لم يسبقه إلى هذا الإعلان ، دين من الأديان .

أي أن النظـريـة القـرآنيــة الكـونيـة قد تلاقت مع أحدث النظريات الكـونيـة المعاصرة ، في الجزم بمرور نشوء الكرة الرضية بعدّةِ أدوارٍ جئولوجية ، قبل أن تتخّذ شكلها الراهن ، ووضعها الحالي .

★ ☆ ★

# نقاط التباعد بين النظريات

## نقطة التباعد الأولى

وإذا عدنا إلى سؤالنا السابع المطروح ، وهو : وماذا بعد زوال هذا الكون ؟ .

انتبهنا إلى أن النظريات الكونية الأوروبية المعاصرة ، لم تستطع بحث هذا الموضوع بصورة جدّية ، ولم تفدنا فيه بمعلومات . هذا بالرغم من اتفاقها مع القرآن المجيد ، من حيث وجود عنصر روحي إلى جانب العنصر المادي .

على حين نلاحظ أن النظرية القرآنية الكونية بحثت موضوع ما سيبقى بعد زوال هذا الكون . فقالت بخلود النفس البشرية وخلود العقل معها . وإن هذه النفس ستنتقل بعد الموت إلى عالمٍ برزخيٍّ ، فعالم النشّور . وقد لاحظنا أيضاً أنها دعّمت إعلانها هذا بمختلف أنواع البراهين .

فإذا تساءلنا عن سبب قصور النظريات الكونية المعاصرة في هذا المجال . رأينا أنّ السبّب الوحيد كامنٌ في عدم التزام أصحاب هذه النظريات بالنهج العقلاني الذي انطلق منه الإسلام . وهو ضرورة استعانة العقل بوحي السّماء ، فيما يتعلّق بأمور ما وراء الطبيعة .

## نقطة التبّاعد الثانية

وإذا عدنا إلى سؤالنا التاسع ، وهو : ما الأدوار التي مرّ بها خلق العالم ؟ .

انتبهنا إلى أن النظريات الكونية المعاصرة الأوروبية ، لم تصل إلى قرارٍ حاسم في هذا الموضوع .

على حين نلاحظ أن النظرية القرآنية الكونية بحثت هذا الموضوع ، وزوّدتنا حوله بمعلومات .

والمهم أن هذا التفاوت الواقع بين جميع النظريات على هذا الصعيد ، إنّما يعود في نظرنا إلى عدم التزام أصحاب هذه النظريات بالنهج العقلاني الذي زوّدنا به الإسلام . فلو التزموا بهذا النّهج ، فاستعانوا بمُعطيات الوحي السّماوي ، لتوصلوا إلى نفس ما قدمته إلينا النظرية القرآنية الكونية على هذا الصعيد .

## نقطة التباعد الثالثة

وإذا عُدنا إلى سؤالنا الثاني عشر ، وهو : كيف بدأت نشأة الإنسان على الأرض ؟ .

انتبهنا إلى أن النظريات الكونية الأوروبية المعاصرة ، بالرغم من أنّها قد تجاوزت في معلوماتها عصر النظرية الداروينية ومعطياتها ، بما يتعلّق بنشأة الإنسان على الأرض . فإن هذه النظريات لم تأت حتى اللحظة بنظريةٍ بديلةٍ في هذا الموضوع . فما معنى أن ينقضوا نظرية دارون ولا يأتونا بنظريةٍ بديلة ، وما دلالته ؟ .

إن النظرية القرآنية الكونية ، التي ظهرت قبل دارون بأربعة عشر قرناً من الزمان ، تكلمت على نشأة الإنسان على الأرض ، كلاماً منطقيّاً ومعقولاً وجازماً . ولم تستطع جميع هذه القرون الأربعة عشر الردّ على ما طالعتنا به هذه النظرية القرآنية . بل تدلّ جميع الدلائل على تصويب محتوياتها ومُنطلقاتها ، حتى على صعيد العلم والعلماء .

والسبب في ذلك كله ، يعود في نظرنا إلى عدم التزام أصحاب هذه النظريات بالنهج العقلاني الذي طالعنا به الإسلام . وهو ضرورة الاستعانة في هذه المواضيع الغيبيّة بمضمون الوحي السّماوي .

## نقطة التّباعد الرابعة

وإذا عدنا إلى سؤالنا الثالث عشر ، وهو : هل كان وراء خلق الله للإنسان غاية يُراد بلوغها ؟ .

انتبهنا إلى أن النظريات الكونية المعاصرة الأوروبية ، بالرغم مّما توصّل إليه أصحابها من دلالةِ علم ميكانيكا الكمّ ، على وجود مراقب ملازم لخلق الكون . فإنهم لم ينتهوا إلى وجود غاية واضحة وراء خلق هذا العقل المُطلق ، لهذا الكون الفسيح ، حتى الآن .

على حين نصّت النظرية القرآنية الكونية ، توضّح الغاية من خلق الله للإنسان . بل حدّدت الغاية من خلقه . وألقت الضوء على جميع جوانب هذا الموضوع . ثم انتهت في أمرها إلى يقين جازم .

وقد يتساءل بعضهم : لِمَ هذا التفاوت ما بين النظرية القرآنية ، والنظريات المعاصرة ؟ والجواب عن ذلك ما ذكرناه دائماً ، من أن أصحاب هذه النظريات لم يلتزموا بالنهج العقلاني الذي انطلق منه الإسلام في دعوته ، وهو ضرورة إسناد العقل البشري إلى الوحي السّماوي ، في موضوع فكّ رموز الغيب . والكشف في ذلك عن الرأي السّديد .

## نقطة التباعد الخامسة

وإذا عدنا إلى سؤالنا الرابع عشر ، وهو : ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان في العالم ؟ .

انتبهنا إلى أن أصحاب النظريات الكونية الأوروبية المعاصرة . وإن أدرك أصحابها دلالة وجود المخلوق على وجود خالق . إلاّ أنّهم لم يدركوا معالم صفات هذا الخالق نفسه .

هذا على حين مضت النظرية القرآنية الكونية ، تُطلعنا على صفات هذا الخالق . وتفصح عن ذلك لكل جلاء . وقد نتساءل : لِمَ هذا التفّاوت بين النظرية القرآنية ، والنظريات الكونية المعاصرة ؟ والجواب عن ذلك ما ذكرناه دوماً وكررناه ، وهو عدم تقيّد أصحابها بالنهج العقلاني الذي طالعنا به الإسلام .

## نقطة التباعد السادسة

وإذا عدنا إلى سؤالنا الخامس عشر ، وهو : ما مصير الإنسان على سطح هذا الكوكب الأرضي ؟ .

انتبهنا إلى أن أصحاب النظريات الكونية الأوروبية المعاصرة ، قد اعتمدوا في هذا المجال طريق التّخمين حتى اليوم . فلم يستطيعوا أن يجزموا بما سيكون عليه مستقبل الإنسان في هذه الأرض .

على حين مضت النظرية القرآنية الكونية تبدي تفاؤلها المطلق بمستقبل الإنسان . بل وضعت الأسس التي لابدّ من الأخذ بها في هذا السبيل . وقد لاحظنا كيف مضت في الكلام على أوضاع عصرنا ، ببيان وإعجاز . وإنما يدل كل ذلك على شيء واحد لا ثاني له ، وهو أن القرآن المجيد هو كلام الله المقدّس عالم الغيب والشهادة ولا يظهر سبحانه على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من الرسّل .

وخلاصة جميع ما قدّمناه في هذا الفصل ، هو أن القرآن المجيد قد بسط لنا نظرية كونية كاملة الجوانب . اتّفقت في جانبها العلمي مع أحدث النظريات الكونية المعاصرة . لكنها تجاوزتها في عطاءاتها ، على صعيد ما وراء الطبيعة . وقد لاحظنا

جوانب اتفاقها مع هذه النظريات . كما لاحظنا جوانب افتراقها عنها . وفي هذا بُرهان ، يثبت منه معاصرة القرآن المجيد ، لأحدث هذه النظريات الكونية المعاصرة .

★ ☆ ★

# الفصل الخامس

# نواحي امتياز النظرية القرآنية الكونية على سواها

يسعى واضعوا النظريات العلمية عموماً ، أن تتّسم نظرياّتهم بالواقعية والشّمولية . ومع هذا يظلّ الأمر لديهم في حدود النظريّة . فلا يرقى إلى حدّ الحقيقة المُطلقة . فالحقيقة لا تسمى نظريّة . وقد قال العالم الفرنسي ( بوانكاريه ١٨٥٣ — ١٩١٢ ) في كتابه ( العلم والافتراض الصادر عام ١٩٠٢ ) واصفاً النظرية : « لا هي بالصّحيحة ، ولا هي بالكاذبة ، وانّما هي مفيدة وحسب » .

لكن النظرية القرآنية الكونية ، ولو أتى طرحتها على شاكلة ما تُطرح النظريات . فإنني أعتقد جازماً أن معلوماتها ترقى إلى حدّ الحقائق الثابتة ، لايماني بصدورها عن خالق السّماوات نفسه ، على حسب مُعتقدي وتصوّري . وإن هذه النظرية تَفْضُلُ جميع ما وضع ، وما سيوضع من نظريات كونية ، لما تحمله من مزايا ترجيحيّة هامة ، هي :

## المزيّة الأولى : اتفاقها مع العلم مع سبق صدورها

كلّنا يعلم أن البشرية ، قد عرفت نزول القرآن الكريم ، قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان . يوم كان البحث في موضوع الكونيات ، لا تسنّده مُعطياتٌ علمية ، وإنّما كان يُنظر إليه من باب الفضول .

كما يعلم ، أن الذي بُعث وأنزل عليه هذا القرآن ، كان يتيماً أميّاً . وُلِد في أمّةٍ بعيدةٍ عن تيار الفكر الإنسان الذي كان يُعاصرها . إذ كان أكثر أفراد الأمّة من الأميّين . وإن التاريخ لم يزودّنا بمعلومات عن نظريات كونية ، كان يقول بها مَن كان يحيط بشبه الجزيرة العربية من حضارات . اللّهم إلاّ ما ورد في التّوراة . فقد روت التوراة في سفر التكوين قصّة خلق الكون ، على صورةٍ هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . فأتت لا تمتّ إلى الواقع بصلةٍ من الصّلات . وهل يُعقل أن يُصيب الإله لغيٌ ونصبٌ ، فيحتاج إلى يوم استراحة ، كما جاء في نصوصها ، وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ؟ .

قُلناإن قصّة التوراة عن خلق الكون ، أشبه ما تكون بالخيال . فهي لا تصلح لأن يعتبرها الإنسان العاقل المفكّر « نظرية كونية » . ولا يُعقل أن تُعدّ مرجعاً لِما جاء به القرآن الكريم .

من هنا اكتسبت النظرية القرآنية الكونية مزيّتها الأولى على سائر النظريات المعاصرة . بالرغم من أنّ هذه النظريّات ، أسّست على علوم وتقنيّات لم تعرفها البشرية في يوم من الأيّام .

ذلك لأن النظرية القرآنية قد اتفّقت مع النواحي العلمية في هذه النظريات فلم تُباينها أو تختلف عنها ، إلا في طرحها لأمور ما وراء الطبيعة . ولم يكن محمد بن عبد الله ﷺ ، الذي بُعث بهذه النظرية يملك أيّ مصدرٍ علمي ، أو تقنيّ يزوّده بقليل أو كثير في هذا المجال .

وفيما يتعلّق بأمور ما وراء الطبيعة أيضاً ، التزمت هذه النظرية بمنهجٍ جديد منطقيّ ، وهو ضرورة استعانة العقل بوحي السّماء ، في موضوع الغيبيّات . وهكذا اتّسمت هذه النظرية القرآنية بطابع الدّين . ولم تكن في جميع ما قدّمته امتداداً لأي طرفٍ فكريٍّ ، ورد في غابر الأزمان .

على هذه الصورة ، بإمكاننا الجزم أنّ النظرية القرآنية الكونية قد وصلتنا عن طريق الوحي السماويّ ، حاملةً مقومات رجحانها على سائر النظريات المعاصرة على أقلّ تقدير .

## المزية الثانية : كونها مُطَمْئِنة

والمزية الثانية التي رجّحت بها النظرية القرآنية الكونية سواها ، هي أنّها باعثة على اطمئنان النفس المؤمنة بخالق السماوات والأرض . لأنّها وافته عن طريق وحي السّماء ، مُكتسبةً بذلك في نظره قداسة خاصة ، ما امتازت بها سواها من النظريات الوضعية .

والمعلوم أن توفّر عامل الاطمئنان ، في أيّةِ نظرية ، بل أيّ حقلٍ من حقول العلم ، يُعتبر في نظر كل إنسان شرطاً ضرورياً لاتخاذ النظرية أساساً فكرياً . فكيف يتلقّى أحدنا أيّ معلومة من جانب لا يطمئن إليه وَثاقةً وصدقاً . فما بالنا إذا كان الحديث عن نظريّةٍ غارقة في القِدم ، لو لا ثبوت كتاب الله محفوظاً حتى هذا الزّمان .

إن واضعي النظريات أشخاص أمثالنا ، وإذا كُنّا نُصْغي إلى نظرياتهم فلإعتبارنا إيّاهم علماءَ في مضمار الكونيّات . ويظلّ الشكّ يساورنا ، حتى تغدو نظرياتهم حقيقة ثابتة . أمّا النظرية القرآنية الكونية ، فقد جاء بها كتابٌ سماويٌّ عظيم ، وهو هذا القرآن ، الذي عجزت جهود مُنكريه خلال أربعة عشر قرناً من الزمان أن تزلزل عقيدة المؤمن بالوعد الإلهي الذي تضمّنه هذا الكتاب ، وهو قوله تعالى فيه ﴿ **إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

فهاكم نظريات علماء القرن التاسع عشر ، التي انطلق واضعوها من مُنطلق أزليّة المادّة وخلودها . فقد قامت ، كما ثبت لعلماء القرن العشرين ، على أساسٍ لا يسنده العلم . وإنّ الذي يتفحّص كتُب المادية الديالكتيكية ، يلاحظ معالم ضعفها ووهنها ، في تلك الكتب أيضاً . ذلك أنهم تجاوزوا حدّهم ، حين وضعوا نظرياتهم . فقد جاء في كتاب ( المادية الديالكتيكية ص٩٩ ) : « بما أن المادة خالدة لا تفنى ، ولا تُخلق ،

فحركتُها أيضاً خالدة لا تفنى ولا تُخلق . إن نظرية عدم فناء الحركة المادية ، وعدم خلقها ، هي إحدى النظريات الأساسية للمادية الديالكتيكية والعلوم الطبيعية » .

إن قول صاحب الكتاب واضح وصريح ، في أنّ أساس الديالكتيكيّة خلود المادة وأزليتها . فمن يقرأ مثل هذه الكلمات الجازمة في موضوع المادة ، لابدّ أن يذهب ظنّه إلى أن أصحاب هذه النظرية ، قد اكتشفوا ، حتى لحظة كتابة نظريتّهم ، كل شيء عن المادة ، فحسموا أمرها وجزموا رأيهم في موضوعها ، فذهبوا يزعمون ما زعموه .

ونحن إذا عُدْنا إلى الكتاب نفسه ، قبل صفحاتٍ ممّا نقلناه . أي إلى الصفحة ٩٣ . لاحظنا في قولهم ما يشبه الاعتراف ضمنيّاً ، بقصور علمهم عن أن يُحيط بكل ما يتعلق بالمادة من أمور . فقد جاء : « وكلّما تعمقّنا في المادة ، اكتشفنا أشكالاً جديدةً للحركة ، وخصائص جديدة لهذه الأخيرة » . ففي قولهم هذا ، اعتراف يُدينهم ويناقض ما ذهبوا إليه . فهم يتكلّمون جازمين عن المادة ، دون أن يكونوا قد بلغوا كنُهها ، واطلعوا على جميع خصائصها ، ووجوه حركاتها . فكيف سوّغوا لأنفسهم ، والحال هذه ، الجزم في أزليتها وخلودها ؟ .

لا شك أن الذي أوقعهم في هذا الشَّرك ، هو ملاحظتهم تحوّل المادة إلى طاقة ، وتحوّل الطاقة إلى مادة . فلم يفطنوا إلى احتمال أن يكون خالق المادة قد أبدعها على هذا التكوين المرحلي ، وجعلها مجّرد أداةٍ مرحليّةٍ من مراحل خلقه ، وفي النّطاق الذي جعلها الخالق فيه تؤدي جميع ما تؤدّيه من خدمات . فهذا إبداعٌ من قبل الخالق يتجاوز الممكُنات التي هي في متناول المخلوقات . وها هو ذا علم ميكانيكا الكمّ قد أثبت للعلماء الأوروبيين المعاصرين ، خطل النظرية المادية الديالكتيكيّة فيما ذهبت إليه ، وأن الكون أي المادة ، مخلوق ، ويعود خلقه ووجوده إلى ما قبل ( ١٢ — ٢٠ ) مليار عام .

فتأملوا كيف أعلنت النظرية القرآنية الكونية ، التي اشتمل عليها كتاب الله تعالى ، وقد أبرزتُ عناصرها في كتابي هذا ، كيف أعلنت قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، أنّ المادة مخلوقة غير أزلية ولا أبديّة خالدة . وقد جاءت نظرية « الإنفجار العظيم » فأثبتت صحّة ما ذهبت إليه هذه النظرية القرآنية . فكيف لا تبعث هذه النظرية بعد هذا على الاطمئنان ؟ خصوصاً وأن جميع عناصرها قد اتفّقت في نواحي العلم ، مع أحدث النظريات الكونية المعاصرة ، كما رأينا ، و لم تختلف معها إلاّ فيما وراء حدود المحسوسات ؟ .

وبألفاظٍ أخرى نقول : أن النظرية القرآنية الكونية ، قد ثبتت في وجه هذا الرقيّ العلمي الهائل ، الذي ظهرت معالمه في القرن العشرين . أي بعد ظهورها بأربعة عشر قرناً من الزّمان . فإنّ ثباتها على الحال الذي ذكرناه ووضّحناه ، يمنحها يقيناً مزية كونها باعثةً على اطمئنان النفس المؤمنة إليها ، اطمئناناً كاملاً . وتبوُّئها قداسة لا تفضلها إلاّ قداسة رب العالمين . وكيف تُكذَّبُ نظريةٌ بُعث بها « الصّادق الأمين » ؟ .

## المزيّة الثالثة : إعجاز الصياغة والأسلوب

وتمتاز النظرية القرآنية الكونية من جهة ثالثةٍ ، بصياغتها ، وأسلوب عرضها ، الذي بلغ حدّ الإعجاز البيانيّ .

وقد يُقال : وما دخل الصياغة وأسلوب العرض في موضوع صحّة النظرية ، أو عدم صحّتها ؟ .

أقول ، قد لا تحتاج القضايا العلمية إلى روعة الأسلوب في إثباتها ، وبالرغم من كون هذا الاعتراض مقبولاً وصحيحاً ، في الظاهر . لكن لروعة الأسلوب في طرح النظرية القرآنية ، مزيّةٌ في هذا المجال ، على كل حال . ذلك أنّ البيان المُعجز ، يحمل

كل الدّلالة على عظمة الله عز وجل ، مقدّم هذه النظرية ، ومنّزلها على عبده ورسوله خاتم النبيّين . وإليكم محاولة إثبات ما ذكرت .

لابّد لأحدكم أن يكون قد مرّ بحديث رسول الله ﷺ ، وهو قوله : ( أُمرت أن أُخاطب الناس على قدر عقولهم ) . فقد احتوى هذا الحديث على حكمةٍ بالغة ، لابّد من مراعاتها ، عند إبلاغ الدّعوات إلى الآخرين . ذلك أنه لا يجوز أن نحاور طفلاً ما بمنطق الفلسفة والرياضيات . من هنا كان لابُدّ أن تتجلّى معالم الإعجاز في كلام الله المقدس ، حين يوجّه كلامه إلى الناس أجمعين .

أجل خاطب ربّنا الناس كافة ، بقوله ﴿ **قل يا أيّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ . وإن كلمة ( جميعاً ) تشمل الناس في كل زمانٍ ومكان . ويوجب هذا الشّمول ، ولا شك ، أن تأتي صياغة النظرية القرآنية الكونية ، بحيث تأخذ بالحُسبان ، مفاهيم أهل كلّ زمان ، وما توصلوا إليه من نظريات كونية . فترجح عليها جميعاً ، وتُقنع بمضامينها أهل كل زمان ومكان ، على اختلاف ثقافاتهم ومراتبهم العلمية . فإن تحقّق كل هذا في صياغة هذه النظّرية في كتاب الله ، فلابُدّ أن يُعتبر هذا الأمر اعجازاً بيانياً ، يُعطيها مزيّةً خاصّة على بقيّة النظريات .

ولا شك أن في أسلوب وصياغة وعرض القرآن الكريم لنظريته الكونية ، اعجازاً منقطع النظير ، عديم المثال ، يعجز الإنسان عن تأديته ، مهما علت مرتبته اللغوّية والعلمية ، وبذخت عبقريّته في العظمة والسّمو .

ثم إنّه جل شأنه ، لّما كان قد أعلن في كتابه الكريم ، أنّ كتابه هذا ﴿ **كتابٌ مكنونٌ ، لا يمسّه إلاّ المطهرون** ﴾ بمعنى أنه احتوى على علومٍ لا تتفتّح مغاليقُها إلاّ للمُقرّبين المُطّهرين من المؤمنين . وقد أمرنا من جهةً أخرى بتدبُّر آيات كتابه بقوله ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها** ﴾ ففهي هذا الإعلان ، وهذا الحثّ على تدبّر الكتاب ، إشارةٌ إلى مزيّة . القرآن الكريم ، بالإعجاز البياني في أسلوب الصّياغة أيضاً .

وهاكم النظرية القرآنية الكونية ، وعناصرها الخمسة عشر ، كما أبرزناها ، لم تأت صياغتها وأسلوب عرضها ، على شاكلة الصياغة والأسلوب التقليديّين . بل جاءت صياغتها فريدةً في نوعها . وَوُزّعت هذه العناصر خلال سور القرآن بشكل حكيمٍ أيضـاً . فلم يستهجنها العاميّ ، ولا استغربها المُسـلم العادي ، وأفلحت في مقارعة أعظم النظريات العلميّة .

ثم لابد أنكم لاحظتم كيف أشرنا ، من خلال استدلالاتنا ، من سورتي الأنبياء وفُصّلت أن عرض العناصر التي أتت بها هاتان السّورتان ، جاء موجّهاً إلى أهل كل زمان عامة ، وزماننا خاصـة . بل خاطَبْتُهم أيضـاً بأسلوب الهّادي والناصح الحكيم العليم .

وإذا لم يُعتبر هذا كُلّه مزيّةً في البيان والإعجاز ، فلا تبقى هناك معايير للمفاضلة في هذا المجال . والنظرية القرآنية الكونية إذن ، تمتاز بمثل هذا الإعجاز في الأسلوب والصياغة .

## المزيّة الرابعة : توضيح الغاية من خلق الإنسان

قـد لاحظنـا قول العـالم ( فريمـان دايســن ) : « فبغضّ النظـر عن الظـروف الموضوعية الضرورية للحياة ، كان هذا العالَم قد رُكّب تركيباً في الإنفجار العظيم ، منذ بداية البداية » . أي أنه يبدو أنّه كان مُخطّطـاً لظهور هذا الكون منذ الخطوة الأولى لخلق هذا العالم .

كما لاحظنا قول العالم ( جون ويلر ) الذي أكدّ فيما كتبه ، قوله : « إن الحياة لم تأت اتّفـاقاً ، بل على نقيض ذلك ، فإن ميكـانيكا الكم ، قادتنا إلى أن نأخذ الأمر بالتدبّر ، ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً ، وهي أنّ المُراقب مُلازمٌ لخلق الكون ، ملازمة الكون نفسه لخلق المراقب » . وقد قصد بالمراقب الأوّل وجود الله عز وجل . وقصد بالمراقب الثاني الإنسان نفسه .

وهكذا لاحظنا قول العالم ( ايرون شرود نغر ) حين كتب يقول : « الكون من دون الإنســان ، هو أشبـه بمســرحيّـةٍ تُمثَّـلُ في قاعةٍ تخلو مقـاعدها من جمهور المشاهدين » . أي أننا إذا حذفنا وجود الإنسان من هذا الكون ، لم يعد له معنى أو مغزى .

أقول قد لاحظنا هذه الأقوال المُفعمة بالحقائق . وقد صدرت عن أبرز علماء أوروبة المُعاصرين . وهي تنّبه جميعاً إلى ضرورة معرفة العاية من خلق الإنسان . إذ لا يُعقل أن يكون الخالق العظيم قد خلق هذا الكون البالغ في السّعة والضّخامة ، من أجل وجود الإنسان ، ولا يكون قد حدّد لِخَلق هذا الإنسان قصداً وغاية . ذلك أن معرفة القصد من خلق الإنسان ، أهم بكثير ، في نظري ، من الإطلاع على ما في هذا الكون من عجائب القُدرة ، وبدائع الصُنع . ذلك أن الزمن وأعمار الناس تمضي . فمن لم يدرك العاية من خلقه ووجوده في هذا العالم ، ولا يسعى لتحقيق هذه الغاية . يعود وقد أمضى سِنِي حياته عبثاً دون طائل . فما فائدة تسخير هذا الكون كُلّه ، على عظمته ، لمصلحة هذا الإنسان ، إذا قضىٰ هذا الإنسان دون تحقيق الغاية من خلقه ؟ .

من هنا ندرك فضل النظرية القرآنية الكونية على غيرها من النظريات الكونية . من حيث أنّها جعلت من أهمّ عناصرها التي تضّمنتها ، بيان وتوضيح المقصد من خلق الإنسان . بل زوّدت هذا الإنسان بمواعظ يستعين بها على سلوك هذا الطريق . فما أعظـم بيان القرآن المجيد ، حين نقل إلينا قول ربّنا عز وجلّ : ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون . ما أريد منهم من رزقٍ ، وما أريد أن يُطعمون ، إن الله هو الرزّاق ذو القّوة المتين** ﴾ .

وبسبب هذا الإمتياز ، الذي امتازت به النظرية القرآنية الكونية ، لاحظنا كيف أنّ جميع المؤمنين بهذه النظرية ، وبالكتاب الذي تضّمنها ،قد قضوا جُلّ حياتهم آخذين بمواعظها ، ساعين لتحقيق المقصد من خلقهم ووجودهم في هذا العالم الدنيويّ ،

بكل إيمان ويقين . وإن حصيلة بيان هذا العنصر من النظرية ، فاق في عطائه الفكري للإنسان كل عطاء .

وإن النظريات المعاصرة لن تبلغ حدّ إدراك العاية من خلق الإنسان ، بالرغم من مُعطياتها العلمية الضخمة حتى هذه اللّحظات . وبالرغم من جميع ما أدرجناه من أقوالٍ لعظماء العلماء والمفكّرين .

لذلك كلّه ، ذهبت إلى القول إن رابع ما تمتاز به النظرية القرآنية الكونية ، هو بيانها للغرض الأسمى من خلق الإنسان ، بأجلى بيان .

★ ☆ ★

# الفصل السادس

# كلمة الختام

ممّا يثبت كمال التعليم القرآني ، وكمال حكمته ، أنْ قدّم للبشريّة نظريةً شاملةً وكاملةً وواقعيةً ، فيما يتعلّق بخلق هذا العالم . وقد أسّست على مُنطلقاتٍ صحيحة وواضحة صاحبت أدلّتها القاطعَة في بطون السّور القرآنية . وجاءت على صورة مُطَمْئنةٍ مفحمةٍ للعلم والعلماء ذات أسلوبٍ مثيرٍ للإعجاب .

ولابّد لكل من يطالع كتابي هذا ، أن يُدرك مرتكزات هذه النظرية ومنطلقاتها . وأن يُلاحظ مواقع التقاء عناصر النظرية مع غيرها من النظريات المماثلة ، ومواقع افتراقها وابتعادها عنها . وأنّ لهذه النظرية الكونية سماتٍ امتازت بها على سواها امتيازاً يلفت الأنظار . وذلك بسبب خوض هذه النظرية مجالاتٍ لم يتجرّأ على خوضها أصحاب النظريات المثيلة . وأهمّ هذه المزايا القاؤها الضوء على الإنسان والهدف من خلقه . وكلامها على وجود عالم روحاني ، شبيه بالعالم المادي ، له شمْسُهُ وقمرُه وأرضه وكواكبه .

فعلى صعيد المرتكزات والمنطلقات ، عرفنا أن للنظرية القرآنية الكونية منهجها العقلاني ونظرتها الخاصة إلى الكون ومُبدع هذا الكون . ولها كلمة الفصل في أمر المادة وكُنهها ومصيرها . ولها نظرتها إلى عالمنا الدنيوي ومآله . ولها مُجاهرتها بصُنع الصانع وغايته . وقد رأينا كيف تجنبّت الخوض في الكلام على ذات الخالق وموجباته . ورفضها لمخلوقية الفضاء والزمن والجهات . على اعتبار أن وجودها جاء نسبيّاً ناشئاً عن المادة وتكوينها وأشكال تكوّنها .

وعلى صعيد عناصر النظرية نفسها ، قد أدركنا كيف ذهبت إلى أن إبداع الله تعالى لهذا العالم ، وإن تحقّق على أساس فعل الأمر ﴿ **كن فيكون** ﴾ . إلاّ أن حقيقة هذا الأمر تتضمّن خضوع كل شيء لقانون النشوء والارتقاء ، سواء على صعيد خلق الكواكب والشموس ، أو على صعيد خلق الأرض ونشوء الحياة فيها ، وتعدّد مظاهر هذه الحياة . كما أدركنا كيف حدّدت مرور هذا كلّه في ستّة أدوار زمنيّة . وأن خلق الإنســان وتطويره قد كان المقصد الأسمى من خلق هذا العالم بأجمعه . وأنّ تطوير الإنسان ، كان الهدف منه تعريفه بخالقه ، وضمان ارتباطه به عضوياً . ورأينا كيف ابتدأ الله تعالى عمليّة تطوير الإنسان عن طريق وحيه المقدّس . فاستخلف لأداء هذه المهمة أنبياءه ومرسليه . مُعلناً سبحانه وتعالى استحالة تحقيق هذه المهمة على أيدي هؤلاء الذين أسلموا أنفسهم إلى الدنيا ، وأخلدوا إليها ، متناسين خالقهم ونعماءه وأفضاله عليهم ، ودعوته الشائقة إليهم ، يستصرخهم بها أن هلمّوا إلى ربّكم . ورأينا كيف نبهّت هذه النظرية القرآنية البشرية في العالم ، إلى أنّ دنياهم لها بدايةٌ ولها نهاية . وأنّها دار ابتلاء وامتحان . وأنّ الإنسان صائر إلى ربّه ، بعد موته ، يبعثه تعالى يوم المعاد ، ويهبه حياةً خالدةً بعد دينونه . وأن خالقه هو مالك كلّ شيء ومحرّك كل شيء . يفعل ذلك عن طريق ملائكةٍ لا يعصون له أمراً . وأنّه ليس باستطاعة العلماء ، ولا باستطاعة قدرة أي قادر أن يُخلّ بعمل ملائكة الله تعالى ، أو أن يحدّ من تدبيرها شؤون حياتنا الدنيوية . كما لاحظنا أن النظرية القرآنية لم تُهمل أمر تصحيح الأخطاء التي أوردها فيها محرّفوها والعابثون بها .

وعلى صعيد نقاط التّلاقي مع النظريات المماثلة ، فقد مَرَرنا على كشوف الوحي القرآني العلمية بشأن حقائق قد ثبتت ، وقد عرضها القرآن الكريم قبل يومنا هذا بأربعة عشر قرنان من الزمان . وأنّ العلماء ، جميع العلماء من فيزيائيين وفلكيّين وطبيعيّين ، قد صدّقت كشوفهم ، ما كشف عنه القرآن الكريم ، الذي بُعث به محمدّ النبيّ الأميّ ﷺ بوحي الله وإلهامه . وأنّ الله تعالى قد كشف في ذاك الزمان الغابر أنّ

السّماوات والأرض كانتا رتقاً ، وأن الجبال لم تهبط من السّماء . بل برزت من باطن الأرض بتقديرٍ من خالقها ، فاختزنت مياه الأمطار لتتفجّر منها أنهاراً وينابيع تسقي الأرض والإنسان . وأن الله تعالى قد أحاط الأرض بطبقة الأوزون، لتحمي سُكّانها من الأشعة الضارة القادمة إليها من الشمس . وإن الشمس والأرض والقمر تدور في أفلاكٍ محدّدة لها في الفضاء ، فينشأ عن دورانها اللّيل والنّهار .

وقد رأينا كيف تكلّمَتْ هذه النظرية على خلق الأرض ، فقرّرت أنّ خلقها قد تمّ في دورين . وأنّ الحياة والأقوات تحقّقت بعد بروز الجبال على سطح الأرض . كما لاحظنا أن القرآن الكريم واجهنا بحقيقةٍ جازمة ، وهي أنّ أقوات الأرض لن تنتهي أو تنفذ في يومٍ من الأيّام ، وأنه تعالى جعلها مُشاعةً لجميع السّائلين . وأنّ ذلك كلّه قد تحقّق في أربعة أدوارٍ جيولوجية بارزة المعالم .

وقد تبيّنا أخيراً النّواحي التي فضَلَت بها النظرية القرآنية الكونية سواها من النظريات المماثلة ، ومقوّمات رحجانها على سواها . لا سيما من حيث كونها باعثةً على اطمئنان النفوس إليها . وإن المرء ليشعر بقداستها وعظمتها . كما تعرّفنا وجوه إعجازها البياني من حيث صياغتها . وكيف امتازت بصياغتها وأسلوب عرضها . وتوضيحها الغاية من خلق الإنسان وإيجاد العالم الروحانيّ الذي أوجده تعالى ، لاستقبال هذا الإنسان ، إذا سعى لذلك سعيه ، وجهد فيه جهد طاقته .

فالنظرية القرآنية الكونية ، حين جعلت خلق الإنسان محور هذا الكون . من حيث أعلنت أن الله تعالى خلق هذا العالم مُسخّراً لمصلحة الإنسان ، مساعدةً منه تعالى إياه لتحقيق الهدف والغاية من خلقه . وحين نبهّت إلى أن موت الإنسان لا يعني فناءه ، بل يعني انتقاله من دار الامتحان والابتلاء ، إلى دار الدينونة والخلود .

وإن النظرية القرآنية الكونية حين جعلت من شخص محمد بن عبد الله ﷺ أُسوةً حسنةً للناس أجمعين ، من حيث عقائده ومعرفته لخالقه ، وصلته بربّه ، ومن حيث أخلاقه وشمائله . تكون هذه النظريّة قد أسعفت الإنسان بمِصداق آماله ،

وأخصَب بها زرع أمانيه . فبعثت في نفسه عزيمةً ماضيةً وحيويّةً متدفّقةً ، فارتسمت بذلك على شفتيه ابتسامة النّصر ، وأشرق في مُحيّاه صباح البِشر .

هذا على حين تُرى النظريات المادّية تمضي ، فتوهم الإنسان أن المادّة أزليّة خالدة ، وأنه هو الذي يموت ويفنى . مُتناسيةً أن الإنسان هو الذي سيخلُد ، وأنّ المادة آيلةٌ إلى زوال . بل تمضي ، فتملأُ الإنسان جَزَعاً ، وتوسِعهُ قلقاً ، تنزع البسمة من على شفتيه ، وتوقعه في حيرةٍ وضَيَاع ، وتتركه في شكّ وامتراء . فيندفع إلى إشباع شهواته ، فيحيا بذلك حياة البهائم والسّباع ، يائساً من حياةٍ تاليةٍ لحياته الدنيا ، مُقبلاً على الانتحار .

وعليه فإن النظرية القرآنية الكونية قد فتحت أمام الإنسان باباً عريضاً وواسعاً من الأمل غير المتناهي ، دافعةً الإنسان للتخلّق بأخلاق الله ، والانصباغ بصفاته ، وتقرّباً منه ، وطلباً لمناجاته .

وإن المؤمن بالنظرية القرآنية الكونية ، وهو يتلو بجلالٍ قول ربه : ﴿ **لهم البُشرى في الحياة الدّنيا** ﴾ وقول ربّه ﴿ **تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا** ﴾ وقول ربّه ﴿ **قل إنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني** ﴾ ، ينجذب إلى ربّه بكليته ، مُذعناً لأوامره وأحكامه .

من هذا كله ندرك أن النظرية القرآنية الكونية التي وصفت لنا معالم الطّريق لفهم العالم من حولنا ، هي في حقيقتها ، نظريّة حيويّة ، ما زالت في أوج حيويّتها ، من حيث موافقتها للمُعطيات العلمية من جهة ، وإمدادها للإنسان بنورٍ يشقّ له درب الحياة ، فيقع على لُبابها وجوهرها ، فقد جاءت بجميع عناصرها متحدّيةً كل ما سيطلع به العلم على العالم ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وظلت ثابتةً طوال هذه المُدّة . بل قُل إن العلم حين بلغ ذروة عطائه ، بَدت هذه النظريّة وكأنّها في ذروة شبابها أيضاً .

أوَلم تكن شبه جزيرة العرب بمعزلٍ عن الأوساط العلمية ، وعن حضارة المعسكرين الكبيرين الفرس والروم . وقد كانا يُحيطان بها إحاطة السِّوار بالمِعصم ؟ وأوَلَم يحاول أصحاب هذين المعسكرين إذلال سُكّانها ، والدأب على تعميق انقسامهم على أنفسهم ؟ فمن أين تأتّى لمحمد بن عبد الله ، الرسول اليتيم الأميّ ، والحال هذه ، وقد كان لا يملك مالاً ، أو زعامةً في قومه . من أين تأتت له علوم هذه النظريّة التي وضّحنا معالمها ، والتي اشتمل عليها القرآن العظيم ؟ إلاّ أن تكون جميع علومها من وحي ربّ العالمين .

بل وكيف أمكن محمداً رسول الله ﷺ تأليف قلوب قومه ، وجمعهم ، وتوحيدهم . وقد هبَّ كل فردٍ منهم لمقاومة دعوة الإسلام والقضاء على رسالته ؟ بل وكيف أمكن له تحطيم قوى المعسكرين المذكورين اللّذين كانا يملكان جيوشاً مدرّبةً جرّارة . فكيف أمكنه أن يقهرهم ويحطّم جيوشهم بهذا النفّر القليل من المؤمنين ؟ وكيف تقبلّت الشّعوب المغلوبة دينه ، وأعرضت عن دين آبائها وأجدادها ، دون إكراه ولا إجبار ، لو لم يكن محمد ﷺ والذين معه ممّن أيّدهم الله بقوّته ، فكانوا شاهداً على وجود الخالق ، وآية لسُلطانه ؟ .

ألا وإن النشأة المحمديّة هذه لم تنقطع عن عطائها حتى أيامنا هذه فهذا عصُرنا الذي سُميّ في القرآن والحديث أنّه آخر الزّمان ، والذي أنبأ عن ظهور يأجوج ومأجوج ، وتصّدع صفوف المسلمين فيه ، وتردّي أحوالهم ، وغلبة فتنة المسيح الدجّال ، المتمثّلة في فتنة الاستعمار والهيمنة الغربيّة . أو لم تتحقّق هذه النبوّءات ؟ أفلا يدلّ تحقّقها على استمرار عطاء النشأة المحمديّة التي كانت شاهداً على كون الله حيّاً وقيوّماً ، الإله الذي ضمّن كتابه الكريم عناصر النظرية القرآنية الكونية التي ذكرناها ؟ فهل بمقدور أصحاب النظريّات الماديّة ، بعد هذا ، والقائلين بأزليّة المادة وخلودها ، وبتفاهة وجود الإنسان ، أن يُنكروا بعد هذا كله وجود الخالق ، والبعث والنّشور ؟ فهل بمقدورهم أن يُصّروا على أنّ الأديان من أساطير الأوّلين ؟ .

ألا وإنّي قدّمت معالم هذه النظرية القرآنية الكونية ، بما استفدته من علوم مجدّد هذا الزّمان ، فأرجو أن أكون قد خدمت ديني الإسلام ، بما وسعني بذله من طاقة وجهد . متوسّلاً إلى الله عزّ وجلّ أن يفتح عيون عباده لاستيعاب معالمها .

وإنني أعلن عن تجربةٍ ويقين كاملين أنّ الله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير . فمن كان له أُذنان للسمع فليسمع . ومن كان له عقل ، فليأت ربّه بقلبٍ سليم . والله وكيل المؤمنين . ولا يضيع أجر المحسنين . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

**١٩٩٣/٣/٣١**

**سليم الجابي**

# تعريف بالشخصيات الهامة

**البرت أينشتاين** Allert Einsteine ( ١٨٧٩ ـــ ١٩٥٥ ) : فيزيائي ألماني وضع عدداً من النظريات في الفيزياء ، أدخلت مفاهيم جديدة للزمان والمكان والحركة والضوء والجاذبية .

**نيلز بور** Niels Bohr ( ١٨٨٥ ـــ ١٩٦٢ ) : فيزيائي دانمركي من مؤسسي علم الفيزياء في القرن العشرين . وضع نظرية في تركيب الذّرة .

**فيرنر هايزنبرغ** Wermer Heisenberg ( ١٩٠١ ـــ ١٩٧٦ ) : فيزيائي ألماني من واضعي نظرية الكم .

**جورج غاموف** George Gamouv ( ١٩٠٤ ـــ ١٩٦٨ ) : فيزيائي نووي أمريكي . اشتهر في مجال تبسيط النظريات الفيزيائية لغير المتخصّصين . وضع عام ١٩٢٨ نظرية في انحلال الذرات ذات النشاط الاشعاعي . إليه تنسب نظرية ( الإنفجار العظيم The By Bany ) .

**رينيه ديكارت** René Descarts ( ١٥٩٦ ـــ ١٦٥٠ ) : فيلسوف ورياضي فرنسي . يعتبر في نظر الباحثين أبا الفلسفة الحديثة . اكتشف الهندسة التحليلية . من أشهر مؤلفاته الفلسفية ( مقالة في المنهج ) .

D.N.A : حمض تحمله البروتينات في نوى الخلايا ويقوم بدور هام في نقل الصفات الوراثية .

**ايرون شرود نغر** Eruon Sehrödinfer ( ١٨٨٧ ـــ ١٩٦١ ) : فيزيائي نظري نمساوي .

**نظرية الكم** Quantum Theory : نظرية فيزيائية حديثة تقول أن عملية امتصاص أو انبعاث الطّاقة لا تتمّ جُملةً واحدة ، بل على مراحل ، كل منها عبارة عن حزمة من الطاقة تسمى ( الكمّ ) . تشكل هذه النظرية ، ونظرية النسبيّة لأينشتاين الأساس الذي قام عليه علم الفيزياء الحديث .

**هانز بيته** Hans Bete ( ١٩٠٦ ـــ ١٩٧٧ ) : فيزيائي أمريكي ألماني المولد . عُرف بنظرياته البارعة في خواص الذرات .

**ادوين هبل** Eduoin Hubble ( ١٨٨٩ ـــ ١٩٥٣ ) : فلكي امريكي . اكتشف ثلاث مجرّات عملاقة تقع فيا وراء مجرّتنا . أوّل من قدم أدلة رصدية تؤيد نظرية تمدد الكون .

**كارل غاوس** Korl Gauss (١٧٧٠ ـــ ١٨٥٥ ) : من كبار علماء الرياضيات الألمان .أسهم إسهاماً كبيراً غي علوم الفلك والرياضيات والفيزياء . وسميت وحدة الحث المغنطيسي باسمه .

**ستيفن فاينبرغ** Steven Weinbreg : مؤلف كتاب الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون صفحة ١٥٤ .

# المراجع الأجنبية

P.64 **Steven W .H aur King.** «The Anisotropy of the Universe at Lorge Times.» In Confrontation of Cosmological theories with observational Data, ed, M.S. Lonfair.
Dordrecht, Holland: Reidel, 1974.
P.63 **Sidney A. Bludman.** «Thermady namics and the end of a clased Universe».
Nature 308 (22 March 1984), pp. 319 __ 322.
P.63 **John A. Wheeler.** «Genesis and observer ship».
In Found ational probbems in the special Sciences. ed, Robert E. Butts and Jaakko Hintikka. Dordrecht, Holland: Reidel. 1977.
«The Universe as a Home for Man».
American Scientist 62 (Nov. – Dec. 1974). 683 – 691.
P.64 **Soseph silk .** The Big Bang. The Creation and Evolvtion of the Uninerse. Son Francisco: W.H. Freeman 1980.
P.64 **Robert Jastrauv** God and the astronomers
Neuv York : Norton, 1978.
P.89 **Victor E. Frankl.** Man's Search for Meaning.
Neuvtork: Pocket Books, 1959.
The Will to Meaning.
Neuv york: Neuv A merican libraru, 1969.
The Doctor and the Soul.
Neuv york: Knopf, 1955.
The Unconscious God. Neuv york: Simon & Schuster, 1975.
Psychoanalysis and Existentialism.
Neuv york: Simon & Schuster, 1967.
P.86 **Frank T. Severin.** Discovering Man In Psychology: A Humanistie Approach.
Neuv york: Mc Grouv __ Hall, 1973.
P.65 **Brandon Corter.** «Large Number Coinciden ces and the Anthropic Principle».

In Confrontatioua of Cosmological Theories with Observational Data, ed. M.S. Longair. Dordrecht, Holland: Reidel, 1974.
P.67 **Freeman Dyson**: Disturbing the Universe.
Neuv york: Harper & Rouv, 1979.
P.59 **Dennis W. Sciama.** «The Origin of the Universe», inThe State of the Universe, ed, Geoffrey Bath (oxford: Clarendon Press, 1980). P.3.
Wheeler, «Genesis and observership,» P.17.

★ ☆ ★

# المراجع العربية


معجم محيط المحيط

معجم أقرب الموارد

مفردات الراغب

معجم المقاييس

تفسير ابن كثير

عالم المعرفة : العلم في منظوره الجديد

عالم المعرفة : طبيعة الحياة

قصة نشوء الكون للدكتور مخلص الريس والدكتور علي موسى

نافذة على كوكب الحياة للدكتور طالب عمران


★ ☆ ★

# فهرس الكتاب


**مقدمة الكتاب** ........ ٧

**أهمية هذا البحث** ........ ١١

**الفصل الأول** ........ ١٧

النظرية القرآنية الكونية ومنطلقاتها النظرية ........ ١٩

١ ـ النهج العقلاني ........ ١٩

٢ ـ وحدة الخالق ووحدة المخلوق ........ ٢٥

٣ ـ خفاء ماهية المادة ........ ٢٦

٤ ـ عدم أزلية المادة ........ ٢٧

٥ ـ الإرادة والتصميم في موضوع الخلق ........ ٣٠

٦ ـ الزمان والمكان ........ ٣٣

٧ ـ تجنّب البحث في الذات الإلهية ........ ٣٤

**الفصل الثاني** ........ ٣٩

عرض النظريات الكونية المعلنة ـ الانفجار العظيم ........ ٤١

نظرية الانفجار العظيم ........ ٤١

**الفصل الثالث** ........ ٥١

النظرية القرآنية الكونية وعناصرها ........ ٥٣

١ ـ هل عالمنا ماديّ ؟ وحسب ؟ ........ ٥٥

٢ ـ المادة أزلية أم مخلوقة ؟ ........ ٥٩

٣ ـ فمن خالق المادة ؟ ........ ٦٤

٤ ـ هل خلق بإرادة وتصميم ؟ ........ ٧٢

٥ ـــ هل لقانون النشوء والارتقاء دور ؟ ........ ٨٠
٦ ـــ ما مصير هذا العالم ؟ ........ ٩٠
٧ ـــ ماذا بعد زوال الكون ؟ ........ ٩٨
٨ ـــ كيف كان بدء خلق الكون اجمالاً ؟ ........ ١٠٦
٩ ـــ ما الأدوار التي مرّ بها خلق العالم ؟ ........ ١١٣
١٠ ـــ لماذا اختصت الأرض بالحياة ؟ ........ ١٢١
١١ ـــ أدوار خلق الأرض ........ ١٣٠
١٢ ـــ كيف بدأت نشأة الإنسان ؟ ........ ١٣٨
١٣ ـــ الهدف من خلق الله للإنسان ؟ ........ ١٤٧
١٤ ـــ ما مغزى وجود الإنسان ؟ ........ ١٥٦
١٥ ـــ ما مصير الإنسان في الأرض ؟ ........ ١٦٤

**الفصل الرابع** ........ ١٧٣
نقاط التلاقي والتباعد ........ ١٧٥
نقاط التَّلاقي ........ ١٧٧
نقطة اللقاء الأولى ........ ١٧٧
نقطة اللقاء الثانية ........ ١٧٨
نقطة اللقاء الثالثة ........ ١٧٨
نقطة اللقاء الرابعة ........ ١٧٩
نقطة اللقاء الخامسة ........ ١٨٠
نقطة اللقاء السادسة ........ ١٨٠
نقطة اللقاء السابعة ........ ١٨١
نقطة اللقاء الثامنة ........ ١٨١
نقطة اللقاء التاسعة ........ ١٨٢

**نقاط التبّاعد** ........ ١٨٥
نقطة التباعد الأولى ........ ١٨٥
نقطة التباعد الثانية ........ ١٨٥
نقطة التباعد الثالثة ........ ١٨٦
نقطة التباعد الرابعة ........ ١٨٧
نقطة التباعد الخامسة ........ ١٨٧
نقطة التباعد السادسة ........ ١٨٨

**الفصل الخامس** ........ ١٩١
نواحي امتيازها على سواها ........ ١٩٣
المزية الأولى موافقة العلم ........ ١٩٣
المزية الثانية كونها مطمئنة ........ ١٩٥
المزية الثالثة اعجاز الصياغة والأسلوب ........ ١٩٧
المزية الرابعة توضيح الغاية ........ ١٩٩

**الفصل السادس** ........ ٢٠٣
**كلمة الختام** ........ ٢٠٥

## صدر للمؤلف:

- نظرية جذور الأخلاق.
- نقض القراءة المعاصرة (ثلاثة أجزاء).
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم.